أمراؤنا الأعـزاء جداً

هل هم أصدقاؤنا حقـاً؟

أمراؤنــا الأعـزاء جــداً

هل هم أصدقاؤنا حقاً؟

تأليف: كريستيان شيسـنو
جـورج مالبرينـــو
ترجمة: د. منصور نجم حديفي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

أمراؤنــا الأعـزاء جـداً هل هم أصدقاؤنا حقاً؟ / كريستيـان شيـسـنو، جـورج مالبرينـــو؛ ترجمة منصور نجم حديفي .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧ .- ٣٠٠ص ؛ ٢٥ سم.

١- ٣٢٧,٥٦٩ ش ي ب أ ٢ - العنوان ٣- شيسـنو

٤ -مالبرينـــو ٥ - حديفي

مكتبة الأسد

مُقدِّمة

تدور أحداث المشهد في عام ٢٠٠٧ في فندق هيلتون بمدينة جدة، أكبر موانئ المملكة العربية السعودية على شواطئ البحر الأحمر؛ حيث ضرب أحد الدبلوماسيين الفرنسيين موعداً مع إحدى كريمات الملك عبد اللّه التي كانت قد حجزت الطابقين الأخيرين من الفندق.

كان على الدبلوماسي الحضور لاستلام خمسة جوازات سفر لأفراد من الأسرة الملكيَّة يحتاجون إلى فيزا لدخول الأراضي الفرنسيَّة.

كانت دهشة الدبلوماسي كبيرة حينما عاد أدراجه إلى سيارته في مرآب الفندق واكتشف أنَّ المغلف الذي يحتوي على جوازات السفر يحتوي أيضاً على مبلغ يعادل ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف يورو بالعملة المحلية مع كل وثيقة سفر أي مبلغاً إجمالياً يُقدَّر بـ ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف يورو.

«لقد أقضَّ هذا المبلغ مضجعي»، أسرَّ لنا الدبلوماسي. وفور عودته إلى القنصلية الفرنسية قام بإعلام إدارته والتقط صوراً للقطع النقدية لكي يغطي موقفه.«يجب مقاومة إغراء المال»، ألحَّ

بالقول. فإذا قبلت هذا النوع من الهدايا ستصبح عبداً،وقد رأيت كثيراً من الأشخاص الذين سقطوا في الهاوية.

أكدّ تحقيقنا هذا الواقع، فبالإضافة إلى الدبلوماسيين وجد العديد من رجال السياسة عناءً في مقاومة الهدايا بكلِ أنواعها التي كان أمراؤنا الأغلى يغدقون بها عليهم. اكتشفنا ذلك في السفارة القطريّة في باريس.

كرمٌ بمردود سيّئ. فبعد الضرب القطري، ها هو الضرب السعودي يتلقى الصفعة، ويتزايد يوماً بعد يوم عدد السياسيين والمفكرين الذين يحققون في قضايا المملكة الوهابية إلى درجة أنَّ الكاتب سليمان رشدي لم يتردد في القول جهراً: « إنَّ الخطيئة التاريخية الكبرى التي ندفع ثمنها اليوم تكمن في الدعم الغربي للمملكة السعودية. إنَّ هؤلاء الناس ليسوا أصدقاء لنا، إنما هم نبع السمّ». لكن مهما كان قليلاً تبدو السعودية وباقي مملكات الخليج ضحايا مريحة لطرد مخاوفنا وتخيُّلاتنا الخادعة.

قمنا من دون أي انحياز بدخول كواليس العلاقة بين فرنسا وهذه البلدان، وهي علاقة قديمة ومعقدة، لكنها ملوَّثة منذ عقود بهذا المال المتدفق.

لقد جنح المسؤولون السياسيون وبعض أصحاب الشركات لدينا - في معظم الأحيان- إلى النظر إلى هذه البلدان بوصفها بقرات حلوب من الواجب الاستفادة إلى أقصى حد مما لديها من

بترودولار. وانتهى الأمر بالأمراء الذين تعودوا على سلوك بعض مسؤولينا السياسيين إلى اعتبارنا أشخاصاً من السهل شراؤهم.

سعينا خلال تحقيقنا إلى الإجابة عمّا يطرحه الرأي العام الفرنسي من أسئلة.

هل تموِّل كلّ من السعودية وقطر فعلاً داعش ومجموعات إرهابية أخرى؟

ما دورهما في نشر الأفكار السلفيّة في أوساطنا؟ وما ماهيَة العلاقات التي تربطهما بإسلام فرنسا ؟

هل يجب إعادة النظر بتحالفاتنا مع هذه البلدان، كما يطلب ذلك بعض المسؤولين ؟

لقد أردنا دراسة سلوك كلٍّ من تلك البلدان حالة بحالة طبقاً للإشكاليات التي تقع في صلب الموضوع.

يسلِّط بحثنا الضوء، بعيداً عن الخلط والتكرار الممجوج، على الفروقات الهامة بين هذه المملكات. ومن الواجب فضح لعبهم على الحبال في بعض الملفات، أما في ملفات أخرى يقيمون فيها علاقات متينة مع بعض رجال السياسة الفرنسيين، فإنه لا يمكن إلقاء اللوم عليهم وحدهم.

قادنا بحثنا إلى السعودية وقطر والإمارات العربية المتحدة والكويت. وفي باريس اطّلعنا على وثائق رسمية، وبرقيات دبلوماسية، ومذكّرات لوزارة المالية والخزانة بشكل خاص.

من بين المئات من الأشخاص الذين توجهنا إليهم بالسؤال قَبِل عددٌ أن يحدثنا صراحةً فضّلت الأغلبية الساحقة منهم الكشف عن أسمائها خوفاً من التعرض للانتقام في بلدان حريَّة التعبير فيها محدودة للغاية.

أردنا أيضاً تسليط الضوء على تطوُّر مجتمعات هذه الدول التي يقودها أمراء، وهو أمر غير معروف على نطاق واسع لدى الرأي العام الفرنسيّ.

يُنظَر غالباً إلى السعودية، البلد المُسيطِر، وفي العالم الكتيم والغامض أحياناً لممالك الخليج، على أنّها جامدة وهذا خطأ؛ لأنّه وبعد رحيل الملك عبد الله عام ٢٠١٥ وُلِدَت سعودية جديدة مع اعتلاء الملك سلمان العرش الذي تبنّى مواقف دبلوماسية أكثر عدوانية في المنطقة مُحقِّقاً قطيعة مع ما كانت عليه الأمور سابقاً.

أمّا في قطر المجاورة فقد حصل العكس مع وصول الأمير الشاب تميم إلى السلطة في حزيران ٢٠١٣، حيث وضع حدّاً للحملات الإعلاميّة والدبلوماسيّة التي كان يشنّها والده الشيخ حمد؛ عمد رأس السلطة الجديد في قطر إلى تبنّي سياسة حذرة على الصعيدين الخارجيّ والداخليّ.

يمكننا باختصار القول إنّ هناك توليفة جديدة تُنسَج الآن في الرياض كما في قطر، وكلاهما شريك مدلّل لباريس.

في إطار سياق ترهّل الاقتصاد في فرنسا تبرز هذه الإمارات فاحشة الثراء أكثر من أيّ وقتٍ مضى بوصفها سوقاً رائجة لصادراتنا؛ لقد أصبح البيع بأي ثمن للأمراء الذين ارتقوا لمرتبة «الشركاء الاستراتيجيين» بداية الدبلوماسية الفرنسيّة في الشرق الأوسط ونهايتها.

لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: ألم نذهب بعيداً؟

إذا ما كنّا نتشاطر معهم مصالح مشتركة حول ملفاتٍ عدّة (إيران – سورية – اليمن .... إلخ). لكن الأجندات الدبلوماسية التي تعلنها مملكات الخليج متباعدة عن أجنداتنا وخاصةً في إفريقيا، وإذا ما التزم الدبلوماسيون الفرنسيون الصمت غالباً وقلّلوا من شأن الخلافات فإنّ العسكريين وعناصر الاستخبارات يُبدون قلقهم حيال هذا النشاط الجامع.

هل أمراء الخليج أصدقاؤنا حقاً؟

هذا هو السؤال الذي سيجهد هذا الكتاب للإجابة عنه.

... أهلاً وسهلاً بكم في بلاط الأمراء.

توسّل المسؤولين في قاعات الانتظار
بالسفارة القطرية في باريس

لم تشهد ساحة النجمة في باريس اكتظاظاً بالشخصيات الهامة للاحتفال في الثامن عشر من كانون الأول ٢٠١٥ بمناسبة العيد الوطني لقطر، اللهم باستثناء الشخصيتين الوحيدتين جاك لانك، رئيس معهد العالم العربي في باريس وجان – ماري لوغين وزير الدولة لشؤون العلاقات مع البرلمان إضافة إلى بعض النواب ورجال الأعمال الذين لبُّوا دعوة مشعل آل ثاني،السفير الشاب لدولة قطر في فرنسا: لم تكن هذه الأمسية تشبه تلك التي كانت في زمن سلفه محمد القواري التي كانت تعجُّ بالشخصيات السياسيّة وبذوات المجتمع الباريسي.

علَّق أحد المقربين من السفارة القطرية في باريس قائلاً: «السفير مشعل فعل ذلك متعمِّداً،لأنه بلغ السيل الزبى لديه من الساسة الفرنسيين الذين لا ينظرون إليه إلّا كبنك»، لقد سئم السفير هذا السلوك لبعضهم.

مارست قطر بالتأكيد كغيرها من إمارات الخليج، ومنذ زمن بعيد، سياسة دفتر الشيكات، إلَّا أنَّ الساسة الفرنسيين انتقلوا إلى الهجوم منذ عدة سنوات، وعرضوا بيع أنفسهم من دون أن يرفّ لهم جفن لإمارة الغاز مقابل تكذيب من هنا وهناك للاتهامات الموجّهة إلى قطر بتمويل المجموعات الإرهابية الإسلامية.

اعتمدنا طيلة بحثنا هذا على الكم الهائل من الأسرار التي باح لنا أصحابها بها.

لكل مقام مقال ! فلنبدأ أولاً بوزراء الجمهورية وعلى رأسهم جان – ماري لوغين الذي كان يسعى إلى فرض إحداث وكالة اتصالات على السفير مخصَّصة لإدارة تصريحات بعض الساسة الفرنسيين مقابل تعويضات مالية بالتأكيد. وبحسب مسؤول في الدوحة، فقد أعلن جان – ماري لوغين عن نواياه من دون مواربة؛ إذ قال لدبلوماسيينا في باريس: «باعتباري وزيراً لشؤون العلاقات مع البرلمان، أمسك بكل النواب وأعضاء مجلس الشيوخ في معسكري من خلال الأسئلة الموجهة للحكومة. وأستطيع أن ألجم أيَّ أسئلة معادية لقطر أو على العكس تأجيجها، لكني لن أفعل ذلك مجاناً» .

«باختصار، إنَّه يقوم بعملية ابتزاز لنا بشكلٍ لا لبس فيه»، أضاف المسؤول القطري.

استمرّ الهجوم المركّز لوزير الدولة قرابة العام لانتزاع دعوة غداء مع السفير القطري المتحفِّظ.قام أحد معاوني جان – ماري لوغين، بعد سلسلة طويلة من الرسائل القصيرة، المرسلة إلى أحد المقربين من السفير، بإرسال رسالة جديدة بتاريخ ١٧ آذار ٢٠١٦ في الساعة الثالثة والعشرين وثمان وثلاثين دقيقة بالضبط.قام مصدرنا في الدوحة بتلاوتها حرفياً حيث يقول فيها: «يتوجب على صديقنا مشعل أن يقرأ هذا المقال لكي يدرك ويفهم ثقل مكانة لوغين ولكي يسرع بإعطائنا موعداً»، وقد أرفق بالرسالة الرابط الإلكتروني على الإنترنت للمقال في جريدة الأحد المؤرخة بـ ٧ آذار الذي يبين حجم السلطة التي يتمتع بها لوغين وهو المقرَّب من رئيس الوزراء الفرنسي مانويل فالز داخل الحكومة[1].

(١) يوجد في هذا المقال تهديد رئيس الوزراء الفرنسي باستقالته خلال لقاء سرّي جمعه مع عشرة وزراء – جريدة الأحد ٧ آذار ٢٠١٦.

قـام معـاون الـسفير القطـري بـالرد عـلى هـذه الرسـالة عـلى الـشكل: «التهديد ليس حلًّا على الإطلاق عليكم بالصبر».

وقع السفير القطري في حـرج، فهـو يتعامـل بكـلّ الأحـوال مـع وزيـر إضـافة إلى كونـه صـديقاً لـرئيس الـوزراء مانويـل فـالز المعـروف بقربـه مـن قطر[1]، لكن في النهاية قبل مشعل دعوة غـداء مـع لـوغين الـذي أعـاد الكـرّة بعرض خدماته، وأجابه السفير بأنَّ الأمـور عنـدهم لا تجري بهـذا الـشكل. ألـحّ الـسيد لـوغين قـائلاً: «ولكـن مـن خـلال وكالـة الاتـصالات المقـترح إحداثها سأحميكم في الجمعية الوطنية كما في مجلس الشيوخ».

تهرَّب السفير مشعل الممتعض من الإجابة بقوله: «سأتحدث عن الموضوع في الدوحة» آملاً بذلك التخلُّص من المسؤول الاشتراكي، إلَّا أنّ الـسيد لـوغين عاد وجدَّد محاولاته في أثناء دعوة غـداء ثانيـة. وبحسب معلوماتنـا فـإنّ الـوزير الاشتراكي اقترح على السفارة القطرية أن توقّع عقداً مع شركة الاتصالات التي يديرها رجل الثقة ألكسندر ميدفيدوسكي الذي يشغل منصب الرئيس والمدير العام لشركة إيزي نيت وورك التي تقوم بدفع مبلغ ١٠٠٠٠ عشرة آلاف شهرياً للسيد لوغين، لا أحد رأى ولا أحد سمع.

وكما سنرى في الفصل القادم، فإنّ السيد لوغين متّهم أيضاً، بأنّه ذهب يدقّ أبواب إمارة نفطيّة أخرى، وربما هذه المرّة ليس لحسابه الشخصيّ.

إنّ الـسيد جـان – مـاري لـوغين معـروف في الأوسـاط الإعلاميّـة الباريسيّة بعلاقاته المفضوحة مع المال[2].

---

(١) أحيـت فرقـة موسـيقا الغرفـة (Alma)، التـي تعـزف فيهـا زوجـة فـالز الـسيدة آن كرافـونعلى آلـة الكـمان، أمـسية موسـيقية في الثلاثـين مـن آذار ٢٠١٥ في الدوحـة بحضور وزير الثقافة القطري.

(٢) تمّ استجواب السيد لوغينعام ١٩٩٨ في إطار قضية شركة التضامن التابعـة لمنظمـة طلابية مقرّبة مـن الحـزب الاشـتراكي حـول اسـتخدام وهمـي وافـتراضي؛ إذ وجّـه القضاة اتهاماً للسيد لوغين بقبض مبلغ قدره مليون وخمسمائة ألـف فرنـك فرنـسي بشكل غير شرعي إلّا أن الملف بأكمله اعتبر غير قابل لإقامة دعوة.

ففي عـام ٢٠١٤ وجّهـت إدارة الـضرائب للـسيد لـوغين طلبـاً شـديد اللهجة للتقيد بالنظام.

وفي شهر حزيران من العام ذاته نقلت الأسبوعية (نوفالأوبسرفاتور) lenouvelobservateur إنّ السلطة العليا للشفافية في الحياة العامة، التـي تقـوم بنشر إعلانات الوزراء عن ثرواتهم،وجهت«تقييماً» لثـروة الـسيد لوغينيفيـد بأنه يخفض «منذ سنوات» من قيمة ممتلكاتـه العقاريـة بمقـدار سـبعمئة ألـف يورو. واضطر لاحقاً الـسيد لـوغين - الخاضـع لقـانون ضريبـة التكافـل بـما يتعلق بـالثروة- التـصريح عـن مبلـغ مليـونين وسـتمئة وتـسع وثمانـين ألـف يورو، كقيمةأملاك عقاريّة لـه –أي مـا يعـادل ثمـن اثنـي عـشر إسـتوديو في باريس.وبناءً عليه تكبّد السيد لوغين تصحيحاً ضريبياً بمبلغ قـدره خمـسون ألف يورو (٥٠٠٠٠) عن عام ٢٠١٣ فقط.

وإذا كـان هنـاك مـن نائـب فرنـسي مُتعِـب للـسفير القطـري بـشكل لا يطـاق فهـو نيكـولا بـيس، النائـب الاشـتراكي المنتخـب عـن منطقـة الـشمال الفرنسي (بادوكاليه) وعضو جمعية الصداقة الفرنسية –القطريـة الـذي كـان مقرباً من السفير القطري الأسبق محمد القواري.

انتهج مع خلفه سلوكاً فظاً، حيـث قـام الـسيد بـيس BAYS شخـصياً بإرسال رسـالة إلكترونيـة إلى الـسفير مـشعل آل ثـاني، نقـل لنـا شـاهد عيـان محتَّواها: « أعاني من مشاكل مالية حالياً وتعـاني والـدة طفلنـا مـن تعـب.أود نقلهـا إلى الخـارج لكـنّ وضـعي المـادي ضـيق.هـل تـستطيع تـأمين دعـوة لي للإقامة في فندق بالدوحة، ودفع بطاقة الطائرة على الخطوط الجوية القطريـة ؟ هذا سيساعدني لو تكرمتم».

«مرحباً نيكولا، أجابه السفير القطري باللغة الفرنسية مـضيفاً آمـل أن تكـون صـحّة والـدة طفلكـم قـد تحـسنت، وأنـا متأسـف لأنّ قطـر لا تـدفع نفقات للناس لقـضاء عطلهـم حتـى لي أنـا الـسفير»،وأردف بـشكل تهكُّمـي

«أدعوك لزيارة موقع الخطوط الجويَّة القطرية على الإنترنت حيث تُقدّم هذه الفترة تخفيضات على الأسعار».

لم يكن هذا الرفض كافياً لردع النائب بيس BAYS الذي أعاد الكرّة مرتين أخرتين عن طريق رسالتين إلكترونيتين قصيرتين إلى سفير قطر، يطلب في الأولى مالاً لإجراء إصلاحات في منزله، لم يتلق النائب جواباً عن هذه الرسالة، وفي الرسالة الأخيرة لم يتردد BAYS في الطلب من السفير تقديم حذاء مرموق، شرح لنا المقرب من السفير أسباب هذا الطلب الغريب قائلاً: « سبق للسفير القطري الأسبق أن قدّم له حذاءً من ماركة مشهورة وعلى ما يبدو أنّ السيد BAYS وقع في حبّ هذا النوع من الأحذية! واعتقد بأنَّ السفير الحاليّ سيحذو حذو سلفه».

يمكننا بعد كل هذا الآن ببساطة فهم لماذا يتحاشى السفير مشعل آل ثاني لقاء النائب الاشتراكي عن منطقة الشمال. لكنَّ كلَّ هذا لم يمنع النائب BAYS من محاولة انتزاع دعوة له لحضور منتدى الدوحة لعام ٢٠١٦ الذي يعدّ تظاهرة دبلوماسية تدعو الإمارة إليها شخصيات سياسية ودبلوماسية ورؤساء دول من أصقاع الأرض كافة، حتى إنّ السيد BAYS طلب خلال مشاركته موعداً للقاء وزير الدفاع القطري.

ولمعرفته بما يقوم به بيس من سلوك منحرف قام زميله رئيس جمعية الصداقة الفرنسيّة – القطريّة النائب عن منطقة لواروشير Loirercher موريس لوروا Maurice Leroy بنقل ذلك إلى رئيس الجمعية الوطنية كلود بارتولون Claude Bartolone وهكذا تمَّ أخيراً تحييد بيس.

لكن يجب القول: إنّ السيد BAYS تعوّد على النعم التي كان يُغدِقها السفير القطري الأسبق في فرنسا، حيث كان السفير محمد القواري يقدّم بمناسبة عيد الميلاد ساعات رولكس أو قسائم شرائية من أكبر المحلات

الباريسية لشراء أفخم أنواع البدلات مثلاً، وذلك لأعضاء جمعية الصداقة الفرنسية القطرية كافّة في الجمعية الوطنية الفرنسية.

كانت تصل قيمة الهدية الواحدة إلى خمسة آلاف أو ستة آلاف يورو. عدد من المحظوظين السعداء بهذه الهدايا لم يخفوا فرحهم حتى إنهم ذهبوا إلى إبراز « الشيكات الهدايا صنع في قطر» أمام مقربيهم. حتى الزوجات لم يكن منسيّات، كُنّ يتلقين حقائب من ماركة لوي فويتون Louis vuiton قيمة الواحدة تصلُ إلى خمسة آلاف يورو وإن لم تكن حقيبة، ستكون إحدى سلع الماركات المشهورة.

يتم تناول هذا الموضوع في أوساط السفارة القطرية بباريس بتهكّم «هذا يروق على ما يبدو للزوجات، لأنه حتى الآن لم تعد أيُّ واحدة منهن هديتها إلى السفارة».

تبدّلت الأزمان الآن، ففي عيد الميلاد لم يعد السفير مشعل آل ثاني يقدم إلّا هدايا متواضعة، وهي عبارة عن علبة تحتوي على عدة أغراض وفي معظم الأحيان، زجاجة شمبانيا وعلبة كافيار أو الكبد الدسم (caviar / Foiegras). وحتى هذا النوع من الهدايا لا يتم توزيعه على جميع أعضاء جمعية الصداقة الفرنسية – القطرية في مجلس الشيوخ، وكما سنرى لاحقاً، اشتكى بعض هؤلاء الأعضاء علناً ودون أي خجل من هذا الوضع.

اقتصار دور السفير على أن يكون موزّعاً لقطع عملة من فئة الخمسمئة يورو

لم يكن محمد القواري يتقن حتى كلمة باللغة الفرنسية عندما تسلّم منصبه سفيراً لقطر في باريس عام ٢٠٠٣، ولكن بعد أحد عشر عاماً، وبمناسبة حفل الوداع بانتهاء مهمته تقاطرت إلى دارته الخاصة على ضفة نهر السين كل باريس لتقديم التهاني ومن بينهم: مانويل فالز، كلود جيسان، ميشيل – آليو ماري، جاك لانغ، نادين مورانو، جان دافيد لوفيت،هنريكو ماسياس، ممثلين عن الجالية الإسلامية التي طالما دلّلها كثيراً، بالإضافة إلى مسؤولين يهود في المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهوديّة في فرنسا الذين تفاخروا بدعوتهم إلى هذا الاحتفال.

أصبح السيد القواري، المتحدّر من عشيرة كبيرة وذو القامة الصغيرة والنظرة الساخرة، يتقن اللغة الفرنسية بشكل كامل، وكانت نقطة ضعفه هي نبيذ بوردو المشهور. والحق يقال إنه وخلال عدة سنوات كان السفير العربي الأكثر نشاطاً من بين السفراء الموجودين في باريس. لكن يجب القول أيضاً إنّه كان ينعم بميزانية مفتوحة، أي بمصادر مالية غير محدودة لتمويل نشاطاته حيث إنّ جميع فواتير السفارة كان يُصادق عليها في الدوحة دون أيّ قلق،وقد استغل القواري هذا الواقع أكثر ممّا ينبغي.

في خضم الحرب على ليبيا عام ٢٠١١ وحيث وقفت قطر إلى جانب فرنسا والغرب لإسقاط معمر القذافي يتذكر مسؤول رفيع في هيئة الأركان

الفرنسية اتصالاً هاتفياً جاءه من الملحق العسكري في السفارة القطرية ليخبره أنّ قطر مستعدة لتقديم الدعم إلى وزارة الدفاع الفرنسية التي كانت بحاجة إلى ذخائر : «لا يوجد عندنا أيّ مانع من إحضار حقيبة مليئة بالمال لشراء القنابل التي نرغب أن تقوموا باستخدامها» مضيفاً «إنّه مستعد لأن يأتي فوراً ويدفع نقداً، يالها من وقاحةّ!» .

إنّه الزمن الذي كانت قطر تنتهز فيه أيَّ فرصة لتلميع صورتها في الغرب.

بلغ نشاط السفير محمد القواري أوجه منذ عام ٢٠٠٧ مع التقارب الكبير الذي حصل بين نيكولا ساركوزي والدوحة،وقد سالت الأقلام في الكتابة عن دور قطر في تحرير الممرضات البلغاريات، وعن الدعم الفرنسي لكي تنتزع قطر كأس العالم لعام ٢٠٢٢،وعن الإعفاء الضريبي الذي تمتع به المستثمرون القطريون في فرنسا[١].

إنّه محمد القواري الذي لا مفرّ منه، مهندس تحسين العلاقات مع باريس، وذلك بالتنسيق الوثيق مع الخلية الدبلوماسية في قصر الإليزيه (جان دافيد لوفيت، و بوريس بوايون).

ذهبت به الأمور إلى أنّه شعر بأنّ لديه أجنحة يمكنه الطيران بها بعيداً وبعيداً جداً.

سيتحمّل مسؤولية كبيرة عن الإخفاق في إحداث صندوق لتمويل الضواحي[٢] والذي كان وراء كثير من الحبر الذي سال عن هذا الموضوع في أوج الحملة الرئاسية عام ٢٠١٢ قبل السقوط المدوي لنيكولا ساركوزي،

---

(١) قطر والخزنة ، كريستيان شيسنو، جورج مالبرينو، دار الطباعة ميشيل لافون - ٢٠١٣.

(٢) كان هذا الصندوق ، الذي موّلته الدوحة بمبلغ قدره خمسون مليون يورو، مخصّص لتمويل مشاريع لتنمية الضواحي الفرنسية.

وانتهاء شهر العسل الفرنسي - القطري الذي استبدله فرنسوا هولاند، المنتخب رئيساً خلفاً لساركوزي، بشهر عسل مع السعودية «كشريك استراتيجي» في الخليج.

بلغت الهجمة القطريّة في فرنسا أوج نشاطها في الصحافة ودور النشر.

وفي الدوحة أخذ الغضب مأخذه عند الأمير الجديد تميم الذي خلف والده في حزيران ٢٠١٣ معتبراً أنّ السفير قد تجاوز الخط الأصفر في ممارساته. وحتى السيد القواري نفسه بدأ يشكو من الالتماس الذي يتعرض له من قبل عدد من محاوريه السياسيين.

يتذكر أحد أصدقائه،من المصرفيين ورجال الأعمال أنَّ القواري قال له ذات يوم: «ما بهم هؤلاء الساسة الفرنسيين لا ينظرون إلى مكتبي سوى كونه صرّاف لقطع الخمسمئة يورو!».

هناك شيء مؤكّد وهو: إنَّ استخدام هذه الأساليب قد أدّت إلى اشمئزاز المسؤولين في قطر، وعلى رأسهم الأمير الجديد تميم الذي أعطى تعليمات واضحة لابن عمه السفير الجديد في باريس مشعل آل ثاني للقيام بها فور وصوله إلى باريس: «قم بتنظيف السفارة، وضع حدّاً لمظاهر البهرجة الخادعة، واقفل صرّاف قطع النقود من فئة الخمسمئة يورو».

بعد انتهاء إقامته الطويلة في فرنسا، تمت ترقية السيد قواري بتسميته سفيراً لقطر في الولايات المتحدة الأميركية لكنّ هذا العاشق لفرنسا تألّم لابتعاده عن باريس[1]، إضافة إلى أنّه فقد مساندة معلمه المتمثلة بشخص رئيس الوزراء القطري حمد بن جاسم، ابن عم الأمير الأب الذي غادر معه السلطة.

---

(١) تمت تسميته سفيراً لقطر في إسبانيا في خريف ٢٠١٦.

جسّد حمد بن جاسم شكلاً معاصراً لتاليراند (Talleyrand). كان عديم الذمة اتجاه المال وزعيماً «كل شيء في نظره يُبَاع ويُشتَرى، حتى الرجال، وتبقى المسألة مسألة ثمن فقط». هذا ما قاله لنا صديقه القديم كريستوف دو مارجوري مدير شركة توتال قبل وفاته.

بعيداً عن باريس، وبدون حمد بن جاسم، فقد السيد القواري نقاط استدلاله وأصابه الضجر في واشنطن، حيث لا تُقبَل الهدايا من قبل الساسة الأميركيين بالصورة التي كانت عليها في باريس.

لكن من حسن الطالع أنّ السيد القواري احتفظ بشقته في حي راقٍ بباريس كان يعود إليها بين الفينة والأخرى، وينظّم أمسيات مجتمعيّة راقية كما كان يفعل إبان عهده الجميل يوم كان سفيراً فيها.

من جهة أخرى، اشتكى خلفه من أنّ القواري يسعى إلى إفشاله في مهمته، فاستعرت الحرب بين الرجلين. يقسم أصحاب الألسن الرديئة أنّ الدبلوماسي السابق بقي على تواصل مع أناسه في باريس في أثناء زياراته المتكرّرة، وأنه بقي يتصرّف كسفير ظِلٍّ، ويقوم دون حياء بتشويه صورة خلفه لدى أصدقائه القدماء المؤثرين .

يا لها من تبدّلات طرأت على هذا البدوي الذي تحوَّل إلى ذواقة (أبيقورياً) وعاشق للحياة الباريسية التي يحسّها كما السمكة في المياه.

انتشى القواري بين المال والسلطة والتأثير والملذات المختلفة، وراح يتحرك في كل الاتجاهات.

كان مواكباً لوجبات الإفطار خلال شهر رمضان مع الجالية الإسلامية، وكان يوزّع عشرة آلاف يورو لجمعية الصحافة الدبلوماسية، وكان يحضر احتفالات الجائزة الكبرى لقوس النصر التي تقوم قطر برعايتها محاطاً بكوكبة من نجوم الشاشة الصغيرة مثل دانييلا لومبروزو وزوجها، وإيريك جيبالي مدير التعاون الدولي في سويس أنفيرومنت(Suez Environnement).

« لقد أرسى عادات سيئة في التعامل مع رجال السياسة بإغداقه المال عليهم » حتى إنّ أحد العاملين في السفارة أرغى وأزبد استياءً حينما قال: «في أيّ حالة حقيرة وضع قطر فيها، وما زالت السفارة تعاني من نتائج شططه حتى الآن ».

وتطول قائمة هداياه، فقد قام ذات يوم بتقديم حقيبة لويس فويتون إلى سيدة متعاونة معه، وفي مرة أخرى اقترح تمويل أعمال ترميمية في مطبخ لأحد كبار الموظفين .

ما زالت السفارة، وحتى هذه الأيام، تتلقى التماسات البرلمانيين الذين يتكدسون في أقبية السفارة.

كشف أحد المقربين من السفير مشعل آل ثاني عن تملّق النواب والشيوخ الفرنسيين في الوقت الذي تُتَّهم فيه الإمارة وبشدة بتمويلها للإرهاب، ويبتسم ساخراً: « يصل أسبوعياً إلى السفارة رسائل من نواب وشيوخ يلتمسون تمويلاً مالياً لجوامع أو لجمعيات وأحياناً لمدارس خاصة في دوائرهم ».

وهكذا قطع مشعل آل ثاني العلاقات المفضوحة مع معظم الساسة الفرنسيين مفضلاً التركيز على مديري الصحافة والصناعيين الذين جمعهم في نادي الأعمال (كادران).

والدليل على برودة حبّه للطبقة السياسية الفرنسية، لم يقم مشعل وللمرة الثانية على التوالي بمرافقة النواب والشيوخ إلى منتدى الدوحة لعام ٢٠١٦ .

تكشف هذه الخلافات العابرة بين القطريين عن الأزمة الحادة التي تعيشها قطر تجاه الحليف الفرنسي. لقد أثارت الهجمة القطرية خلال السنوات الأخيرة عدم تفهّم من قبل مسؤولي هذا البلد ، وحتى الأمير الأب لم يفهم هذه الحملة.

وقد أعرب صراحةً إلى محادثيه الفرنسيين أمثال ميشيل أليو ماري التي دُعيَت إلى منتدى قطر في أيار عام ٢٠١٥: « قال لي حمد بوضوح : نستثمر في فرنسا ونساعد الاقتصاد الفرنسي، ومن ثم تُشن علينا كل هذه الحملات «قطر تسترد فرنسا بالشراء»، والآن «قطر تموّل الجهاديين».

ضاق القطريون ذرعاً إزاء هذه الحملات وخاصة الصحافة[١].

زد على ذلك أنه على الرغم من كوننا مُحبّين لفرنسا وحتى متقنين للّغة الفرنسية وهذه هي حالة تميم، لم يتسنَّ للقادة القطريين أن يحظوا بأدنى حد من المقابلات مع الصحافة الفرنسية علماً أنّ الأمير حمد تحدّث مطولاً في الفاينينشال تايمز عام ٢٠١٠، كما أنّ ابنه أجرى مقابلة مع سي أن أن (CNN)، وكذلك حمد بن جاسم فقد أجرى عام ٢٠١٦ مقابلة مع الفاينينشال تايمز. أليس ذلك بمؤشرٍ!.

---

(١) مقابلة مع أحد المؤلفين – الدوحة – ١٣ أيار ٢٠١٥ .

ظهور رشيدة داتي من جديد

تـشبه العلاقـة بـين رشـيدة داتي وقطـر إلى حـدّ كبـير العلاقـة الزوجيـة الحادّة تارة، والباردة تارة أخرى. شـهدت العلاقـة بـين داتي والدوحـة تألقـاً إبـان عهـد نيكـولا سـاركوزي؛ لكـنّ هـذه العلاقـة تـدهورت في الـسنوات الأخيرة تدهوراً كبيراً.

تردّدت وزيـرة العـدل الـسابقة عـلى الدوحـةما بـين ٢٠٠٧ و ٢٠١٢، وذلك في إطار المشروع الذي وُلِد ميتاً، وهو مشروع مركـز إقليمـي للعدالـة الذي تحدثنا عنه في كتابنا السابق حول قطر وعمّا اعتراه من شطط وتبذير[1].

كانت تصطحب معهـا والـدها وشـقيقتها، وقـد أغـوت النائـب العـام القطري علي بن فتيس لدرجة أنّ بعضهم ذهب إلى حد القول إنّـه أب ابنتهـا الوحيدة زهرة، وهذا ليس صحيحاً.

باختصار أثارت زيارات رشيدة داتي إلى قطر كثيراً مـن الثرثـرة. لكنّـه كان عصر العلاقات الكثيفة بين باريس والدوحة، فلا الأمير ولا ساركوزي كانا يرفضان أي شيء تطلبه رشيدة.

تغـيرّت الأحـوال بعـد خـسارة صـديقها سـاركوزي في الانتخابـات الرئاسـية،ما أدى إلى ابتعادهـا عـن الإمارة،لكنهـا لم تفقـد الاهـتمام بهـا كليـاً وخاصة بعد حصولها على مقعد في البرلمان الأوروبي وتبوئها منصب عمـدة الدائرة السابعة في باريس.

---

(١) أرادت رشيدة داتي إحداث مدرسة الشرق الأوسط للقضاء في الدوحة.

إنّها الدائرة الفخمة التي يقيم فيها كثير من السفراء والسفارات المعتمدة في باريس.

تمتلك رشيدة داتي حسّ الانتهازية، شأنها في ذلك شأن الأمير الأب، فهي لا تتردد في استخدام دفترها للعناوين. جاءتها فكرة إطلاق نادٍ للسفراء يجتمع دورياً في الدائرة السابعة. يا لها من فكرة رائعة !

يستلزم بالطبع هكذا مشروع مالاً لكي تدفع داتي تكاليف راقصتها. لا بأس في ذلك فقد راحت رشيدة تقرع باب السفير القطري،وهي في موقع يسمح لها بمعرفة ملاءة الخزنات القطرية فرفعت سقف طلباتها: «ليس أقل من أربعمائة ألف يورو لإطلاق مشروعها «هذا ما طلبته؛ إنّه مبلغ مُبالَغ فيه كما أعلن بدهشة أحد أعضاء السفارة!».

تقدّمت رشيدة داتي بطلبها خلال لقاء على مأدبة عشاء مع مشعل آل ثاني حصل بالضبط يوم الأحد الموافق لـ ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١٥. لكنّ ردّ الدبلوماسي القطري لم يكن إيجابياً فصُدِمت رشيدة بالرفض الذي تمّ تأكيده بكتابٍ رسمي موقّع من ممثل قطر في فرنسا.

وفي صباح اليوم التالي، كانت رشيدة داتي ضيفة البرنامج الإذاعي الحواري (talk – show) مع الصحفي جان – جاك بوردن على هواء إذاعة مونت كارلو،الذي تصادف بعد عشرة أيام على تفجيرات باتاكلانو ملعب فرنسا، فغيّرت وجهتها وهاجمت قطر «لدى السعودية وحتى قطر إرادة في نشر عقيدتها، ولاحتواء الإسلام الشيعي خاصة» أكّدت داتي خلال لقائها هذا مضيفةً وهي تتأسّف أنّ هناك عدداً من بلدان الخليج تقوم بتمويل جوامع، وجمعيات، وأئمة، ومؤسسات، لا تخضع للمراقبة.

لم يستطع السفير أن يستوعب عندما سمع ما قالته : «تتناول طعام العشاء معي وتطلب مني مساعدتها، وفي اليوم الثاني تمرّغنا في الوحل» قال

مستغرباً السفير القطري الذي أوعز بوضع رشيدة داتي على القائمة السوداء في قطر.

لكنّ رشيدة داتي المعروفة بجرأتها ، أصرّت في ربيع ٢٠١٦ على أن تكون في قائمة المدعوين إلى منتدى الدوحة إلى جانب دومينيك دو فيلبان وعدد آخر من كبار أصدقاء قطر.

تقدّمت رشيدة داتي بطلبها إلى اللجنة التنظيمية عن طريق السفارة القطرية في باريس التي اقترحت على الدوحة رفض مشاركتها. تمّ إبلاغ السيدة داتي بأنّه غير مرّحبٍ بها في قطر.

وبدلاً من أن تستسلم،التمست وزيرة العدل السابقة تدخّل نيكولا ساركوزي الذي عادت من جديد لتكون قريبة منه. لم يخذلها معلمها القديم حيث سارع باتصال هاتفي مع صديقه الأمير الأب حمد الذي لبّى له طلبه، وتمّت دعوة داتي إلى منتدى الدوحة « بلغت وقاحتها أنّها أحضرت معها ثلاثة مساعدين لها على نفقة المنتدى » أرغى وأزبد أحد دبلوماسيي السفارة القطرية في باريس. ولّما تبلغ مغامرات داتي نهايتها بعد في قطر.

أعلنت السيدة داتي، قبل عودتها وخلال دعوات عشاء في المدينة أنّها كانت مدعوة لتقديم مداخلة إلى جانب الأمين العام للأمم المتحدة (بان كي مون) والمفاوض الفلسطيني صائب عريقات ... إلخ. باختصار يمكن القول لدى سماع داتي إنّها كانت تحضر مؤتمراً مع كبار رجال الدبلوماسية الدولية؛ لكنها حين وصلت إلى ردهات فندق الشيراتون أعلنت للصحافة الفرنسية أنها قدمت إلى قطر لتذكّر بلدان الخليج أنّ عليهم التنبّه والتوقف عن تمويل الإرهاب، وذلك لكي لا يذهب التفكير إلى أن وجود السيدة داتي هنا في قطر من أجل السياحة. لقد حضرت السيدة داتي لتبدّد لدى عدد كبير من الفرنسيين قلقهم إزاء هذه المعضلة الكبيرة معضلة تمويل الجهاد الذي يضرب بلدهم.

صُعِق الصحفي الذي يجري اللقاء،وفي الحال أعلم اللجنة المنظمة لمنتدى الدوحة مستغرباً « أنا لا أفهم، قال الصحفي،قيام داتي بهذا الهجوم الشرس جداً على قطر»[1].

خيَّم عدم الفهم في أوساط الوفد الفرنسي ولم يكن بالإمكان تصوُّر السيدة رشيدة داتي تقوم باللعب على الحبلين في عقر دار قطر .

وصلت الأخبار إلى السفير القطريّ عن التصريحات العاقّة لرشيدة داتي فقام بنقلها إلى وزير خارجيته بالدوحة. أخيراً، وفي اللقاء الذي خصَّها به الأمير الأب - بناءً أيضاً على التماس من نيكولا ساركوزي – سألها الشيخ حمد فيما إذا كانت تلك التصريحات المنسوبة إليها صحيحة فأجابت مستغربة: «معاذ الله أن أقول سوءاً عن قطر أبداً هذا غير صحيح ».

قام مكتب الأمير الأب بإبلاغ تكذيب داتي إلى السفير القطري في باريس الذي لم يكد يصحو من وقاحة ممثلة الدائرة السابعة، وقد علّق أحد المقربين من السفير:

« إنّه لأمر مقرف؛ يأتي هؤلاء الناس يعرضون عليك خدماتهم فتقول لهم لا، فيقومون في اليوم التالي بالبصق على قطر ».

جاء الجواب على لسان سياسي صديق للسيدة داتي في بلدية الدائرة السابعة الباريسية : «إنّها غاضبة؛ فهي لم تحصل على المال، لذلك لجأت للثأر من القطريين»[2].

لا بدّ من إشارة أخيرة هي أنّ السيد دومينيك دو فيليبان قد ألغى سفره إلى قطر لحضور منتدى الدوحة بعد أن علم أنّ داتي مدعوة إليه مبرّراً إلغاء مشاركته بأنهما مدعوان بالصفة نفسها. وللعلم أنّ السيد دو فيليبان هو

---

(١) « كل الطرق تؤدي إلى قطر» – مجلة لو موند– بنجامين بارت - ٤ حزيران ٢٠١٦.

(٢) مقابلة مع أحد المؤلفين – باريس ١٨ حزيران ٢٠١٦.

صديق قديم للعائلة الحاكمة ولديه كثير من الأعمال في قطر حيث يوجد له مكتب في متحف قطر الحكومي (la Qatar MuseumAuthority) الذي تديره طالبته القديمة مياسة وهي شقيقة الأمير.

كانت ذريعة رئيس الوزراء الفرنسي السابق بعدم مشاركته في منتدى قطر:

«لا أستطيع الانحدار إلى مستوى رشيدة داتي»، هكذا قال دو فيليبان.

أيتــام قطــر

يعود الفضل إلى نيكولا ساركوزي الذي جعل رشيدة داتي تستمر بطريقة ما في البقاء في الجمعية التي فرضها سفير قطر الجديد على أصدقاء الإمارة الفرنسيين.

بالتأكيد لم ينطبق هذا الوضع الجديد على جميع السياسيين الذين تعودوا على غزل الدوحة، حيث أصبح عددٌ منهم الآن أيتاماً على موائد وهبات قطر.

لم تعد تنعم سيغولين رويال وزيرة البيئة الاشتراكية، على سبيل المثال، إلّا بالقليل القليل من كرم السفارة القطرية .

تمّت إقامة العلاقة مع رويال حينما كانت مرشّحة لرئاسة الجمهورية عام ٢٠٠٧، وقد دُعيت في العام التالي إلى منتدى الدوحة .

لوحظ حضور وسيطها إيريك غيبالي (Eric Ghebali) الذي يدور في فلكها. هناك ضحية أخرى للتوزيعة الجديدة هو ممثل الخضر الوزير جان – فانسان بلاسيه (Jean –Vincent Place) الذي أخذ يشكو من أنَّ السفير الجديد لم يعد يقدّم له دعوات لقضاء عطل نهاية الأسبوع .« لم يكن بلاسيه يتلقى هدايا إلّا من سلفه أي السفير السابق» أفصح بذلك أحد المقربين من السفارة دون أن يدلي بمزيد من المعلومات.

«كنا سابقاً نأتي للتعارف» شرح جان - فنسنت بلاسيه الذي دعي عام ٢٠١٣ للمشاركة في منتدى الدوحة،ضمن عداد الوفد الفرنسي الذي كان يضم

تسعاً وسبعين عضواً وهو الوفد الأكبر في المنتدى السنويّ،ومن بين هؤلاء الأعضاء نحو عشرين من السياسيين بينهم فرانسوا فيون Francois Fillon وميشيل آليو ماري، أتريكوماسياس (Enrico macias) الذي لا مفرّ منه وصاحب إذاعة سكاي روك (Sky rock) بيير بيلانجي (Pierre Bellanger).

أمّا بالنسبة إلى أيفجيغو (Yves Jego) عضو مجلس الشيوخ الوسطي،فلا أحد يعرف ما إذا كان « يقضم» إبان عهد السفير الأسبق، لكن ما هو معروف أنه طلب ذات مرة من السفير الجديد مبلغ خمسين ألف يورو لمشروع في دائرته قوبل بالرفض من قبل السفير .

أخفقت ممثلة منطقة الأورن (orne) في مجلس الشيوخ ناتالي غوليه (Nathalie Goulet) أيضاً بانتزاع أيّ موافقة على طلب المال من ممثل قطر في باريس مع أنها كرّرت الطلب عدة مرات. وفي نهاية عام ٢٠١٥،اتصلت بمكتب السفير مشتكية من أنها لم تتلقَ هدية عيد الميلاد، وقالت بلهجة احتجاج« هل يعقل أنني حتى الآن لم أستلم هدية أعياد نهاية العام في حين غيري من أعضاء مجلس الشيوخ قد استلموها !».

وعندما أبلغ أحد المعاونين السفير بمضمون اتصال السيدة غوليه تذمّر السفير مشعل قائلاً:« لتذهب إلى الجحيم!».

عندما هُوجمت قطر من قبل السياسيين وفي الصحافة في أعقاب التفجيرات التي حصلت في باريس، قامت السيدة غوليه بلا تردّد بعرض اقتراح على السفارة القطرية ينصّ على عقد مؤتمر حواري مقابل دفع تعويضات بالتأكيد.

جاء ردّ السفارة بالرفض؛ ومنذ ذلك الوقت لم تعد السيدة غوليه تخفي كرهها لقطر«لا أحب قطر كثيراً»[1] اعترفت السيدة غوليه لمحدثيها.

---

(١) مقابلة مع المؤلفين – باريس ١٣ تموز ٢٠١٦.

إنّ السيدة غوليه معروفة في كواليس مجلس الشيوخ بجرأتها غير المحدودة، فهي كانت لزمن طويل مقرّبة من إيران حتى إنها كتبت كتاباً – محتمل جداً أن يكون بطلب من طهران – تفضح فيه دجل وتضليل ممثلي المعارضة الإيرانية مجاهدي خلق الملتجئين إلى باريس، لكنها اختلفت فيما بعد مع الإيرانيين قبل أن تندفع باتجاه العدو الأزرق للإيرانيين ألا وهو العربية السعودية لتدافع عنها. يا لها من أطوار غريبة!

وفي الثالث والعشرين من أيار عام ٢٠١٦ نظمت السيدة غوليه مؤتمراً حوارياً في إطار فعاليات الجمعية البرلمانية للصداقة الفرنسية – الخليجية في مجلس الشيوخ تحت عنوان «وجوه السعودية الجديدة».

ولم يكن لهذا المؤتمر سوى هدف واحد، رفع شأن المملكة التي تُتَّهم باستمرار بتمويل الإرهاب. أرادت السيدة غوليه إظهار الملك الجديد سلمان وابنه محمد بن سلمان بأنهما يقودان بلدهما في الاتجاه الصحيح.

وما يراد قوله ضمناً إنّ انتقادات الصحافة أو السياسيين الفرنسيين ليست سوى لُمامة من الأفكار القديمة التي تعود إلى الوقت الذي كانت فيه السعودية تموّل الجهاد في أفغانستان.

وفي أثناء هذا المؤتمر يبدأ قنصل فرنسا السابق في جدّة، لويس بلان (Louis Blin) بإعلان حرصه على التأكيد « بأنّ السعودية ليست هي داعش التي نجحت» في إشارة إلى عنوان مقال للكاتب الجزائري كامل داوود نشر في نيويورك تايمز.

إنّ المستمع لمجموع المتدخلين يستنتج أنّ السعودية بلد مثل أي بلد آخر يقدم إلى محاكمة رديئة،وممّا عزّز ذلك التقرير الذي أُرسل إلى الصحافة في اليوم التالي لانعقاد المؤتمر من خلال وكالة بيبليسي[1] (Publicis) والذي

(١) جنّدت العربية السعودية عدداً من شركات الاتصالات بهدف تحسين صورتها.

عنونته: « السعودية وفرنسا : تحطيم الأوهام في سبيل تعزيز العلاقات الدبلوماسية ».

يتضمن التقرير احتجاجاً على بعض الصور المقولبة «مؤكّداً أنّ «حقيقة السعودية ليست معروفة كفاية، ومقنّعة بصور سلبية آن الأوان اليوم لأن يُعاد النظر فيها دون سذاجة» وخلص البيان إلى: «بما أنّ السعودية تتقدم وتُغيِّر نهجها فمن المهم أن يفهم المواطنون الفرنسيون قيمة ذلك، والأهم من ذلك هو تطور العلاقات الفرنسية – السعودية».

« لقد قبضت غوليه – مقابل عملية العلاقات العامة هذه - مبلغاً ضخماً من السفارة السعودية في باريس» هذا ما أكّده عضو مجموعة ضغط، إلّا أنّ السيدة غوليه نفت ذلك أمام المؤلفين.

قام وفد يمثل جمعية الصداقة البرلمانية (فرنسا – بلدان الخليج) بزيارة إلى السعودية ما بين ٢٤-٢٨ شباط ٢٠١٦، برئاسة عضو مجلس الشيوخ الوسطية من منطقة الأورن(orne) السيدة غوليه، التي لم يمنعها نشاطها الانتهازي من أن تُعيّن مقررة للجنة التحقيق التي شكّلها المجلس الشيوخ حول الإسلام في فرنسا ومصادر تمويله حيث سنتطرق إلى هذا الموضوع في الفصل القادم. ألم يكن هناك صراع مصالح ؟

ماذا يمكننا القول بخصوص إيريك بوسون (Eric Besson)، وزير الصناعة والطاقة الأسبق في عهد ساركوزي؛ ففي ذلك الحين كان رجل أعمال سعودي يشكو لمحدثيه الفرنسيين عن إصراره على التدخل بشؤونهم التجارية.

ومن أولئك الذين ينظرون إلى سفارات دول الخليج كأدراج صناديق يبرز النائب الاشتراكي عن منطقة أوت دوسان (Hauts- de – seine) السيد أليكسي باشليه (Alexis Bacheler) الذي سعى أيضاً إلى تمويل حملته الانتخابية البرلمانية من قبل سفارة قطر، لكن عبثاً.

ويرد أيضاً اسم جاك لانك (Jacques lang) الذي يرأس معهد العالم العربي في باريس (IMA) ليس فقط من قبل السفارة القطرية إنما أيضاً من قبل سفارتي السعودية والإمارات العربية المتحدة كواحد لا يردعه أي وازع وجداني في طلباته «جاء يطلب ثلاث بطاقات طائرة بدرجة رجال الأعمال له ولزوجته ولصديقه عندما دُعي إلى أبو ظبي»، انفجر غاضباً أحد موظفي السفارة الإماراتية في باريس وهو يبرطم « وإذا ما تم رفض طلبه نخشى أن يقوم في اليوم التالي بانتقاد علني للإمارات ».

طرقت السيدة رشيدة داتي، منذ عدة سنوات أبواب السفارة الإماراتية « أرادت أن تدفع السفارة الإماراتية بطاقات طائرة لهاولعائلتها التي سيلتم شملها في دبي ».

« لو وقف الأمر فقط على بطاقات طائرة درجة رجال الأعمال لا بأس في ذلك، لكن السيد فيليبان طلب أن يكون حجز بطاقته في الدرجة الأولى وإلّا سيحرد ويقاطع الدعوات الموجهة إليه من الدوحة. وذات مرة ألغى مشاركته في مؤتمر،لأن القطريين حجزوا له بطاقة طائرة بدرجة رجال الأعمال وليس في الدرجة الأولى، فأُصيب السفير بحالة ذهول من هذا الموقف. هناك الكثير من الأدلة من هذا النوع عن رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق الذي تحول إلى محامي أعمال، فهو لا يُدلي بأي تصريح في مصلحة قطر دون أن يكون هناك مقابل ، شأنه في ذلك شأن جميع من وردت أسماؤهم فقد قام بتاريخ ٤ تشرين الثاني ٢٠١٥بالإدلاء بتصريح على هواء إذاعة أوروبا الأولى مفاده: « لا تمتلك فرنسا أي دليل على تورط قطر في تمويل الإرهاب. وحذا حذوه بعد عدّة أيام من التفجيرات التي حصلت في باريس بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ٢٠١٥ السيد جاك لانك الذي أدلى بتصريح لإذاعة فرانس إنفو أنكر فيه « أن تقوم قطر اليوم بأي نوع من أنواع التمويل للإرهاب ».

لم يظهر سياسيونا قدراً من حب المعرفة ليطلعوا على ما يرد في عدة تقارير أمريكية علنية يدينون فيها دور الدوحة في تمويل الإرهاب وهذا ما سيتضح في الفصول القادمة.

لا بدّ من أن نشير أيضاً إلى أنه من بين الضحايا الذين سقطوا في التوزيعة الجديدة للسفارة القطرية في باريس يظهر اسم الباحث نبيل أنصاري المقرّب من الإخوان المسلمين .

لم يعد يُدرج اسمه في أوراق السفارة الصغيرة، ولم يتلق دعوة هذا العام لحضور منتدى الدوحة، ولم يعد مرصده يتلقى أي دعم من الإمارة. أرادت سفارة قطر بباريس أن تأخذ مسافتها من « كل ما هو قريب من حركة الإخوان المسلمين،لأنّ ذلك لم يكن جيداً لصورة البلاد«كما قيل لنا في السفارة القطرية.

كان السفير الأسبق يغذّي حلماً خفياً لقطر وهو رغبتها في السيطرة على اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا وهذا ما سيوضح لاحقاً.

قام أحد رجال الأعمال المقربين من السيد محمد القواري بتحليل هذا الحلم الخفي قائلاً :

« باعتبار أنّ فرنسا تحتضن أكبر جالية مغاربية في أوروبا،فإنّ السيطرة على اتحاد الجمعيات الإسلامية في فرنسا يعني السيطرة على كل المسلمين في أوروبا» .

أخذ مشعل آل ثاني مسافته مع الجمعيات الإسلامية في فرنسا حتى إنه لم يعد ينظم وجبات إفطار خلال شهر رمضان لا في باريس ولا حتى في الريف على غرار ما كان يفعله سلفه، وقد أجاب مَنْ كان يدفعه إلى ترسيخ التقاليد السابقة «: لا يعنيني أن أتدخل لا في شؤون الجالية التونسية ولا الجزائرية ولا التركية ».

بدا سفير قطر مشمئزاً بعد انقضاء ثلاث سنوات على إقامته في باريس، من كل هذه الممارسات. ونقل عنه أحد أصدقائه قوله: «قال لي مشعل الذي شغل منصب سفير في بلجيكا والولايات المتحدة[1]، إنه لم يسبق له أن شاهد ما يراه في فرنسا. لقد عاشرت رجال السياسة في كل مكان. لكن أيّاً منهم لم يتصرّف كما يفعل بعض الفرنسيين، ولم يطلب أحد مني المال بشكل فظ كما لو كان هذا الأمر طبيعياً، وكما لو أنّ له ديناً يتوجب علينا تسديده، نحن لسنا مصرفاً، وكان مشعل يردِّد هذا دائماً موضحاً: «إنّ الدوحة تطالبه بمحاربة الفساد. إذن أنا هنا ليس من أجل تغنيج السياسيين الفرنسيين» .

لقد عبّر هؤلاء السياسيون عن رعونة فظيعة في سلوكاتهم: «نعرف بشكلٍ ممتاز من يحب قطر ومن يحب دراهم قطر»، هذا ما باح به السفير محمد القواري عام ٢٠١٣ .

ويتبادل السفراء العرب فيما بينهم كل هذه القصص عن السفاهة أو الصفاقة التي يقوم بها هؤلاء السياسيون حتى إن أحد هؤلاء السفراء العرب تساءل : « أيّ صورة يقدمها هؤلاء السياسيون عن بلدهم ؟ ».

---

(١) تم تعيين مشعل آل ثاني سفيراً لبلاده في الولايات المتحدة الأميركية في شهر أيلول ٢٠١٦ .

وترحل الذاكرة إلى حملة
الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٧٤

عمل كزافي هوزيل (Xavier Houzel)، ذو السبعة والسبعين ربيعاً والخبير في شؤون الشرق الأوسط، مستشاراً للأمير عبد الله ولي العهد السعودي وذلك ما بين ١٩٧٦ و ١٩٩٠.

كان هوزيل يقيم مدة أسبوع في كل ثلاثة أشهر في السعودية وكان يعمل آنذاك تاجراً للبترول. وخلال هذا الأسبوع كان يقوم بتأهيل الأمراء في مجال الجغرافيا السياسية (geopolitique).

قَبِلَ هذا الرجل الراقي والأنيق أن يُدلِي أمامنا بشهادته حول الرحلة الطويلة التي قضاها بصحبة السعودية وحول أنماط السلوك السائدة منذ عدة عقود بين المملكة والقيادات السياسية الفرنسية.

« كنت أتقاضى خمسين ألف دولار عن كل إقامة، وكنت أتلقى، قبل وصولي إلى السعودية بثلاثة أسابيع، قائمة من الأسئلة التي يتوجب على حوالي ثلاثين من كبار الموظفين أو الأمراء الشباب دراستها، وكنا قد اتفقنا على شرط هو ألّا يتم التطرّق إلى السياسة الفرنسية. كنت أُلقي عليهم دروساً في العلاقات الدولية. كان السيد عبد العزيز التويجري الذي يعدّ الموجه الخفي للأمير عبد الله، هو الذي يقوم بانتقاء الطلاب الذين سيتابعون الدروس معي ». وقد أوضح السيد هوزي أنّ صديقاً لبنانياً هو

الـذي قدمـه في عـام ١٩٦٩ إلى الأمـير عبـد الله الـذي كـان يـشغل في ذلـك الوقت منصب قائد الحرس الوطني الـسعودي،وكان يـأتي إلى فرنـسا في كـل صـيف ليقـضي ثلاثـة أسـابيع في فنـدق كلاريـدج (claridge) عـلى جـادة الشانزليزيه (Champs Elysees) « كنا نلتقي في إحدى الحانات الليلية مـساءً، ولم يكن عبد الله ليتناول المشروب، وكان هناك سمسار لبناني معروف لـدى الأوسـاط القـضائية يقـدم إلى الأمـراء الـسعوديين فتيـات الهـاتف»، قـال السيد هوزيل.

تطورت العلاقة حتى قام السيد عبد العزيز التـويجري بـدعوة هوزيـل لزيارة المملكة. وحـول معاملـة الأمـير عبـد الله مـع الـسيد هوزيـل قـال هـذا الأخـير:« قـدم لي عبـد الله الهـدايا النفيـسة لا سـيما الـساعات، وعـاملني كصديق» .

انطلقت منذ ذلك الوقت العلاقات التجارية مع فرنسا، حيـث قامـت شركـة لوشـير (Luchaire)؛ في عـام ١٩٦٦ ببيـع عتـاد حـربي إلى الـسعودية بواسـطة عميلهـا الـسوري الـسيد أكـرم العجـي الـذي يعـدّ أحـد كبـار الوسطاء التجاريين بين فرنسا والسعودية ، ومن ثـم تلتهـا شركـة بـان هـارد (Pan hard) بتـسليم مـدرعات إلى الجـيش والحـرس الـوطني الـسعودي حيث أُعجب السعوديون بأداء هذه المدرعات إبـان الحـرب التـي خاضـتها السعودية إلى جانب الحلفاء الغربيين ما بـين ١٩٦٢و١٩٧٠ ضـد المتمـردين اليمنيـين المـدعومين مـن الاتحـاد الـسوفياتي سـابقاً والـرئيس المـصري جمـال عبد الناصر.

أخيراً وفي عام ١٩٧١، وقعت فرنسا عقداً مهماً حول توريد صفقة من مئتي دبابة (AMX 30) إلى الرياض. وهكذا تعمقت العلاقات التجارية بـين البلدين مع بداية ملامح الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٧٤ .

من الجدير بالذكر أنّ السيد هوزيل هو صديق السيد فيكتور شابو (Victor Chapot) مسؤول الشؤون الخاصة (الصندوق الأسود – العلاقات مع المؤسسات الاستخباراتية) عند السيد جيسكار ديستان (Giscard D' Estaing) وزير المالية في حكومة جورج بومبيدو (George Pompido) .

وقد روى هوزيل: « اتصل بي السيد شابو، ذات مرة، قائلاً لي، لقد علمنا أنّ كلاً من السعودية والإمارات والأردن يستعد لتحويل مبلغ عشرة ملايين دولار فيما بين الجولتين الخاصتين بالانتخابات الرئاسية الفرنسية وذلك لصالح صندوق الاتحاد من أجل الدفاع عن الجمهورية (UDR) مخصصة لدعم جاك شابان دولماس (Jacques ChabanDelmas) وعليك إعلام السعودية فوراً لكي يوقفوا هذا التحويل لأنّ هذه المبالغ ستذهب هباءً منثوراً فمن سيربح الانتخابات هو جيسكار ديستان»، هذا ما أكدّه السيد شابو للسيد هوزيل. كان من المفترض أن يتم تحويل مبلغ ثلاثين مليون دولار عن طريق سفير السعودية في جنيف وكل من سفيري الأردن والإمارات العربية المتحدة في فرنسا لتصل إلى أمين صندوق الاتحاد من أجل الدفاع عن الجمهورية ألبيرشالاندون (AlbirChalandon) وذلك كنتيجة لعمولات على عقود عدة.

طار السيد هوزيل إلى الرياض حيث التقى بالأمير عبد الله. « شرحت له على السعودية أن تعلم أنها تقوم بمخاطرة عديمة الجدوى: فهناك منشق عن دي لماس اسمه جاك شيراك[1] (Jacques Chirac) سيقوم بدعم جيسكار. ولقد صدقني الأمير عبد الله، وذهب للقاء الملك فيصل، ومن ثم عاد ليقول لي تم إيقاف كل شيء ».

يتذكر هوزيل جيداً، أنه قبل مغادرته الرياض «ظهر على الملك فيصل انزعاج كبير من فكرة خسارة شابان دي لماس الذي يحلو للملك فيصل تسميته (الديغولي) فأكدت له ألّا يهتم فجيسكار سيكون أيضاً ممتازاً».

---

(١) كافأ جيسكار جاك شيراك بأن أسماه رئيساً لوزرائه.

سيستطيع الحكام السعوديون الواقعيون التأقلم مع اليمين كما تأقلموا مع اليسار في فرنسا ومع الجمهوريين والديمقراطيين في الولايات المتحدة الأميركية.

فور عودته إلى باريس، قدّم السيد فيكتور شابو التهنئة للمبعوث الخاص إلى السعودية السيد هوزيل، الذي ساهم في تنظيم زيارة صديقه الأمير عبد الله، في العام التالي، إلى قصر الإليزيه ولقاء رئيس فرنسا الجديد فاليري جيسكار ديستان:

« لقد غمرت الأمير عبد الله سعادة كبيرة في أن يتم استقباله في قصر الإليزيه، وهو الذي يُنظَر إليه كبدوي لجلاج يكاد أن يكون جاهلاً في الشؤون السياسية الخارجية ».

ولكي يعبر الأمير عبد الله عن شكره للسيد هوزيل قام بدعوته إلى قصره في الدار البيضاء (Casablanca)، وهناك اقترح عليه أن يكون أحد مستشاريه وقدّم له بهذه المناسبة مبلغ مئة ألف دولار رفض الوسيط استلامه، كما أكدّ لنا.

يتذكر السيد هوزيل: «قام الأمير عبد الله بالطلب من حاشيته أن تسأل السيد هوزيل عن أي عقد يريد ولأيّ شركة فرنسية؟ وهكذا استطعت انتزاع عقد لشركة SAE لبناء أربعة أبراج في جدة. اتصل الأمير عبد الله بابنه متعب وعقب هذا الاتصال طُلِب مني إحضار مدير عام شركة SAE إلى السعودية وخلال ثلاثة أسابيع تمّ عقد الصفقة.

أعطاني عبد الله عمولة وقدرها مائتا ألف دولار مُقسَّطة على عدة سنوات، وهذا المبلغ هو أعلى من المبالغ المعتادة.أما فيما يتعلق بساعات الرولكس (Rolex) فكنت أقوم بتوزيعها على الأصدقاء ».

بدأ السعوديون عند نهاية السبعينيات يطرحون أسئلة : «سألني الأمير عبد الله عمّا سيحصل بالانتخابات الرئاسية لعام ١٩٨١، فقلت له أنّ

شيراك سيضرب ضربته وسيبذل قصارى جهده لمنع جيسكار من إعادة انتخابه ثانية»، وقال لي: «ماذا يمكن أن نفعل لمساعدة جيسكار؟» فأجبته: «لا يمكنكم فعل أيّ شيء مهم».

لقد صُدِمت السعودية ببعض الخيارات الدبلوماسية الفرنسية إبان حقبة حكم جيسكار.

«لم يفهم الأمير عبد الله لماذا احتضنت فرنسا آية الله خميني. كما لم يفهم، بحسب تحليل هوزيل، التقارب الذي حصل مع صدام حسين مع أنّ عبد الله يدرك أنّ وراء هذا التقارب جاك شيراك. باختصار تولّد عند السعوديين انطباع بأننا نلعب على الحبلين».

لم يكن انتخاب فرانسوا ميتران الذي أشرك وزراء شيوعيين في حكومته من قلق القادة السعوديين[1].

«عليكم بالعمل مع الرئيس ميتران» قلت للأمير عبد الله الذي أجابني بطريقته البدوية «لكنك تخون صديقك،جيسكار».

سيقوم الأمير عبد الله بتلبية دعوة رسمية لزيارة قصر الإليزيه وُجِّهت له عام ١٩٨٤ عن طريق السيد فرانسوا دو غرسوفر (Francois de Grossouver) الذي خلف فيكتور شابو في منصب المسؤول عن الشؤون الخاصة في الإليزيه.

«أدرك الأمير عبد الله أنّه من المفيد العمل مع زعيم مثل فرانسوا ميتران مع أنه لا يثمّن كثيراً النشاط السياسي للسيدة عقيلة ميتران».

إذا كان كزافيه هوزيل سمساراً رفيع المستوى، فإنّه على العكس من ذلك إداري فاشل للثروة، ففي أوج تألقه امتلك قصراً في منطقة

(١) سيقوم فرانسوا ميتران بأول زيارة رسمية للخارج إلى السعودية في تشرين الأول من عام ١٩٨١ هدفها طمأنة القادة السعوديين في المملكة.

النورماندي، وزاره فيه الأمير عبد الله، لكن فيما بعد أفلس، ويعيش اليوم في شقة متواضعة في إحدى الضواحي الباريسية إلّا أنّ هذا لا يقلّل من شأن هذا الجوّاب للآفاق الذي لا يتعب، وما يزال يزوّد أصدقاءه برؤى تحليلية للأوضاع في الشرق الأوسط.

حتى بداية العام ألفين استمرت علاقات هوزيل مع عبد الله الذي أصبح الملك الفعلي للسعودية ابتداءً من عام ١٩٩٥ حينما أُعلن عدم أهلية الملك فهد للحكم بسبب مرضه.

«كان عبد الله بدوياً حقيقياً يعشق الصحراء، ويحب الخيل والفنتازيا، يروي هوزيل مضيفاً أنّ والده الملك عبد العزيز اختاره ليكون قائداً للحرس الوطني الذي تجتمع تحت رايته قبائل المملكة، وأنّ زوجتين من زوجات عبد الله تنحدران من أهم القبائل؛ إذ تنتمي الأولى إلى قبيلة شمر والثانية إلى قبيلة شعلان».

ولكن، أضاف هوزيل، لم يكن عبد الله ملكاً إلّا عندما ذهب يوقع وثيقة ميثاق كينسي[1] (Quincy) عام ٢٠٠٥ في هيوستن (Houston) بالولايات المتحدة الأميركية التي تقضي بتمديد الإتفاق لمدّة أربعين عاماً. وفيما لو رفض عبد الله تجديد الولاء للحامي الأمريكي فلن يتولى عرش السعودية. ولدى عودته من الولايات المتحدة،قطع السعوديون العمل مع فهد كملك، وما زال الأمريكيون حتى اليوم، على الرغم ممّا يبدو من خلافات بين البلدين في الكثير من المجالات، يقولون للسعوديين ما يجب أن يفعلوه.

---

(١) تم مهر ميثاق كينسي في الرابع عشر من شباط عام ١٩٤٥ على متن الطرّاد الحربي الأمريكي (كينسي) بين الملك ابن سعود ، مؤسس المملكة العربية السعودية ، والرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت. يقضي هذا الاتفاق بأن تلتزم الولايات المتحدة الأمريكية بحماية الرياض مقابل تزويدها بالنفط.

الإمارات العربية المتحدة تغازل

مارين لوبين (Marine Lepen)

بدأ كل شيء بزيارة على ضفاف النيل، ففي شهر أيار عام ٢٠١٥ التقت السيدة مارين لوبين رسمياً في القاهرة برئيس الوزراء المصري إبراهيم محلب وبالإمام الأكبر لجامعة الأزهر الشهيرة محمد الطيب وكذلك بالبطريرك القبطي تيودور الثاني.

تشاطر رئيسة الجبهة الوطنية مارين لوبين، وبلا تردد، الموقف المناهض للإسلاميين الذي تتخذه السلطات المصرية التي انطلقت لاجتثاث الإخوان المسلمين منذ انقلاب الجيش ضد الرئيس الإخواني المنتخب محمد مرسي في صيف عام ٢٠١٣.

وبحسب الصحافي في مجلة فالور أكتيال **(**Valeurs Actuelles**)** الذي رافق مارين لوبين فإن المباحثات سارت جيداً، ولكن ما أغفلته المجلة هو أنها لم تقل إنّ السيدة لوبين التقت سراً برئيس الاستخبارات المصرية خالد فوزي وعلى الأخص بلقائها مع الرئيس شخصياً المشير عبد الفتاح السيسي حفّار قبور الإسلاميين[١].

---

(١) أشارت مجلة إنتليجينس أونلاين (Intelligence Online) إلى الزيارة التي قامت بها مارين لوبين بدون أن تشير إلى لقائها مع المشير عبد الفتاح السيسي.

«إنّها المفاجأة، هكذا وصفها أحد المقربين من مارين لوبين. لم يكن اللقاء متوقعاً، لقد راقب المصريون مجريات المحادثات الأولية، ومن ثم توجهت مارين إلى القصر الرئاسي».

وأضاف إنّ مارين ذهبت بمفردها للقاء الرئيس لم يرافقها أي عضو من الجبهة الوطنية،واستمرّ اللقاء قرابة التسعين دقيقة. لم تفصح مارين عند انتهاء اللقاء عما دار من بحث مع الرئيس إلى معاونيها الذين كانوا معها في الوفد.

وخلال هذه الزيارة إلى أكبر بلد عربي من حيث السكان:« حرصت الجبهة الوطنية على التأكيد أنّ العالم العربي ليس أحادي الطيف، وأن بلداناً مثل مصر أو الإمارات العربية المتحدة يمكن أن يقام معها علاقات صداقة لأنها تقف معنا في الخندق نفسه ضد الإسلاميين« كما بيّن إمريك شوبراد» (Aymeric Chouprade) الذي كان يشارك في الوفد بصفة مستشار لمارين لوبين.

في الواقع، قامت دولة الإمارات العربية المتحدة الحليفة والممولة للنظام المصري بدفع نفقات زيارة السيدة مارين لوبين لمصر جميعها « الجبهة الوطنية لم تدفع لا نفقات الفندق ولا بطاقات الطائرة لا هي ولا مصر» أكد أحد المقربين من مارين لوبين.

تقارع الإمارات العربية المتحدة مثلها مثل مصر، الحراك الإسلاموي خاصة الإخوان المسلمين عدوهم اللدود حتى أن الإمارات ذهبت إلى حد نشر «قائمة سوداء» للحركات المحظورة في الإمارات، ومن بين هذه الحركات، بكل تأكيد، الإخوان المسلمون، وتفصّل اللائحة السوداء الفروع المتشعبة لهذه الحركة ومصادر تمويلها في كلّ أنحاء العالم؛ حيث يعدّ اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، المقرب من جارة الإمارات ومنافستها أي دولة قطر، أحد هذه المصادر. وللعلم تعدّ الجبهة الوطنية هذا الاتحاد عدواً لدوداً لها ولرئيستها مارين لوبين.

ومن الجدير ذكره أن حكام الخليج جميعهم يولون اهتماماً خاصاً بالحملات الانتخابية الفرنسية، حيث تتابع سفاراتهم ومكاتب العلاقات العامة عن كثب استطلاعات الرأي، وانطلاقاً من رؤاهم المستقبلية يسعون إلى إقامة تواصل مع معظم أولئك الطامعين والطامحين إلى السلطة الأعلى. لكن ما يحصل أن عدداً من المرشحين مثل آلانجوبيه (Alain Juppe) الذي رفض عدة طلبات لمواعيد مع السفير السعودي بفرنسا خالد الانكري، إلا أنّه أخيراً وبصفته عمدة لمدينة بوردو التقى الأمير محمد بن سلمان على هامش زيارته إلى باريس في نهاية حزيران ٢٠١٦ على غرار ما فعله نيكولا ساركوزي.

بعد عدة أسابيع من هذه الزيارة قام ساركوزي بطلب التماس من صديقه الملك محمد السادس ملك المغرب أن يتوسط لدى الملك سلمان لإجراء لقاء منفرد، وذلك خلال عطلة هذا الأخير التي كان يقضيها في قصره الخاص بطنجة. ومما يجب ذكره هو أن العلاقات بين رئيس فرنسا السابق والسعودية بقيت تتراوح بين المر والملح (مزّة)، وقد وصف الملك عبد الله ساركوزي «بالحصان الجامح».

انزعج (نَفَرَ) الحكام السعوديون من بعض تصرفات ساركوزي الوقحة، مثلاً عندما يقوم في أثناء اللقاء وهو جالس بعرض نعل حذائه، كما نفروا منه عندما أقام علاقة صداقة مع الرئيس السوري بشار الأسد عام ٢٠٠٨ لكن في المقابل حافظ ساركوزي على علاقة ودية مع أمير قطر الأب الشيخ حمد، إذ كان هذا الأخير «لا يحلف إلا برأس ساركو» هذا ما أفصح عنه أحد زواره الفرنسيين، فبالنسبة إليه «ساركو رجل الدولة الوحيد في فرنسا»، أضاف هذا الصديق القديم للشيخ حمد.

وكان الشيخ محمد بن زايد – الملقب[1] بـ م ب ز – الذي يعدّ المسؤول رقم واحد في دولة الإمارات العربية المتحدة هو الآخر صديقاً لساركوزي الذي ما فتئ يتردد على أبو ظبي[2] لإلقاء محاضرات فيها.

لم يغب ساركوزي عن أنظار الإماراتيين حتى في اللحظات التي أعطت استطلاعات الرأي تفوقاً لألان جوبيه، وقد توجه وزير الدولة للشؤون الخارجية الإماراتي أنور قرقش في شهر نيسان من عام ٢٠١٦ إلى أحد مؤلفي هذا الكتاب وعلى إثر تلك الاستطلاعات: «هل انتهى ساركو؟». تثبت مجريات الأمور أن أمراء الخليج يعرفوننا أكثر مما نعرفهم نحن، وهم واقعيون.

بقيت مارين لوبين، بالنسبة إلى أمراء الخليج لغزاً غير معروف، وإذا ما كان القطريون والسعوديون ليس لديهم - حتى اللحظة - رغبة في لقائها فإن الإماراتيين حرصوا على التعرف على النجم الصاعد في السياسة الفرنسية، وهم يحاولون القيام بأي عمل من شأنه أن يؤثر ولو بشكل خفي، وما تمويل زيارتها إلى مصر إلا دليلٌ على ذلك .

توالت الخطوات بالاتجاه ذاته، ففي خريف ٢٠١٥، التقى موفد عالي المستوى من الإمارات مع السيدة مارين لوبين في قصرها العائلي الخاص بمنطقة مونترتو (Montretour) على مرتفعات سان كلو (Saint cloud). كان

(١) كان الشيخ زايد ، والد الشيخ محمد ومؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة ، صديقاً لجاك شيراك الذي حضر مراسم تشييع جنازته في كانون الأول عام ٢٠٠٤.

(٢) الرئيس الفرنسي السابق ساركوزي يقوم بعيداً عن الأنظار، ولكي لا يلفت الانتباه، بإلقاء محاضرات على جمهور مختار بعناية فائقة . هذا ما صرّح به نائب الجمعية الوطنية الفرنسية عن الجمهوريين.

المبعوث الإماراتي يرغب في فتح قناة تواصل مع مارين لوبين[1]. وعلى غرار مصر، فإنّ محاربة الإسلاميين بالإضافة إلى مصالح فرنسا الأخرى في أبو ظبي،التي تحتضن قاعدة عسكرية فرنسية كان من شأنها التقريب بين الإمارات العربية المتحدة والجبهة الوطنية.

شرحت ماري لوبين لضيفها الإماراتي أنّ حزبها يرنو إلى إرساء دعائم «سياسة عربية» قوامها بلدان مثل مصر والإمارات العربية المتحدة، وروسيا التي لا يمكن وضع مواقفها المناهضة للإسلاميين موضع شك.

ومن جهته نصح الموفد الإماراتي مارين لوبين بتوجيه ضرباتها باتجاه قطر وقليلاً باتجاه السعودية،الشقيق الأكبر لـ (أبو ظبي) الذي عليها مداراته ولو علناً على الأقل.

«ليس هناك أي مشكلة عند مارين لوبين في مهاجمة قطر، فهي تصيد عصفورين بحجر واحد؛ قطر من جهة وصديقها ساركوزي من جهة أخرى»، هذا ما أفشى به مقرب من رئيسة الجبهة الوطنية.

لقد فتح تقهقر الجبهة الوطنية، في الانتخابات الإقليمية التي حصلت بعد عدّة شهور من هذا الانفتاح،عيون بلدان الخليج على حقيقة مفادها أنّ فرص مارين لوبين بالوصول إلى السلطة دون تحالف مع أحزاب سياسية يمينية أخرى يبدو صعباً بل غاية في الصعوبة. وعلى هذا الأساس فرملت الإمارات العربية المتحدة نشاطها السري باتجاه الجبهة الوطنية معتبرين في كل الأحوال أنّ التهديد الإرهابي المتصاعد في فرنسا والمخاطر التي يفرضها هذا التهديد على سير الانتخابات الرئاسية في فرنسا في العام ٢٠١٧ لا يمكن لشركائها الجدد تجاهلها إلى وقت طويل.

---

(١) التمس المؤلفان إجابة السيدة مارين لوبين عبر الإيميل بتاريخ ٨ تموز ٢٠١٦ لكنها لم تجب.

« بدأت العزلة الدولية للجبهة الوطنية مع الانتخابات الإقليمية»، هذا ما لاحظه مقرب من مارين لوبين، إذ إنّه قبيل ذلك شرعت بعض البلدان بالتقرب منها اعتقاداً بوجود فرصة لها في الانتخابات المزمع إقامتها عام ٢٠١٧. ولو كانت نتائج الانتخابات الإقليمية على غير ما كانت عليه لكانت دولة الإمارات مستعدة للذهاب بعيداً في الاستثمار بالجبهة الوطنية بما في ذلك التمويل، أكّد هذا المقرب من لوبين.

يمكننا الآن الكشف عن أن المبعوث الإماراتي اقترح، خلال لقائه معها في قصرها الخاص، تمويل حملتها الانتخابية بمليون دولار لا بل بمليوني دولار: « أحسست بأنني أمام شخص متعود على الحديث بسهولة عن المال مع السياسيين الفرنسيين، كشف هذا المقرب من مارين لوبين».

وهذا مما حيّر مارين لوبين التي لم تعد تعرف ماذا تجيب، وتهربت من الإجابة بقولها سنرى ذلك لاحقاً ». ابتسم برينو لومير (Bruno Le Maire)، المعروف بمهاجمته ممالك الخليج جميعها،باستثناء الإمارات العربية المتحدة –فيما يتعلق بمواقفهم من الإسلاميين،حينما سُئِل فيما إذا كانت عروش البترول تموِّل المسؤولين السياسيين الفرنسيين: « سأروي لكم طرفة، باح المرشح للانتخابات الأولية في حزب اليمين ومن على شرفة مقرّه في الدائرة السادسة في باريس، عندما كنت وزيراً للزراعة في عام ٢٠٠٩، كُلفت مرافقة الشيخ حمد أمير قطر خلال جولة في باريس استغرقت أربع ساعات، وفي نهاية هذه الجولة قدّم لي الشيخ حمد هدية وهي عبارة عن ساعة ماركة باتيك فيليب (Patech Philip) مرصعّة بالألماس وبقيمة خمس وثمانين ألف يورو (٨٥٠٠٠يورو). هل تتخيلون ذلك، تمثل هذه القيمة راتبي لمدة سنة كنائب في البرلمان! بالطبع وضعت هذه الهدية في صندوق الوزارة وأعتقد أنها لا زالت فيه[1].

(١) لقاء مع المؤلفين في باريس في الثاني عشر من تموز ٢٠١٦ .

إنّ الدبلوماسي المخضرم ومدير مكتب دومينيك دو فيليبان في وزارة الخارجية الفرنسية الضليع في معرفة أروقة العلاقات الفرنسية مع ممالك الخليج برينو لومير يقول مبتسماً: « يمكن إدارة حكام الخليج بالإطراء فهم يتمتعون بحفاوة كبيرة، يعرضون عليك الهدايا مباشرة، وما عليكم إلّا إلقاء نظرة على معاصم عدد كبير من الوزراء!»، وأضاف لومير ليس فقط وزراء بل يشمل ذلك برينودالس Bruno Dalles والهيئة المسؤولة عن مطاردة المال الذي يستخدم في تمويل الإرهاب بوزارة المالية الفرنسية التي تلقت بدورها هدية ذات قيمة عالية.

يروي السيد لومير، وهو الموظف الرفيع، مشهد الدوحة بحضور السفير الفرنسي آريك شوفالييه: «عند انتهاء محادثاتي مع النائب العام القطري في شهر آذار ٢٠١٦، أومأ النائب العام إلى أحد معاونيه قائلاً له: «أوصلوا ساعته إلى الفندق». لقد صُدِمت، وتجمدت من الطريقة وأنا الذي انتهيت للتو معه شارحاً له أنّ هدف زيارتي يكمن في تعزيز الشفافية في حركة الأموال. ولدى عودتي إلى الفندق لم ألق أيَّ ساعة، حيث من المحتمل أن يكون السفير قد نقل الرسالة إلى القطريين، ولأنه في كل الأحوال كنت سأرفضها».

يتفاخر برينو لومير بأنه لم يضع قدمه أبداً في قطر[١]، عرض معاينته للحادثة بقسوة:

«في الوقت الذي كان فيه ساركوزي رئيساً لحزب سياسي كبير كان يقوم بإلقاء محاضرات من خمس وأربعين دقيقة ليقبض مبلغ مئة وخمسة وأربعين ألف يورو كأجر! وهو لا يرى في ذلك أيَّ مشكلة. وتتساءل في أية دولة ديمقراطية تقبل هكذا ممارسات، بأن يقوم رئيس حزب بإلقاء محاضرة في دولة أجنبية يتلقى منها أجرة. هذا شكل من أشكال التنازل المرتبط

---

(١) لدى برينو لومير شخصية دبلوماسية في الخليج تزوده بالمعلومات.

بحقيقة أنّ فرنسا أصبحت بلداً فقيراً، وبالتالي فإنّ الطبقة السياسية لا تتقاضى رواتب جيدة، وأنّ بلدان الخليج مصدر فائدة مهمة (وكأنها دجاجة تبيض بيضاً من ذهب)»، أنهى برينو لومير كلامه.

يا لها من سخرية القدر! تتقاطع معاينة لومير مع تلك التي أبداها أحد مستشاري أمير قطر السابق الذي التقيناه في الدوحة عام ٢٠١٢ حيث قال: «الفرنسيون هم الأسهل شراءً»، وتوقف هنا هذا المسؤول عن صحيفة الذي يبدو أنه على علم وفير بالفساد الخلقي لسياسيينا. هل بالإمكان أن يكون الحال على غير ذلك؟ فلدى المسؤولين في قطر سجلات. وهم يدركون جيداً كما رأينا سابقاً، لمن تُجزَل العطاءات والهدايا.

يجدر بنا لكي نخفف الحمل عن سياسيينا، التوضيح بأنّهم ليسوا الوحيدين الذين استسلموا لإغراءات الرولكس والعطاءات الأخرى بقطع النقود الرنانة والمترنحة؛ موّلت قطر أيضاً هيلاري كلينتون، المرشحة الديمقراطية للرئاسة الأميركية، وذلك عن طريق المؤسسة التي تحمل اسمها، كما موّلها أيضاً كل من السعودية والإمارات العربية المتحدة والكويت كي لا نستشهد إلّا بممالك الخليج فقط [١]. وبحسب الأرقام المقدمة من موقع مؤسسة كلينتون، قدمت الدوحة لكلينتون ما بين مليون وخمسة ملايين دولار. أمّا مساهمة السعودية فقد بلغت ما بين عشرة وخمسة وعشرين مليون دولار، وذلك منذ إنشاء هذه المؤسسة عام ١٩٩٧، ومن أجل انتخابات تشرين الثاني ٢٠١٦ خصصت رزمة من المال، وذلك على لسان الأمير محمد بن سلمان ابن الملك سلمان، في التصريح الذي أعلنه قبيل سفره إلى الولايات المتحدة في حزيران ٢٠١٦، وقد نقلت وكالة الأنباء الأردنية البتراء (Petra) تأكيد محمد بن سلمان أنّ المملكة العربية السعودية

(١) عدَّ روبرت جيبس (Robert Gibbs) الناطق السابق باسم أوباما بالبيت الأبيض أنّ العلاقات بين مؤسسة كلينتون والحكومة القطرية وأنظمة الخليج الأخرى هي: «في الحد الأدنى مزعجة».

قد موّلت ٢٠% من الحملة الانتخابية للمرشحة الديمقراطية إلى البيت الأبيض، وأضاف رجل المملكة القوي : « وذلك بكثير من الحماس».

وكانت هذه الجملة هفوة صُحِّحت بعد لحظات عدة لاحقاً، وذلك بسحب التصريح من موقع وكالة البتراء لكن القطار كان قد فات، حيث إن مجموعة فكرية أمريكية أعادت نشر تصريح الأمير السعودي محمد بن سلمان باللغة العربية.

لقد دفع محمد سلمان ثمناً لهذه الرعونة بأنّه لاقى استقبالاً فاتراً في واشنطن خلال جولته الترويجية لمنصبه بوصفه وزيراً للدفاع وكنائب لولي العهد التي استمرت ثلاثة أسابيع التقى خلالها، على الرغم من كل ما حصل، بكل مراكز القوى في الولايات المتحدة الأميركية. ويقال إنّ العلاقة الأميركية السعودية توصف بالسيئة.

سيتم إدراك حقيقة الأمور وهي أنّ ممالك الخليج لا تتأخر في الانخراط بتوجيه القادة الجدد للدول الكبرى، وبشكل رئيسي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا أي تلك القادرة على تقديم شكل من أشكال الضمان على حياة أنظمتهم في مواجهة التهديدات المتعددة التي تضغط على توازناتهم الوطنية الهشة .

كشفت لنا شخصية قطرية بأنّ المؤسّسة السياسية البريطانية هي أيضاً تلقت مالاً وعلى رأس هذه المؤسسة الزوجان بلير، وبشكل أخص السيدة شيري (Cherie) عقيلة رئيس وزراء بريطانيا الأسبق. أضف إليهما أعضاء من حزب المحافظين.

لقد دعم المال القطري حملة حزب العمال في الانتخابات التشريعية لعام ٢٠١٥ وخاصة حملة رئيس حزب العمال إد ميلباند (Ed Miliband)، مع أن استطلاعات الرأي كانت تؤكد فوز خصمه دافيد كاميرون (David Cameron). ورداً على السؤال لماذا المراهنة على الخاسرين وليس على المحافظين المرجح فوزهم، أجاب المسؤول القطري بسخرية « لقد سبق السيف العذل ».

البرق الخُلَّبي للعقود الكبيرة

« عقود فرنسية – سعودية بقيمة عشرة مليارات يورو! استنفرت الحكومة الفرنسية لخدمة شركاتنا وتأمين فرص عمل ». ما كادت زيارته إلى الرياض تنتهي حتى بدأ مانويل فالز بالتغريد على تويتر، مركِّزاً على أهمية النتائج التجارية التي ستترتب على زيارته لبلد يعاني من تشوه في صورته بفرنسا.

قام رئيس الوزراء الفرنسي مانويل فالز بزيارة إلى السعودية استغرقت يومين في الثاني عشر والثالث عشر من شهر تشرين الأول ٢٠١٥؛ هدفت هذه الزيارة إلى تعزيز نتائج زيارة رئيس الجمهورية فرانسوا هولاند التي قام بها قبل ستة شهور، وكانت هذه الزيارة الأولى من نوعها لرئيس فرنسي حيث دُعِي للمشاركة في قمة دول الخليج الست. باختصار، تبدو كل الأمور على ما يرام بالنسبة إلى فرنسا التي جعلت من العربية السعودية «شريكها الاستراتيجي» في الشرق الأوسط.

و ما زاد من منسوب التفاؤل هذا تلك البرقيات الدبلوماسية المرسلة من السفارة الفرنسية في الرياض قبل وصول رئيس فقد كانت واعدة.

يا لها من قرقعة ذهبت هباءً منثوراً، وذلك نظراً لفشل هذه الزيارة الذريع، فلا أمير كان في استقباله في المطار، ولا أي سمو ملكي حضر العشاء الرسمي .

هل يمكن تفسير ذلك بمجيء جان –ماري لوغين، وزير الدولة الفرنسي لشؤون العلاقات مع البرلمان، قبل ثلاثة أسابيع إلى الرياض طالباً «أن تقوم السعودية بتمويل الجهود الحربية الفرنسية»، أي تمويل الحملة الانتخابية لفرانسوا هولاند، الأمر الذي لم يرق للسعوديين. هذا ما أوحى به أحد الصناعيين الموجود في قلب الحدث[1]. ألا يمكن أن تكون هذه الفظاظات الدبلوماسية مرة أخرى هي السبب وراء عدم توقيع هذه العقود؟

انتظر مانويل فالز قرابة الساعة ونيف على مقاعد صالونات فندق ريتز كارلتون حيث سيقام الاحتفال الذي طال انتظاره، وفي هذه الأثناء قامت المكاتب المعنية في قصر ماتينيون (Matignon) بتوزيع بيان على قرابة عشرة من الصحافيين الحاضرين يعلن أن شركة فيوليا (Veolia) حصلت على عقد بثلاثة مليارات يورو لإدارة شبكة مياه الرياض علماً أن السعوديين يكرهون هذا النوع من الدعاية.

جاء البيان الختامي الذي تم توزيعه بعد عدة ساعات مؤكداً عدم توقيع أي عقد مكتفياً بالتنويه«بتقدم المفاوضات مع فيوليا».

أمّا فيما يتعلق بتزويد السعودية بعشرين طائرة إير باص (Air bus) A ٣٨٠ التي تبلغ تكلفتها ستة مليارات يورو فقد تم إلغاؤه، دون تقديم أي تفسير، من خلال اتصال هاتفي في الرابعة صباحاً مع ممثل الشركة الموجود في الرياض. وهكذا مرة أخرى لم يعد هناك وجود لأي عقد نهائي، وهذا ما نقرؤه في البيان الختامي الذي قال : «اتفقنا على الشروع بشراكة تجارية منصبّة خاصةً على كبار المالكين»؛ إنها الهزيمة القاسية.

(١) لقد حثت السفارة الفرنسية في الرياض السيد لوغين مرات عديدة أن يحل محل زميليه وزير الصحة ماريسول تورين (Marisol Touraine) ووزير العدل كريستين توبيرا (Christine Toubira) اللذين رفضا «من وجهة نظر إيديولوجية» قيام أي تعاون بين وزارتيهما وبين المملكة العربية السعودية.

بقي أعضاء المجمّع العسكري الصناعي على جوعهم، فسيتم التوقيع فقط على اتفاقين يقضيان بتسليم السعودية ثلاثين طوّافاً سريعاً، والبدء في «مفاوضات حصرية» في مجال الأقمار الصناعية للاتصالات والمراقبة مع مجموعة تاليس (Thales).

إذن، قليلة هي الاتفاقات الناجزة التي تبلغ ثلاثة مليارات فقط وليس عشرة، لكن بالمقابل دائماً وأبداً رسائل نوايا، أي وعود. وبهذا الخصوص فإنّ الصناعيين الفرنسيين يملكون من المعرفة والخبرة ما يكفي حول تأخر الوعود السعودية برؤية النور.

« ليس لدينا أدنى شك ولو لحظة واحدة بأنه سيتم تحقيق رسائل النوايا السعودية» هذا ما أكّده مانويل فالز أمام الصحفيين المشككين الذي كان من بينهم أحد المؤلفين الذي كان يرافق الوفد الفرنسي إلى السعودية.

قام السعوديون إمعاناً في الإذلال،بعد عدة أسابيع من هذه الزيارة، بتوقيع عقد مع حليفهم الأمريكي، في وقت لم تكن فيه العلاقات السعودية – الأمريكية على ما يرام،ويقضي هذا العقد بالحصول على أقمار صناعية للمراقبة و فرقاطات بمبلغ إجمالي قدره عشرة مليارات دولار.

تثبت الحقائق التاريخية مرة أخرى، ليس فقط في عهد فرانسوا هولاند بل أيضاً في عهد نيكولا ساركوزي وحتى في عهد جاك شيراك الذي يُعدّ الرئيس الفرنسي المفضل عند القادة السعوديين، أنّ فرنسا تبقى «الحليف البديل» و «شريك التعويض».

فرنسا «شريك التعويض»

يؤرخ الثاني من حزيران ١٩٦٧ لأول زيارة رسمية يقوم بها ملك سعودي إلى فرنسا، حيث سيجري الملك الإصلاحي فيصل محادثات مع الرئيس الفرنسي شارل ديغول في قصر الإليزيه. وكان العاهل السعودي المتحفظ وذو الوجه النحيل قد طلب،بادئ ذي بدء، كشرط للقيام بالزيارة أن يقوم الجنرال ديغول بتوجيه دعوة بخط يده،نقلها له مستشاره السوري معروف الدواليبي الذي يجيد اللغة الفرنسية .

بقيت المساعدة العسكرية التي قدمتها فرنسا لإسرائيل الفتيّة في الخمسينيات من القرن الماضي عالقة في حنجرة الملك فيصل، لكن هناك ارتياح حصل بين الرجلين وستترك هذه الزيارة بصمتها على بدء علاقات فرنسية – سعودية عززتها لاحقاً المواقف الفرنسية الإيجابية تجاه الفلسطينيين.

انشغل الجنرال ديغول ، وهو على رأس دولة فرنسا في أوج ازدهارها الصناعي،بتأمين التموين النفطي، لكن « كان ديغول يريد إرساء دعائم لطرائق جديدة في التعامل مختلفة عن تلك التي تستخدمها الولايات المتحدة الأمريكية» هذا ما أشار إليه الدبلوماسي السعودي فيصل المجفل في كتابه حول العلاقات بين باريس والرياض.

أوضح المجفل في كتابه: « يستند الأمريكيون في تعاونهم أساساً على شركات القطاع الخاص التي تقيم تعاوناً مع الدول لأهداف اقتصادية محدودة بشكل دقيق.

أي بمعنى أنّه أنّ هناك، في الحالة الأمريكية، إرادة اقتصادية (تواصل سياسيين مع اقتصاديين) أمّا في الحالة الفرنسية، فهناك إرادة سياسية (تربط سياسيين مع سياسيين)، إلّا أنّ الهدف يبقى ذاته: البترول »(١).

أعجب السعوديين وضعُ فرنسا « كصديق منافس» للولايات المتحدة. ولم يكفّوا عن استثمار هذا الوضع في علاقاتهم مع باريس(٢)، فحينما تشوشت علاقات الرياض بواشنطن مثلاً في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أدارت السعودية وجهها صوب فرنسا السعيدة جداً بملء الثغرة قبل أن تحصل المصالحة مجدداً مع حليف السعودية الاستراتيجي .

وكمكافأة لجهود فرنسا التي بذلت لملء الفراغ خلال الأزمة مع واشنطن، قبلت السعودية بتوقيع عقد أو عقدين مع فرنسا، إلا أن هذه العقود لا ترقى إلى مستوى العقود الموقعة مع حليفها الحقيقي الوحيد «الشريك الاستراتيجي» أي الولايات المتحدة الأمريكية(٣).

هذا هو مسار علاقاتنا مع المملكة العربية السعودية خلال الثلاثين عاماً المنصرمة. ومن وجهة نظر الرياض فإنّ كل عقد توقعه مع فرنسا هو في أغلب الأحيان شكل من أشكال التعويض للتعبير عن شكر تجاه فرنسا.

تم تطبيق القاعدة للمرة الأولى عام ١٩٨١ بتوقيع اتفاق سواري١ (Sawary 1) الذي يقضي ببيع أربع فرقاطات لافييات (Lafayette)، وسفينتي مؤونة، وخمس عشرة طائرة هليكوبتر بوما (Puma)ووضع فريق من التقنيين والمستشارين الفرنسيين يقيم في السعودية للتدريب والمراقبة ولتأهيل مئتي ضابط سعودي في المدرسة البحرية بمدينة برست الفرنسية.

---

(١) العلاقات بين فرنسا والعربية السعودية منذ عام ١٩٦٧ حتى ٢٠١٢ – فيصل المجفل –لارماتان -٢٠١٢

(١٢) ساعدت الاستخبارات الفرنسية (SDECE) السعوديين في التأسيس لاستخبارات السعودية التي تبوأ قيادتها الأمير تركي الفيصل.

(٣) فيصل المجفل – المرجع نفسه

نـاهز مبلـغ المبـادلات لتحـديث البحريـة العـسكرية الـسعودية نحـو مليـاري دولار، «ومنـذ ذلـك التـاريخ، يـشرح عـسكري فرنـسي، تـم تجهيـز البحرية السعودية المتمركزة في مدينة جدة على البحر الأحمر بمعدات فرنسية في حين بقي تجهيز المنطقة الشرقية في الخليج الفارسي بالدمام وجبيل مـصاداً خاصاً أنكلو – ساكسوني».

لـدى المملكـة مـا يكفـي لـشكر باريس،هـذا مـا أقـرّ بـه الجنـرال محمـد عمـري رئـيس هيئـة الأركـان البحريـة الـسعودية والمفـاوض في اتفـاق سواري١، حيث أضاف:

« كـان التعـاون الفرنـسي – الـسعودي لتحريـر الكعبـة في عـام ١٩٧٩ مفتاحاً للتعاون العسكري الذي تُوِّج باتفاق سواري ١ ».

لقد هُزَّ عرش المملكة قبل سنتين من هذا التاريخ وبالتحديد في العشرين من تشرين الثاني ١٩٧٩، هجومٌ عنيف شنَّه كوماندوس مـن المتطـرفين مؤلـف من أكثر من مئتي متشدد على الأماكن المقدسة في مكة بقيادة جهمان بن محمد بن سيف العتيبي المتحدر من عشيرة كبيرة في نجد، حيـث احتـل المتـشددون، لمـدة أسبوعين، جامع مكة الكبير الذي يُعدّ أعلى مكان مقدس عند المسلمين. لم يكن بإمكان الجيش ولا الحرس الـوطني استخدام المدفعيـة لكـي لا تلحـق ضرراً في الكعبـة ممـا اضـطر الملـك خالـد لاسـتدعاء كومانـدوس فرنـسي مـن الجـي جـن (GiGN) بقيادة النقيب بول باريل (Paul Barril). فبعد اعتنـاقهما الإسـلام لكـي يـسمح لهـم الـدخول إلى داخـل الحـرم المكي،استـطاع رجـال النخبـة الـشرطية الفرنسية تحرير الجامع الكبير بعد خمسة عشر يوماً من المعارك الشرسة التي سقط خلالها أكثر من مئتين وخمسين شخـصاً، وجـرح مـا يزيـد عـن سـتمئة شـخص آخرين. ثم استسلم المتمردون في ليلة الرابع إلى الخامس من شهر كانون الأول، ليعود الأمن ويخيّم من جديد على مكة المكرمة، لكن ستبقى هذه الواقعـة تـؤرق آل سعود حتى أيامنا هذه.

وقعّت فرنسا مع السعودية عقداً جديداً عام ١٩٨٨، وهو عقد الواحة بمبلغ يقدّر بمليار دولار يقضي بتحديث الدفاع الجوي الملكي هذه المرة، ويتضمن تسليم صواريخ مضادّة للصواريخ من طراز كروتال (Crotale).

يتمُّ من خلال هذه الصفقة تعويض خسارة فرنسا عن عقد اليمامة، هذا العقد الضخم الذي انتزعه البريطانيون تحت تأثير الضغط القوي للوبي والذي يطال سبعين طائرة تورنادو وخمسين طائرة هيلوكوبتر أواكس، وتبلغ كلفته مبلغ خمسة وثمانين مليار دولار. يُعدّ عقد اليمامة العقد الأضخم الذي يتم توقيعه من قبل الرياض مع واحدة من حليفاتها.

أتاحت هذه الصفقة فرصة تسليم عمولة ضخمة تقدر بـ ٣٨% إلى بريطانيا. في الوقت الذي اجتاحت فيه أفواج الجيش العراقي الكويت، وذلك بعد سنتين من توقيع العقود، انهمكت السعودية في بذل الجهود الدبلوماسية لبناء ائتلاف عسكري دولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية يطرد صدام حسين خارج الإمارة الصغيرة. أجابت فرنسا بالإيجاب وستكافأ على هذا الإيجاب بتوقيع عقد ثالث تحت اسم: سواري٢، بمبلغ مليارين ونصف المليار دولار. جرى احتفالٌ لتوقيع هذا العقد في الوقت نفسه الذي تجري فيه الاستعدادات لعملية عاصفة الصحراء، وفي السلة أربع فرقاطات لافيات ٣٠٠٠ أس، وعشر طائرات حربية من طراز سوبر بوما (Super Puma)، وسفن تموين، وبرنامج متكامل لتأهيل وتطوير كفاية الضباط السعوديين في المدارس البحرية بمدينة برست ومدينة شيربورغ[1].

(١) تضمن عقد سواري ٢ ليس فقط بيع فرقاطات إلى السعودية إنّما أيضاً غواصات إلى باكستان. أتاحت هذه العقود الحصول على عمولة فائضة لتمويل الحملة الانتخابية لرئيس الوزراء إدوارد بلادور لرئاسة الجمهورية ١٩٩٥. ولكن حصلت تطورات مأساوية في الثامن من أيار ٢٠٠٢ عندما لاقي أحد عشر موظفاً ومقاولاً فرنسياً حتفهم بالإضافة إلى ثلاثة مرافقين باكستانيين في العملية الانتحارية التي حصلت في كراتشي وفي المكان الذي تجمعت فيه الغواصات الفرنسية المباعة إلى باكستان.

« أصبح استخدام مبدأ التعويض تجاه الفرنسيين أمراً بديهياً عند القادة السعوديين، أشار فيصل المجفل، وخاصة مع الرئيس فرانسوا ميتران الذي يعدّ أول رئيس فرنسي يلجأ إلى مبدأ سك النقود تجاه السعودية ». أي إنّنا جاهزون للمشاركة في الائتلاف وبالمقابل نأمل الحصول على عقود. ولا يهم أن يصفق وزير دفاعه جان بيير شوفانمان (Jean- Pierre Chevenement) باب الحكومة، رافضاً بشكلٍ مُدوٍّ مشاركة فرنسا بائتلاف تحت قيادة أمريكية؛ أمّا بالنسبة إلى ميتران فالأعمال هي الأعمال.

إنّ المبدأ الثاني الذي يوجّه العلاقات الفرنسية – السعودية هو أنّه لا منافسة مع الولايات المتحدة الأمريكية[1] ولا مع بريطانيا.

تحتكر هاتان الدولتان، في الواقع، كل الصفقات الخاصة بالقوى الجوية السعودية بما فيها المعدات، فهي إمّا أمريكية وإمّا بريطانية كما يتم، في معظم الأحيان تأهيل الطيارين في هذين البلدين، فيما تختص باريس بقطاع البحرية السعودية. لكن هذا لن يمنع قادتنا من أن يتوهوا أحياناً.

يروي شارل – هنري دارغون (Charles-Henri d'Aragon)،سفير فرنسا في السعودية ، أنّه وخلال التحضير لزيارة جاك شيراك إلى السعودية ٢٠٠٥ : «ما زلت أذكر ما قاله لي خالد بن سلطان، المسؤول عن الدفاع، في الطائرة التي تقلّنا إلى باريس للتحضير للزيارة، إنّ الطيران السعودي هو أمريكي. لكن مع هذا وخلال اللقاء الثنائي جرّب شيراك الدفع بكل بيادقه أمام الملك عبد الله الذي أجابه بلا تردد وبسرعة « هذا ليس موضوعاً للبحث»[2].

---

(١) اللوبي العسكري الأمريكي في السعودية قوي جداً ، لا سيما في القوى الجوية (أواكس - ف١٥) من خلال وجود حوالي ثلاثمئة مستشار أمريكي.

(٢) لقاء مع أحد المؤلفين في باريس في التاسع من حزيران ٢٠١٥

باختصار، يقابل الضغوط السياسية، ومبدأ التعويض،واختيار القطاع بدون منافسة مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا،يقابل كل ذلك بشكل عام توقيع عقود كبيرة بين السعودية وفرنسا. يجدر إضافة متغيِّر آخر إلى هذه المعادلة وهو الخلافات الفرنسية – الفرنسية العابرة.

الخلافات الفرنسية – الفرنسية

يأتي على رأس قائمة الهفوات التي ارتكبها الفرنسيون في المفاوضات التي تهدف إلى توقيع عقود ضخمة، من بين هذه العقود قطار السرعة الكبرى (TGV) الذي سُمي بقطار «الحجاج» لربط مكة المكرمة بالمدينة المنورة. احتل هذا العقد - وبشكل لا يقبل الجدل - الأولوية على قائمة العقود، وكانت مجريات الأمور تنمّ على نجاح، وهذا يعني إشادة ستمئة كيلومتر من السكك الحديدية ملائمة للسرعة الكبيرة لربط المدينتين المقدستين في المملكة العربية السعودية.

تصل كلفة هذه الصفقة إلى سبع مليارات دولار. وفي نهاية السباق كان على الثنائي الفرنسي شركة ألستوم (Alstom)وشركة السكك الحديدية (SNCF)مواجهة الشركة الإسبانية تالكو (Talgo).

قبلت فرنسا، بعد عدة شهور من الأخذ والرد،تخفيض عرضها إلى خمسة مليارات وأربعمئة مليون دولار، وهو أعلى بقليل من العرض الذي قدمته منافستها الإسبانية والذي يبلغ أربعة مليارات وتسعمئة مليون دولار[1].

في أثناء اللقاء الذي حصل بين السفير الفرنسي في الرياض برتران بوزانسونو (Bertrand Besancenot) وابن الملك عبد الله الأمير متعب،أفلت

(١) تم الكشف عن تفاصيل هذا الفشل من شاهد مفتاحي الذي رفض الكشف عن اسمه.

هذا الأخير العبارة الآتية: «عرضكم أغلى قليلاً، لكن إذا ما قمتم بتقديم العرض نفسه الذي قدمه الإسبان، فسنقوم باختيار فرنسا ».

لم يتأخر السفير بإيصال الرسالة إلى مراكز شركتي السكك الحديدية والألستوم في باريس، ليأتي الجواب بعد هنيهة من الزمن بالإيجاب. وافق الفرنسيون على تخفيض سعر عرضهم، ليقوم الأمير متعب بإعلام الملك بذلك الذي أكّد موافقته على إجراء العقد الضخم مع فرنسا. أقيمت الأفراح في السفارة الفرنسية بالرياض، وفُتحت زجاجات الشمبانيا ابتهاجاً، ووصلت الأخبار السارة إلى الرئيس نيكولا ساركوزي عبر الهاتف.

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى وصل العرض الفرنسي إلى الرياض، وهو عبارة عن عقد سميك، يتكون من عدة آلاف من الصفحات، حيث أسرعت السفارة الفرنسية بنقله إلى الأمير متعب الذي سيقوم بدوره بنقله إلى وزارة المالية التي تقوم بشكل عام بدفع المال عن العقود الموقعة من السعودية .

يتلقى السفير الفرنسي، بعد عدة أيام،اتصالاً هاتفياً من وزارة المالية السعودية يخبرونه أنّ هناك مشكلة في العقد: «يوجد مشكلة، قيل له، فأنتم قد غيرتم شيئاً ما ؟ انسوا العقد».

سقط النبأ كالصاعقة على السفير، وقام على الفور، وهو على درجة كبيرة من السخط،بالاتصال بشركة السكك الحديدية (SNCF) لمعرفة الحقيقة الخفية في القصة.

« لا شيء يذكر، غيّرنا فقط شيئاً في ملحق العقد ». يتذكر شاهدنا الواقعة : « عدلت شركة(SNCF)بعض البنود في ملحق العقد لكي تستدرك بقطع التذاكر أي بزيادة أسعار التذاكر أي ستكون بنسبة الزيادة التي يتوجب على السعوديين دفعها لتصل إلى ٣٠% تقريباً، وهكذا وبهذه الزيادة تسترد الشركة مبلغ الخمسمائة مليون دولار التي قامت بتخفيضها في عرضها الأولي».

« هذا أمر غير معقول، لكن الأمور سارت بهذا الشكل، يبوح لنا مصدرنا باستغراب، وها نحن نخسر عقد الـ (TGV) بعد أربع سنوات جراء محاولاتنا خداع الأمير متعب والسعوديين ».

استدعى الرئيس نيكولا ساركوزي، وهو في حالة غضب، السفير الفرنسي في الرياض إلى قصر الإليزيه الذي أقرّ بعدم فهمه لما جرى. ومع ذلك فإنّ الغضب السعودي كان بعيداً عن أن يكون مجانياً.

من المؤكد أن أداء العرض الإسباني من الناحية التقنية هو أقل من الأداء الفرنسي وقد عانى من إشكالات حقيقية، لكن، وعلى عكس ما تأمله الفرنسيون، لم تطرح إعادة النظر فيه.

يبرز هذا الفشل الذريع متاعب أخرى على الشركات الفرنسية الراغبة في العمل مع السعودية مواجهتها. من بين المشاكل يبرز اختيار شبكات الضغط والوسطاء، هؤلاء السماسرة الذين لطخوا في معظم الأحيان العلاقة بين باريس والرياض.

فيما يتعلق بالسباق النهائي حول عقد القطار السريع (TGV)، لجأت فرنسا إلى خدمات خالد بوغسان، أحد رؤساء عائلة تجارية معروفة من أصل يمني، جمع ثروة طائلة بعمله في استيراد العطور والسيارات اليابانية. وقد أكّد المختصون بأنّه ليس الخيار الأفضل»[1]. لكن وبالمقابل، إضافة إلى الدبلوماسية الفعالة بين عرشين ملكيين، بإمكان مدريد الاعتماد على السفير السعودي المعتمد في إسبانيا سعود بن نايف، شقيق وزير الداخلية المتنفذ محمد بن نايف. لم تتوقف قائمة خيبات الأمل عند هذا الحد.

---

(١) تم التحقيق معه عام ٢٠١٥ في قضية لوحات كلود غييان (Claude Gueanr) كما اتّهم أيضاً بقبض عمولات عن عقد سواري٢.

« لو قمنا بجرد تاريخي للعلاقات الفرنسية - السعودية لعثرنا على الكثير من الفرص الضائعة»[1]. هكذا قالها بحزن الأميرال جان بيير جيرجيرس (Jean – Pierre Gergeres)، الملحق العسكري السابق في السفارة الفرنسية بالرياض، ما زالت قضية ميكسا (Miksa) ترنُّ حتى الآن في آذان السعوديين كأكبر شجار ملحمي كرّس له كبار القادة الفرنسيين أنفسهم لانتزاع هذا العقد الذي يتعلق بحماية حدود المملكة بواسطة نظام من الرادارات والكاميرات الأكثر تطوراً.

يعود الانشغال بهذا المشروع إلى خمسينيات القرن الماضي. ويتبع هذا المشروع بالأصل لوزارة الداخلية التي يرأسها الأمير نايف، الذي أعرب ، عام ٢٠٠٣، عن استعداده لمنح هذا المشروع إلى فرنسا،ا وكانت قد أنجزت الدراسات الأولية منذ عام١٩٥٣ . لكن ومن أجل تحقيق ذلك طلب الأمير نايف أن يحضر زميله الفرنسي إلى الرياض لتوقيع الصفقة التي تقدر بثلاثة مليارات دولار: « يتعلق الموضوع بعقد يوقع بالتراضي خاص بفرنسا»، هذا ما أكدّه الصناعي الفرنسي جاك بورجوا (Bourgeois Jacques) الذي يتابع الموضوع عن كثب منذ نشأته وحتى النهاية .

لكن الطلب قوبل في باريس بمعارضة الرئيس الفرنسي جاك شيراك لذهاب وزير داخليته نيكولا ساركوزي الشاب والمتحمس خوفاً منه أن ينشل هذا المورد الثري، ولا يريد أن تعود لجيبه أيُّ عمولة.

وهكذا حصل أول فيتو من قصر الإليزيه عام ٢٠٠٣، تلاه فيتو آخر عام ٢٠٠٥، ولكن هذه المرة ليس تجاه ساركوزي وإنما تجاه دومينيك دو فيليبان الذي خلف ساركوزي في وزارة الداخلية: «أُلغيت زيارة دوفيليبان قبل أربع وعشرين ساعة فقط من موعدها المحدد، بناءً على أوامر الإليزيه

(١) لقاء مع أحد المؤلفين في السادس من شباط ٢٠١٣ في باريس.

الذي كان يرغب في الاحتفاظ بهذا الكنز لنفسه»، هكذا قال الأميرال جيرجيريس وكانت النتيجة: «أن ضاق السعوديون ذرعاً، بعد خمسة عشر يوماً، ففتحوا باب المنافسة على عقد ميكسا».

سئم الأمير نايف الانتظار وقرر أن يقطع العقد على شرائح بحيث يكون لكل شركة في بلد صديق قطعة من السجق. «وعندما حط جاك شيراك رحاله في الرياض ٢٠٠٥،كان قد فات القطار، يتذكر الأميرال جيرجيريس، وقالها الملك لشيراك أنّه لا يمكن إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء؛ وفوجئ الملك بأنّ الرئيس شيراك لم يكن لديه علم بما جرى»، تلك هي النتيجة لتنافر الأصوات.

بذل العديد من المبعوثين نشاطاً مكثفاً في الكواليس طيلة هذه السنوات من الانتظار.

«وصل إلى الرياض مستشار نيكولا ساركوزي في وزارة الداخلية السيد بريس أورتوفو (Brice Hortefeux) وأقام فيها دون علم بوزانسونو باسم الدبلوماسية الموازية، تذكر أحد الصناعيين الفرنسيين المقيم في السعودية. كما حضر عدد من أرباب العمل الفرنسيين لمقابلة الأمير نايف، أضاف هذا الصناعي وكانوا يحلّون في فندق حياة، يمضون فيه يومين دون أن يغادروا غرفهم، ودون أن يستطيعوا لقاء نايف، لكن هذا لم يمنعهم، بعد عودتهم، من أن يقولوا العكس في أثناء لقاءاتهم مع كلود غييان وبريس أورتوفو في باريس».

كان علينا أن ننتظر ثلاث عشرة سنة طويلة، حتى تتم زيارة السيد ميشيل آليو - ماري (Michele Alliot –Marie) في شهر شباط من العام ٢٠٠٨ حينما أصبحت وزيرة للداخلية في عهد نيكولا ساركوزي، ليرى مشروع التأمين الإلكتروني للحدود السعودية النور أخيراً ولكي يتم توقيع

العقد، ولكن بدلاً من انتزاع هذا المشروع كلياً، لم يحصل الفرنسيون إلّا على جزء يسير من أصل المليارات الثلاثة كلفة العقد.

ولكي تكتمل سلسلة الأخطاء الفرنسية – الفرنسية ، يجدر بنا إضافة الشجار الذي حصل بين شركات تاليس ووضع صواريخ م ب د ا (MBDA) بخصوص العقد الذي يحمل اسم م ك٣ (MK3) بشأن تحديث الدفاع الجوي السعودي، إنّه حقيقة كثعبان البحر مايزال يطفو على السطح[1] بين الفينة والأخرى. وهل يمكننا أن ننسى أيضاً الخلاف بين أريفا (Areva) وشركة الكهرباء (EDF) في أبو ظبي الذي أدى إلى خسارة عقد بشأن الطاقة النووية المدنية في الإمارات في نهاية عام ٢٠٠٠. إلى جانب كل هذا لا بدّ من إضافة أنماط السلوك الملونة بالعنجهية،كتلك التي قام بها «السيد لا»، حيث مازالت تتذكر ردهات مودا بوزارة الدفاع السعودية ما فعله لوك فينيرون (Luc vigneron) مدير شركة جيات (Giatt) الصناعية الذي حضر إلى السعودية للتفاوض حول تبديل المدرعات من نوع AMX30 بمدرعات من نوع (Leclerc) لو كليرك «كانت تلك المفاوضات كارثية، ذكر أحد الإداريين البارزين في المفاوضات، جراء معاملة فينيرون للسعوديين كمتخلفين. وعندما قام الأمير سلطان (وزير الدفاع)، خلال الجلسة الأخيرة،بنقل بعض الطلبات التي قدمها له مستشاروه التي لا تتناول قضايا كبرى، أجاب فينيرون، متفاخراً كالديك، برفض جاف، مما دعا الأمير سلطان لمغادرة القاعة مباشرة، وهكذا ضاعت عقود فرقة المدرعات في الجيش السعودي ».

« أيّ صورة عنا نقدمها إلى شركائنا السعوديين؟ فنحن لا نلعب كفريق لفرنسا بل يلعب كل واحد منا بشكل فردي» هكذا قال متأسفاً

(١) «حرب بين تاليس و MBDA في المملكة العربية السعودية : حل العقدة قريباً؟» . ميشيل كابريول (Michel Cabriol) –لاتريبين (La Tribune) .- ١١ -١٢ - ٢٠١٣، فرنسا.

الأميرال آلنأودوت (Alain Oudot)من مدينة دينفيل الذي شغل منصب مدير شركة أوداس (Odas)، وهي الشركة المتخصصة بتصدير السلاح إلى المملكة العربية السعودية، ونالت هذه الشركة أيضاً حصتها من الخلافات الفرنسية - الفرنسية .

«عندما وقعت عقد لكس (Lex)الخاص بصيانة السفن ، قام وفد من الإدارة العامة للتسليح بزيارة إلى الرياض عام ٢٠١٢، وطلب من السعودية بأن توقف المفاوضات مع شركة أوداس. لكن ومن حسن طالعنا أنّ السعوديين استمروا في منحنا ثقتهم»، أضاف السيد أودوت.

وهكذا دواليك تصرفات غير لائقة من منافسة شرسة بين شركات متزاحمة، إلى ضغوط سياسية للاحتفاظ بالسوق كل لنفسه. يجب القول أيضاً إنّ دوائر القرار في السعودية ليس على قدر كبير من الشفافية.

في متاهات المفاوضات

«إنّ السعودية أشبه بمضخة بنزين ضخمة يتفرع منها عدد كبير من الأنابيب ، وكل إنبوب يمثل أميراً عليك ملاطفته إذا ما أردت الفوز بالقرار النهائي لجلالة الملك»[1].

يأتي الأمير سلطان **(** وزير الدفاع **)** على رأس هؤلاء الأمراء، وهو الذي تعاملت معه فرنسا منذ بداية سبعينيات القرن الماضي. « رغب الأمير سلطان، عام ١٩٧٤، أن يكون مقابله كياناً فرنسياً موحّداً للتفاوض حول العقود العسكرية، وعلى هذا الأساس تشكّلت السوفريسا **(**La Sofresa**)**»، وهي شركة تضمّ مصنعي الأسلحة والدولة الفرنسية المساهمة بـ ٣٤ %[2] .

سارت الأمور خلال سنوات عديدة من خلال العلاقة بين سلطان وشركة السوفريسا، وعبّر الأمير سلطان عن رغبته في أن يُستشار، في الحد الأدنى، في أي تغيير يحصل في إدارة الشركة، ولكن هذا لم يحصل عندما أُستبدِل ميشيل مازنس**(**Michel Mazens**)** عام ١٩٩٠. « قمنا بفرض برينو كوتي **(**Bruno Cotte**)** تحت ضغط الرئيس جاك شيراك والإليزيه »، يذكر الأميرال جيرجيريس.

---

(١) لقاء مع عضو سابق في الاستخبارات ومختص في شؤون المملكة العربية السعودية باريس – ١٥ آذار ٢٠١٦.

(٢) مقابلة مع الأميرال جيرجيريس، الذي تولى إدارة مكتب الرياضة لشركة السوفريسا ما بين ٢٠٠٧ و ٢٠١١- باريس – ١٥ أيار ٢٠١٢.

كان على الفرنسيين التأقلم مع الوضع الجديد بعد عام ٢٠٠٥، وذلك بعد تولي عبد الله العرش الملكي، ومنذ ذلك التاريخ،يجب الحصول على موافقة الملك في كل ما يتعلق بنفقات التسليح بعد مصادقتها من وزير المالية إبراهيم عساف المقرّب من الملك عبد الله، وهذا يعني أنّ كل الأمور تنتهي بيد الملك عبد الله نفسه.

كانت الأمور تجري قبل هذا التاريخ «كان الأمير سلطان، في ظل مرض الملك فهد، هو الذي يقوم بإجراء المفاوضات والتوقيع، أمّا الآن فالملك عبد الله هو الذي يقوم بالتوقيع ليؤكِّد إمساكه بزمام الأمور في المملكة وأنّه يريد وضع حد للأمراء الآخرين في أن يعملوا كل ما يحلو لهم»[١] . في الوقت نفسه الذي قصقص فيه الملك أجنحة سلطان،أضعف شريكه الفرنسي شركة سوفريسا، التي لم تكن قريبة من قلب الملك، لأنها كانت تأتي بالفائدة على أخيه غير الشقيق. ومن محاسن الصدف أنّ الرئيس الفرنسي الجديد نيكولا ساركوزي، لم يكن هو الآخر من عشاق شركة سوفريسا «حيث يوجد لساركوزي حساب قديم مع هذه الشركة، التي من خلالها همّشه جاك شيراك حينما كان ساركو وزيراً لداخليته بكل ما يخص المملكة العربية السعودية»[٢].

سأل ساركوزي الملك عبد الله، في أثناء زيارته الرسمية الأولى عام ٢٠٠٨،« ما رأيكم بشركة سوفريسا ؟ « أجابه الملك بإشارة مُلغّزة بيده وهو يهزها، وأصابعه متباعدة عن بعضها بعضاً. فما أراد قوله بهذه الإشارة ؟

---

(١) مقابلة مع أحد المؤلفين في الرياض أجراها العقيد هيرفيديمسو (Herve Dumousseau**)** – الملحق العسكري – ٩ آذار – ٢٠٠٩ .

(٢) لقاء أجراه أحد المؤلفين مع أحد العسكريين المُطّلِع جيداً على أمور السعودية – باريس – ١٧ آذار – ٢٠١٥.

دارت التساؤلات في حاشية ساركوزي، وذكر شاهد على هذه الزيارة: « أتذكر جيداً، حيث كنت مقيماً في الطابق السفلي للطابق الذي يجري فيه اللقاء، وفي أثناء خروج أعضاء الوفد الفرنسي من المصعد، سمعتهم يسألون بعضهم بعضاً:« ماذا فهمت؟ إلى ماذا ترمز إشارة عبد الله؟»، وأتذكر جيداً أن الجواب كان على الشكل الآتي:

« حسناً، ربما يجب ... وأنت ماذا تقول ؟»[1] .

باختصار، لم يعد بالإمكان معرفة ماذا تفكر الطبقة العليا، مع أن الرسالة على درجة من الوضوح: « لا ينطق السعودي مطلقاً بنعم واضحة أو بلا، ولكن مجرد القيام بهذه الحركة، يريد الملك عبد الله أن يقول «انتهى أمر سوفريسا« لكن هذه الرسالة لم تُفهم».

قالها متأسفاً السيد جاك بورجوا (Jackques Bourgeois) ممثل شركة إيرباص (Airbus) والمقيم في الرياض منذ خمسة عشر عاماً.

سيرتكب الفرنسيون خطأً كبيراً باستبدالهم سوفريسا بشركة أوداس، لكن تغيير الاسم لا يخدع السعوديين .

في حاشية الملك عبد الله« كان السعوديون ينتظرون قطيعة كاملة مع الفريق الذي كان مرتبطاً مع الأمير سلطان، وهم يرون أن مجرد تغيير الاسم فقط، يعني الاستهزاء بهم، وبما أن ذاكرة البدو تستمر لخمسة أجيال فلذلك يجب الانتظار طويلاً لكي تُنسى حماقاتنا، هكذا شرح الواقع جاك بورجوا. إنّ الخطأ الأكبر الذي ارتكبناه هو الاستمرار بلعب كرت ابن سلطان خالد بن سلطان، وذلك حتى النهاية، لأن الملك عبد الله، ورئيس مكتبه الملكي خالد التويجري استقبحوا ذلك كثيراً» .

---

(١) لقاء مع أحد المؤلفين أجراه أحد الدبلوماسيين في الوفد المرافق لساركوزي في زيارته إلى الرياض – باريس ١٤ أيار ٢٠١٥.

في الواقع،حتى ولو بقي في ذلك الوقت خالد بن سلطان وزيراً للدفاع فإنّ القرارات أصبحت بيد الملك عبد الله .

هناك شركة فرنسية صغيرة الحجم أدركت ذلك منذ وقت طويل ولكن تعمل بصمت؛ تُدعى هذه الشركة قيصر إنترناشيونال(Cesar International) وهي لا تبيع معداتها في مجال المدفعية إلّا إلى الحرس الوطني الذي يقوده ابن الملك عبد الله الأمير متعب .

لقد أنشأ مديرا الشركة، جورج فرانسيولي (George Francioli)، وهو من مدينة نيس الفرنسية، والبلجيكي باتريك بيرتراند (Patrich Bertrand) مقراً للشركة في البحرين(١)، المملكة المجاورة للسعودية .

« إنهم أناس منظمون، ليس لديهم سوى الحرس الوطني عميلاً، أي الأمير متعب قناةً للرشوة »، قال متهكماً عميلنا السابق في الاستخبارات.

علينا استخلاص الدروس إذا ما أردنا أن نقوم بأعمال كبيرة مع السعودية: يجب تحديد اختصاصات «الحوانيت» التي نرغب في التفاوض معها. وهذا يعني ضمنياً: أنه لا يمكن توقيع عقود مع حاشية الملك مع أيّ جهة موسومة بقربها من أمير مزاحم. والعكس بالعكس صحيح .

استطعنا، طيلة بحثنا، التوصل إلى ملاحظة مهمة وهي كم هو صعب ومعقد الوصول إلى شبكة معلومات؟! «يوجد في فرنسا جيل يعرف جيداً السعودية؛ ولكن وباعتبار أن مجلس الوزراء يتغير عندنا كل ثلاث سنوات، لا يوجد نقل طبيعيّ للمعلومات»، يأسف جاك بورجوا.

---

(١) اشتغل في شركة قيصر إنترناسيونال إيمانويل بيل (Emmanuel Bel) وكان قد عمل مساعداً للسفير الفرنسي في الرياض . يتهكم بعضهم في الحديث عن الشركة بأنها مزيج من الأصناف التعيسة . « لا يمكن الحديث عن قيصر، باح لنا بهذا السر أحد الصناعيين ، لأن ذلك يتضمن أفلاكاً مختلفة ومستترة تماماً في محيط الشبكات الاعتيادية ».

يتمتع السعوديون، كما رأينا سابقاً بذاكرة بعيدة المدى «أجريت عملية حسابية بسيطة،استودعنا سراً جاك بورجوا،احتفظ الأمير سلطان بمنصبه وزيراً للدفاع طيلة ثلاثة وأربعين عاماً، في حين أن متوسط مدة بقاء نظرائه في فرنسا هو ثمانية عشر شهراً. ومقابل وزير الداخلية السعودي الأمير نايف الذي بقي على رأس وزارته أربعين عاماً ونيف، فإن متوسط المدة التي يبقى فيها نظيره الفرنسي لا تزيد عن أحد عشر شهراً. فمن يملك القدرة على فهم العلاقة مع فرنسا ؟ إنهم بدون أدنى شك السعوديون ».

يبدو أن السعوديين قد فقدوا الثقة بالجهاز الفرنسي القائم على مؤسسات التصدير المتخصصة بالمملكة العربية السعودية، وذلك على الرغم من التوافق السعودي – الفرنسي على الصعيد الدبلوماسي في العديد من القضايا.

«عليكم أن تفهموا أننا تغيرنا، أعلنها صراحة ذات يوم خالد بن سلطان في لقاء مع السفير الفرنسي في الرياض آنذاك برنارد بوليتي (Bernard Poletti). لم يعد بإمكانكم التحدث معنا بلهجة متعجرفة: « نقدم لكم عرضاً لعقد ما، فيقوم رئيس الجمهورية بالاتصال مع الملك، وتنتهي الأمور بالاتفاق » هكذا كانت تسير الأمور أما من الآن فصاعداً فسنخضع إلى دفتر شروط»؛ إنّ اللبيب من الإشارة يفهم .

تورط ساركوزي في السعودية

مما لا شك فيه أنّ الفرنسيين تعوزهم البراعة أحياناً في التعامل مع سوق الخليج.«لكنَّ السعوديين يعبّرون في معظم الأحيان عن عقوق، هذا ما أسف له شاهد مُطّلِع عن كثب على مجريات الأمور، وذلك على الرغم من كل ما قدمناه لهم من عرابين المحبة المتعددة».أضاف هذا الشاهد الذي ركّز بشكل خاص على فترة رئاسة نيكولا ساركوزي ما بين ٢٠٠٧- ٢٠١٢، التي قام خلالها بما لا يقل عن ثلاث زيارات للمملكة العربية السعودية .

شنّ الثوار الحوثيون عام ٢٠٠٩ هجوماً على أراضي المملكة العربية السعودية في منطقة العسير انطلاقاً من معاقلهم في الشمال اليمني. هذا وتتهم السعودية الحوثيين بأنهم مدعومين من عدوها إيران، فعبّرت عن حاجتها لصور من الأقمار الصناعية لتحديد الأهداف التي ستقوم بضربها داخل اليمن. من الطبيعي أن تتقدم السعودية أولاً بطلب إلى حليفتها وحاميتها الولايات المتحدة الأميركية إذ تعجّ مكاتب هيئة أركان الجيش السعودي بالمستشارين الأميركيين، لكن واشنطن تعرف جيداً المواصفات الوضيعة للطيارين السعوديين، والبنتاغون الذي يخشى وقوع ضحايا مدنيين، فكان الجواب برفض الطلب السعودي. استدارت السعودية بوجهتها بعد الرفض الأميركي، تجاه باريس، حيث استجاب ساركوزي للطلب السعودي وانطلاقاً من مركز كراي (Creil)، تقوم إدارة

الاستخبارات العسكرية بإرسال صور الأقمار الصناعية إلى السعوديين. لكن افتتاحية جريدة الواشنطن بوست عام ٢٠١٠ بقلم دافيد إينيا تيوس (David Ignatius) كشفت أن هذا ليس سوى القشرة السطحية لجبل الجليد .

أدلى عسكري فرنسي، شاهد على المساعدة التي تقدمها فرنسا للسعودية، بشهادته قائلاً: « تمّ تنفيذ طلعات لطيران استطلاع لمواقع الحوثيين مخالفة للقانون الدولي وذلك بواسطة طائرات حربية تقلع من الإمارات العربية المتحدة أو من فرنسا. تحلق هذه الطائرات فوق اليمن على ارتفاع منخفض لرسم صور لأهداف يتم تسجيلها على CD (سيدي روم) وتنقل مباشرة إلى رئيس هيئة الأركان البحرية السعودية على متن حاملة الطائرات الفرنسية؛ وبعد كل هذا هل تعتقدون أن السعوديين قدّروا لنا هذه المساعدة القيمة ؟ الجواب كلّا».

لكنّ الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، فلقد ذهبت فرنسا، بدعمها للحرب السعودية ضد الحوثيين، أبعد من ذلك بكثير، وبحسب صناعي فرنسي: «احتاج السعوديون، عام ٢٠٠٩، إلى ما يسمى بالجواذب، أي معدات للطائرات المطاردة كي تستطيع توجيه ضرباتها على الأهداف. وهي عبارة عن أجهزة إرسال يقوم عملاء متسللون بوضعها على أرض العدو.إنّ من يعطي الأمر بتقديم هذه المعدات المتطورة جداً هو رئيس الجمهورية. وقد أجاب نيكولا ساركوزي فوراً بالإيجاب للطلب السعودي. استأجر السعوديون عدداً من اليمنيين للقيام بعملية نصب أجهزة الإرسال التي تم تقديمها بعد الضوء الأخضر الذي أعطاه ساركو، فأعطت المساعدة الفرنسية أُكُلها في مواجهة المتمردين اليمنيين ».

تابعت فرنسا تحت إدارة فرانسوا هولاند قيامها بطلعات استكشافية فوق المواقع الحوثية التي تقوم السعودية بقصفها منذ شهر آذار ٢٠١٥.

« نقدم لهم أيضاً أجهزة لاستطلاع الأهداف، أي كاميرات متطورة جداً تثبّت في أسفل الطائرات الحربية»، هذا ما أكده خبير عسكري في باريس.

ذهب ضابط كبير خمسة نجوم إلى أبعد من ذلك حينما قال: « نحن ندعم في اليمن شكلاً من أشكال المجزرة التي ترتكبها المملكة العربية السعودية بحق اليمنيين وأكثر من (نصف عدد الضحايا الذي بلغ سبعة آلاف وخمسمئة جراء القصف السعودي هم مدنيون). وبهذا يمكننا القول إن فرنسا شريك حرب بتزويدها للسعودية بهذه الأسلحة وبتنفيذها أيضاً لمهمات استطلاعية لتشكيل سجل من الأهداف ليس فقط عن طريق الأقمار الصناعية إنما بواسطة الطائرات أيضاً ».

لم يؤرق قط هذا الدعم،الذي بقدر ما هو مميز هو حذر، دبلوماسيتنا.

« عندما التقى الوزير لوران فابيوس نظيره السعودي عادل جبير، لم يأخذ الحديث عن اليمن ثلاث أو أربع دقائق فقط خلال كل اللقاء، «قالها بحسرة موظف حاضرٌ في قلب الحدث مضيفاً: « مع أنه تم توجيه تحذيرات لفابيوس بخصوص تلافي السعودية ضرب مواقع للقاعدة طيلة عام بكامله في منطقة المكلّا، جنوب اليمن، لكن لم ينبس فابيوس ببنت شفة. بينما عندما حضر الوزير الألماني إلى الرياض تم تخصيص لقاء بكامله للحديث مع نظيره السعودي عادل جبير عن حرب اليمن التي تمثل فشلاً ذريعاً للسعودية».باختصار يمكن القول وبشكل دائم إنّنا نفعل كل شيء لننال رضا حلفائنا .

عندما تم اقتحام السفارة السعودية في عاصمة تشاد نجامينا عام ٢٠٠٩ من قبل متمردين،هبّت فرنسا، مرة أخرى لنجدة حليفها السعودي. فشنّت هجوماً ليلياً نفذه كوماندوس من الوحدات الخاصة الفرنسية لتحرير الرهائن السعوديين المحتجزين من السفارة .« حرّر رجال قواتنا الخاصة

الدبلوماسيين السعوديين، غامروا بحياتهم، ومع هذا لم يصل حتى ولا رسالة شكر. أبداً لا شيء ».

وأخيراً، عندما حدثت عملية قرصنة ناقلة البترول السعودية العملاقة سيريس ستار (Cyrus Star) عرضت فرنسا خدماتها على الرياض بأن تقوم بعملية عسكرية لتحرير الناقلة نفذها أيضاً كوماندوس من القوات الخاصة، ولكن ومع أنّ ذلك على حساب جنودنا النخبة فالسعودية لم تجب عن العرض الفرنسي .

في معرض الحديث عن المساعدات الفرنسية،يجدر بنا إضافة ممارسة الضغط الذي كان يقوم به كل من نيكولا ساركوزي وكريستين لاغارد وزيرة الاقتصاد في عهد ساركوزي التي تلقى تقديراً كبيراً في الرياض، من أجل قبول السعودية عام ٢٠٠٨ في مجموعة العشرين، التي تضم في ناديها أقوى دول العالم.

وفي تعليق متحرر من الوهم لأحد الدبلوماسيين قال:« بصراحة تامة يمكننا القول إن فريق ساركو قدم كل شيء للسعوديين،قدمنا لهم ما لم يكن أي بلد مستعد لتقديمه، عرضنا عليهم أن رجالنا مستعدون للانخراط في الدفاع عنهم على الرغم من المخاطر. أين هي كلمات الشكر؟ أين هي العقود؟ في السعودية لا يكفون عن الحديث الذي يرددونه على أسماعك بشكل دائم عن شهر العسل مع فرنسا ... لكنّ الحقيقة هناك نكران للجميل بعد كل الذي قد حصل، والسؤال الذي يطرح نفسه ما الفائدة من كل هذا ؟ ».

يجيب بعضهم عن هذا التساؤل بأنّ السبب في ذلك هو أن شركاءنا السعوديين يعتبروننا تحصيل حاصل:«لأننا لسنا قوة كبيرة، ففي الرسائل الأميركية الموجّهة للسعوديين، والتي ما كان عليَّ أن أقرأها بخصوص العقود الكبرى التي يجري التفاوض حولها،إنّ الجملة الأولى التي يكتبها وزير خارجية الولايات المتحدة هي:« أحثكم على شراء» في حين أننا نحن

الفرنسيين نقول جملتنا الأولى: «من فضلكم سيدي» ... أجل يوجد خلل حقيقي وكامل في الأداء الدبلوماسي[1].

أمّا عما يقوم به القادة السعوديون من فرض الانتظار على زائريهم الفرنسيين قبل استقبالهم في قصورهم فحدِّث ولا حرج. بالطبع ليس السعوديون فقط في الشرق الذين يجعلون زوارهم ينتظرون فصدام حسين وياسر عرفات كان يتلكأان أيضاً في استقبال ضيوفهم.

لقد حرَّرنا قائمة جرد غير كاملة بالتأكيد لوزراء ولرئيس جمهورية كان عليهم الانتظار طويلاً في الرياض أو في جدة في قصر الضيافة قبل أن يستقبلهم جلالة الملك.

انتظر دومنيك دوفيلبان، وزير الخارجية، سبع ساعات قبل استقبال الملك عبد الله له.

أما وزير الدفاع هيرفيموران (Herve Morin) فقد انتظر فقط ثلاث ساعات[2]. وكان على فيليب ماريني (Philippe Marini) الانتظار أربع ساعات وهو الرئيس السابق لمجموعة الصداقة الفرنسية – الخليجية في مجلس الشيوخ الفرنسي.

كما كان على جاك شيراك الانتظار عدة ساعات عام ٢٠٠٦ كي يتم استقباله من قبل الملك عبد الله. احتفظنا بالنهاية لنخصصها للزيارة الخاطفة التي قامت بها ميشيل آليو – ماري، وزيرة الدفاع في بدايات الألفين وكانت سيئة جداً، والسبب في ذلك هو الحماقة التي ارتكبتها ميشيل آليو -

---

(١) لقاء مع صناعي فرنسي في الرياض -١٧ نيسان ٢٠١٦.

(٢) جرت المحادثات جيداً بين مورين وخالد بن سلطان المكلّف شؤون الدفاع، حيث يشتركان في قاسم مشترك هو حب الخيول حتى إن الأمير متعب قدم لمورين جواداً ما يزال حتى الآن في مرابض الخيل الوطنية

ماري بإعطائها درساً للسعوديين، وبحسب شاهد عيان: «حطّت ميشيل آليو - ماري رحالها لأول زيارة لها يرافقها ثلة من معاوناتها النسائية وهذا ما أثار استياءً طفيفاً لدى السعوديين، ثم كانت الكلمة الأولى التي ألقتها ميشيل آليو - ماري تضمنت دعوة إلى إصلاح النظام التربوي في السعودية، مما استدعى رداً فورياً من الملك: عليكم أولاً أن تقوموا أنتم بإصلاح الإعلام عندكم! وبعد ذلك لم يستمر اللقاء سوى سبع دقائق،انتقلت بعد ذلك آليو - ماري للقاء نظيرها السعودي الأمير سلطان، وقبل وصولها إلى مقر الأمير سلطان، وصل الاتصال الهاتفي من الملك حيث كان التوجيه: قم بالحد الأدنى النقابي. فكان اللقاء مع سلطان أيضا سيئاً.وأخيراً وليس بآخر كان لوزيرة الدفاع الفرنسية موعداً مع الأمير خالد في الساعة الخامسة عشرة، لكن كان عليها الانتظار حتى الساعة السابعة عشرة ليتم استقبالها، وكما يقول المثل العربي «الصبر جميل» وخاصة مع الأمراء[1].

لقد فهمت ميشيل آليو - ماري الدرس، وستجري لقاءاتها اللاحقة جيداً إلى أن انتهى بها المطاف لكي يكون مُرحَّب بها في الرياض: «تعرفت الملك عبد الله منذ خمس عشرة سنة ونيِّف عندما كان قائداً للحرس الوطني، إذ كان يأتي لتلقي علاج بمياه البحر في مدينة بيارتز(Biarritz) أكدت آليو - ماري إلى أحد مؤلِّفي هذا الكتاب».

---

(١) كان القادة السعوديون، شأنهم في ذلك شأن القادة القطريين والإماراتيين ، يعتقدون أن على الإعلام الغربي أن يتغير ليصبح كالإعلام الموجود في بلادهم أي إعلام حسب الطلب.

عقد دوناس (Donas) مكيدة سعودية - فرنسية

دوناس هبة من المملكة العربية السعودية، مقدارها ثلاثة مليارات دولار، أخذت الهبة الصفة الرسمية بتاريخ ٢٦ كانون أول ٢٠١٣ في أثناء الزيارة التي قام بها الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند إلى الرياض. خُصِّصت هذه الهبة لشراء معدات وتجهيزات عسكرية فرنسية لصالح الجيش اللبناني. أرادت السعودية،بهذه الهبة،أن تكافئ فرنسا على مواقفها الدبلوماسية في منطقة الشرق الأوسط، وأن تعزِّز قدرات الجيش اللبناني الهش،باعتباره المؤسسة اللبنانية الوحيدة التي بقيت بمنأى عن النزاعات السرمدية بين الأطياف اللبنانية التي تتقاسم السلطة،باختصار الكلّ رابح. هذا على الصعيد النظري، أما في الواقع فقد تحولت هذه الهبة إلى مسلسل لا نهاية له مليء بالمفاجآت .

بداية إنّ هذه الهبة محاربة منذ ولادتها، فعندما قام فرانسوا هولاند بزيارته إلى الرياض في السادس والعشرين من شهر كانون أول ٢٠١٣، لم يكن الهدف منها توقيع عقد بخصوص الهبة، ولكن كان الهدف توقيع عقد آخر عقد م ك٣ (MK3) لصالح شركة تاليس الفرنسية ومقداره خمسة مليارات يورو،الذي تجري المفاوضات حوله منذ أربع سنوات، ويتضمن تزويد السعودية برادارات ضرورية للدفاع الجوي في المملكة. لقد حققت المفاوضات تقدماً كبيراً حيث تم توقيع الاتفاق بالأحرف الأولى، ولم يبق سوى توقيع الملك عبد الله .

حضر إلى فرنسا مدير المكتب الملكي النافذ خالد التو يجري يومي السادس عشر والسابع عشر من كانون الأول، وذلك للتحضير للزيارة المهمّة للرئيس الفرنسي إلى السعودية.

«تطرّق الرئيس هولاند إلى موضوع MK3 في أثناء لقائه مع التويجري الذي أجابه بحسب ما ذكر ممثل من شركة تاليس، بأنَّ التويجري ليس على علم بهذا الموضوع،وإنّ هذا العقد من اختصاص وزارة الدفاع السعودية مضيفاً أنه في مطلق الأحوال لم يعد يشكل أولوية ». حمّل فرانسوا هولاند في ختام اللقاء، حاجب الملك رسالة موجهة إلى العاهل السعودي عبد الله المنهك الذي يوشك عهده على الانتهاء.

يقول في هذه الرسالة: « يا صاحب الجلالة،أودُّ أن ألفت عنايتكم إلى نقطة تحتل في نظري أهمية خاصة، وهي مشروع MK3 الذي يتعلق بالدفاع الجوي.

أصبح هذا العقد جاهزاً للتوقيع إذا سمحت جلالتكم بذلك. وسيكون هذا التوقيع شاهداً حقيقياً على التزامنا المشترك من أجل السلام والأمن في منطقة الشرق الأوسط، ودليلاً على التعاون المشترك، الذي توليه جلالتكم كما أنا أهمية خاصة . لذلك سأكون ممتناً لجلالتكم لو اتخذتم القرارات بخصوص هذا الموضوع ».

لم يتأخر جواب المكتب الملكي أكثر من عدة أيام أُرسِل إلى السفير الفرنسي في الرياض بيرتراند بوزانسونو: «ترغب وزارة الدفاع السعودية شطب الموضوع الذي يتعلق بـ MK3 من جدول أعمال زيارة فرانسوا هولاند». أثار هذا الرفض ذهولاً في شركة تاليس

«هل سيقبل فرانسوا هولاند هذا الرفض؟»، تساءل أحد كبار الموظفين المعنيين بالمشروع. الأنكى من ذلك أنّ وزارة الدفاع السعودية نفسها قامت بتخصيص مبلغ من المال لشراء نظام رادارات من شركة

أميركية منافسة هو نظام الباتريوت (Patriot) .«أيكون الملك فقط على علم؟ وهل الحاجب النافذ جداً اختصر الطريق على عبد الله ؟» دارت هذه التساؤلات في أوساط شركة تاليس،واعتمدت على فرانسوا هولاند إثارة موضوع MK3 خلال اللقاء الثنائي الذي سيجمعه مع الملك السعودي.

عبثاً تسعى! عاد الرئيس أدراجه من الرياض حاملاً معه سيفاً قدمه له الملك، وهذا ما بعث المرارة، على متن طائرة العودة، في نفس جان برنارد ليفي مدير شركة تاليس، وما زال، وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، خليفة ليفي وهو باتريس كين ينتظر توقيع العقد الشهير. ولكي يهدئ الملك من روع الرئيس هولاند أخرج من تحت كوفيته جائزة ترضية هي الهبة (Le danas).

لم يتأخر فريق من العسكريين الفرنسيين بالوصول فوراً إلى بيروت لتحديد حاجات الجيش اللبناني مع شركائهم المحليين، ولكن سرعان ما عرقل المسؤولون السعوديون تقدم المباحثات حول الصفقة. فبعد رحيل الملك عبد الله إلى العالم الآخر وتولي الملك سلمان العرش بداية عام ٢٠١٥، تضاعفت الخلافات.

وقد نقل عسكري فرنسي من قلب النقاشات : « يحرص الفريق الجديد على رأس السلطة السعودية والمحيط بـ محمد بن سلمان، ابن الملك، على احتكار العقود التي سبق أن تمّ التفاوض عليها من قبل فريق الملك عبد الله وخالد التويجري. ولكن ما يؤرق السعوديين دائماً هو الهاجس تجاه شيعة لبنان المتهمين من قبل السعودية بإنشاء خلايا في الجيش اللبناني تعمل لصالح حزب الله . فبالنسبة إلى السعوديين تقديم أسلحة للجيش اللبناني من شأنه تعزيز قوة حزب الله .

ومن جهة أخرى، تضغط إسرائيل كي لا يتم تزويد الجيش اللبناني بأسلحة قد تقع في أيدي حزب الله الذي يمارس في الجيش نفوذاً قوياً من

خلال الاستخبارات العسكرية. باختصار فإنّ سجل المشتريات يطرح إشكالية متعددة الجوانب. لقد حرصت الرياض - ومن قبيل الاحتراس - أن تدون بنداً في العقد يحفظ لها حقها في إيقاف الصفقة، تنفذه في أيّ لحظة تراها مناسبة وحسب إرادتها.

عند نهاية ٢٠١٥ يكون قد انقضى عامان على إعلان عبد الله، ولم يُدفَع، من أصل ثلاثة مليارات دولار الموعودة،سوى أربعمئة وخمس وعشرين ألف يورو سلفة. وفي باريس يملّ صبر مصنعي السلاح: « فقد طُلِب إليهم الإسراع بإنتاج أنواع محددة من المعدات، وقاموا بالتنفيذ مباشرة، ومنذ ذلك الوقت أدار السعوديون ظهورهم من دون أي تواصل »انفجر غاضباً بهذه الكلمات شاهدنا. إلّا أنّ السعوديين قاموا بتاريخ الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول ٢٠١٥ بدفع سلفة أخرى.أوف ! يا له من تسكين ! أجل إنّه تسكين مؤقت باعتبار أنّ مسألة نقل السلاح إلى حزب الله مطروحة دائماً كعائق» .

أضف إلى ذلك غضبت السعودية من قرار لبنان بعدم التصويت إلى جانب الدول العربية بخصوص تصنيف حزب الله كحركة إرهابية. جاء هذا القرار للقمة العربية على خلفية الهجوم على السفارة السعودية بإيران،وذلك على إثر إعدام سبع وأربعين سجيناً بينهم الزعيم الشيعي السعودي النافذ الشيخ نمر النمر من قبل الرياض.

حدث تصعيد جديد في هذا الموضوع في شهر آذار، حيث أعلن الأمير محمد بن سلمان بأن المليارات الثلاثة لن تذهب لتجهيز الجيش اللبناني، إنما ستُستَخدم لتزويد الجيش السعودي بما يلزمه من معدات.

إنّه الانهيار الكامل للعسكريين والدبلوماسيين والصناعيين الفرنسيين الذين ما برحوا يعملون على مشروع «الهبة» منذ أكثر من عامين. « خاصة وأننا نعمل عملاً منتظماً مع الجانب اللبناني بمعدات محددة، يذكر شاهدنا:

لا يمكن إعادة بيعها إلى السعوديين كما هي، يجب إذن إعادة التفاوض من جديد لتحديد حاجة الجيش السعودي ». تولّد لدى الفرنسيين شعورٌ بأنّ السعوديين حوّلوا الفرنسيين إلى جواد رديء.

حصل حادث مؤسف جديد كان من شأنه أن يسمِّم الوضع أكثر مما كان عليه، إذ إن محمد بن سلمان لا يوّد رؤية شركة أوداس كوسيط للتفاوض حول عقود التسليح بين فرنسا وبلده السعودية، لأنه يحرص على أن تكون العلاقة بين صناعة وصناعة. بإمكان شركةأوداس العمل على الأرض السعودية، لكن ليس كممثل للصناعات العسكرية الفرنسية، وبالنسبة لوزارة الدفاع السعودية فقد أصبح ممثل هذه الشركة شخصاً غير مرغوب فيه على الأرض السعودية. إنّ هذا التغيير على درجة كبيرة من الأهمية وذلك نظراً للدور الذي أدّته في هندسة العلاقة الفرنسية – السعودية والتي تعود إلى أربعين عاماً على صعيد عقود التسليح. كل ذلك سيكون مطروحاً على ساحة البحث من جديد . وسنعود مرة أخرى إلى قضايا الأنابيب، من أوداس إلى سوفريسا إلى فريق الأمير سلطان المنافس لفريق محمد بن سلمان، ويرغب هذا الأخير بتغيير «الأنابيب» من علاقاته مع فرنسا لتحلّ محلها أنابيبه الخاصة. وفي رسالة خطية وجهها رئيس الدبلوماسية السعودية سعود الفيصل إلى نظيره الفرنسي لورانس فابيوس،عبَّر أن الفقرة الثانية من الاتفاق الفرنسي – السعودي الموقّع في سبعينيات القرن الماضي باطلة.

وقعت الرسالة كالصاعقة على رؤوس أعضاء المجمع العسكري- الصناعي، وراحوا يتساءلون أيضاً وأيضاً. لماذا كل هذا الجفاء الذي لم يكن هناك دلائل تُنذِر به ؟

ألمح بعضهم إلى إمكانية أن يكون هناك غدر أو دسيسة من بعض المنافسين الفرنسيين المرتبطين ببعض الأمراء السعوديين المزعوجين من عزم

محمد بن سلمان على الإمساك بزمام الأمور في السلطة. وفي آخر الأخبار تم بالفعل استبعاد أوداس استبعاداً كاملاً.

ما زالت حاجات الجيش السعودي قيد الدرس. أمّا فيما يتعلق بعقد دوناس فقد تغير اسمه ليصبح العقد العسكري السعودي – الفرنسي.

قد يُخفِي هذا العقد الشهير دوناس أيضاً قضية غامضة تتعلق بالعمولات السابقة.عمولات موزعة بين اليسار واليمين، قبل الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٧ .

لقد أرشدنا على الطريق الصحيح أحد الصناعيين الذي انسحب من المفاوضات عندما اكتشفت شركته أسراراً عن العمولات.

بحسب هذا الصناعي، في الدوناس«تتوارى العمولات خلف عقد صيانة بمبلغ أولي سبعمئة مليون يورو تقريباً ، وهي مخفية داخل ما يسمى في لغة المهنيين، عقد صيانة بظروف عملياتية (mco). تُخفَى العمولات،عامّة، في القسم المخصص للصيانة، وذلك بسبب المرونة فيما يتعلق بعدد الساعات التي يُزعم أنها ضرورية لصيانة التجهيزات. يُدار عقد (mco) من قبل شركة صغيرة اسمها إينيوديفانس. نحن متأكدون مئة في المئة لماذا تم زجّ شركة إينيوديفانس في عقد بهذا المبلغ . بدا لنا هذا مباشرة مثيراً للريبة. بحثنا قليلاً فعثرنا على الجواب. وعلى هذا الأساس قرّر مديرونا الانسحاب كشركاء في قسم الصيانة في دوناس».

تصدّر الواجهة وسيطان، الأول مدير شركة إينيوديفانس، والثاني موظف كبير سابق في شركة تاليس الذي يتملك شركة خاصة للاستشارات. يرتبط واحد منهما ارتباطا قوياً باللوبي الماسوني القوي في وزارة الدفاع، وهو مقرّب من مدير إدارة التسليح الحالي لوران – كولي بيون (Laurent Collet- Billon). أمّا بالنسبة إلى الوسيط الآخر فقد ظهر اسمه في الصحافة اللبنانية في أثناء المفاوضات حول الهبة، كمقرّب من الأوساط

الأمنية الإسرائيلية . إنّ الشخص الذي يُشرِف على العقد هو الأميرال جان لويس غييو (Jean – Louis Guillaud)،الذي شغل منصب قائد الأركان العامة إبان عهد نيكولا ساركوزي.

كشف أحد المفاوضين في عقد الدوناس: « أكّد لي اللواء قهوجي قائد الجيش اللبناني أنّه قد اتصل بالأميرال غييو ليخبر بأنّه علم من الاستخبارات السعودية أنّ أحد وسطائه الذي يُشارك في عقد الدوناس سبق له وأن خدم في الجيش الإسرائيلي.

« أجاب غييو بآه متعجباً، وأضاف حسناً سأتحقق من الموضوع ».

جاء الجواب للواء قهوجي بعد أسبوع من الأميرال غييو أنّ هذا الأمر عارٍ عن الصحة.

تحوم شكوك حول شركة إينيوديفانس بأنّها هي التي استحوذت على العمولات المخفية لصالح المرشح الاشتراكي لرئاسة الجمهورية، بينما يعمل الموظف السابق في شركة تاليس لحساب مرشح المعارضة. نجهل قيمة مبلغ العمولات المخفية لكن إجمالاً، وحسب المعايير المعتمدة، تتراوح العمولة في أي عقد ما بين ٥ و ١٠ % .

المملكة العربية السعودية
هي المصدِّر العالمي الأول للسلفية

على غرار ليون كامبيتا (Leon Gambetta) الذي حارب الأكليروسية ومبادئها في عهد الجمهورية الثالثة، هاهي السلفية[1]! إنّها العدو!

ها هو اليوم رئيس الوزراء الفرنسي مانويل فالز، الذي كان يرافع، قبل بضعة أشهر في الرياض ، كما لو كان الوكيل والممثل والوسيط لها في فرنسا، لم يوفر أيّ كلمة قاسية لإدانة هذا الشكل المتشدِّد للإسلام الذي تشكل السعودية معقله.« أجل إنَّ السلفية التي دمّرت وأفسدت جزءاً من العالم الإسلامي، هي خطر على المسلمين أنفسهم، كما هي خطر على فرنسا أيضاً... يجب شن حرب بلا هوادة في كل مكان في الجوامع، في الأحياء، وفي البيوت بكل صراحة ووضوح»[2] .

---

(١) السلفية تيارٌ يدعو للعودة إلى مصادر الإسلام الأصلية ، والمرجعية الكبرى لها هي الطريقة كما فهمها المسلمون الأوائل – السلف الصالح – وكما طبقوها في السعودية بالقرن السابع الميلادي . يمكننا تمييز ثلاثة أشكال رئيسة للسلفية :
أ - الطمأنينة (مذهب تصوُّفي يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكون الروح .
ب – الإصلاحية. ج - الجهادية
تتميز الجهادية عن الشكلين السابقين بأنها شرعت العنف.

(٢) إعلان مانويل فالز في الجمعية الوطنية خلال اجتماع خُصِّص لمساءلة الحكومة بتاريخ ٢٠ – تموز – ٢٠١٦.

يتهم عدد كبير من الطبقة السياسية المملكة الوهابية بتأمين الأدوات والغطاء الإيديولوجي المسؤول عن كل أو على الأقل عن جزء كبير من تطرُّف عدد من الشباب المسلمين الفرنسيين.

ردّت السلطات السعودية بأنّ المرشحين للجهاد، أو أولئك الذين نفذوا عمليات كتلك التي حصلت في مدينة نيس أو سانت إيتيان دو روفري، هم منتج حقيقي للمجتمع الفرنسي وللمدرسة العلمانيّة: «لم نستوعب لماذا فرانسوا هولاند ومانويل فالز يوجهان الاتهام للإسلام وللوهابية وللسعودية بأنهم وراء كل ما يحدث عندكم من مشاكل». هذا ما أباح به مقرّب من ولي ولي العهد السعودي محمد بن سلمان[1]. باختصار شديد، يجب القول إنّ كل طرف يلقي الكرة في ملعب الآخر.

ليس مستغرباً إذن، وفي هذا السياق حيث السعودية هي كبش فداء مناسب، أن يستشيط رئيس إقليم باكا وعمدة نيس السابق كريستيان إيستوروزي (Christian Estrosi) غضباً عندما علم بمشروع بناء جامع يموّله المال السعودي، وكان ذلك قبل تفجيرات الرابع عشر من تموز ٢٠١٦ على رصيف البرمونادديز أنكلي (La Promenade des Anglais)أي (نزهة الإنكليز) وما يعزِّز ضرورة إبطال هذا المشروع أكثر، هو أنّ محرك هذا المشروع ليس أي شخص عادي، إنما هو وزير الشؤون الدينية في المملكة العربية السعودية الشيخ صلاح الشيخ.

لقد فوجئنا، خلال قيامنا بهذا البحث، باكتشاف مهم هو أن الشيخ صلاح سيقوم بتسديد فاتورة مكان العبادة المستقبلي من ماله الخاص.

«موّل هذا المشروع من جيبه الشخصي»، كشف لنا هذا السر السفير السعودي في باريس خالد الأنكاري.

عندما أخبرنا عدداً من دبلوماسي وزارة الخارجية الفرنسية بهذا المشروع أصابهم الذهول وكأنما وقع الطير على رؤوسهم. استحوذ الوزير

السعودي،في الواقع، على الأرض عام ٢٠٠٢،وعبَّر عن رغبته اليوم في تحويلها إلى مركز إسلامي.أن يقوم وزير أجنبي، - وليس أي وزير، فهو وزيرٌ للشؤون الدينية - بإنشاء جامع بماله الخاص في منطقة الكوت دازير (La Cote d Azur)، إنّه لأمر فيه اختلال.

لقد أكّد خالد الأنكاري بأن:« الحكومة السعودية ليس لها أي علاقة مع مشروع نيس، ولا نرغب في التدخل في هذا الملف.وقد التقيت شخصياً بكريستيان إيستوروزي وتفهّم موقفنا الذي نريده مطابقاً للشرعية»[1]. لكن وعلى الرغم من كل هذا، عبّر لنا السفير إيماءً بنوع من الإحراج نظراً لهوية صاحب مكان العبادة هذا.ما يميّز التمويل السعودي لإسلام فرنسا، على قلته، هو عدم الشفافية الواضحة كما حصل مثلاً في نيس. سنحاول الرجوع حتى النبع للوقوف على حقيقة الأمور بشكل واضح مع الأخذ بالحسبان أنّ المسؤولين في المملكة ليسوا مهذارين حول هذا الموضوع الحسّاس.

---

(١) لقاء مع المؤلفين – باريس – ٢٧ تموز ٢٠١٦.

التوزع الجغرافي للتمويل السعودي للجوامع في فرنسا

أكّد السفير السعودي في باريس خالد الأنكاري، خلال استجوابه أمام لجنة من مجلس الشيوخ الفرنسي أنّ بلاده موّلت رسمياً ثمانية جوامع على الأراضي الفرنسية(١). وبيّن أنّ المساعدات السعودية « تراوحت ما بين مئتي ألف وتسعمئة ألف يورو لكلّ مشروع» وهكذا بلغ المجموع الإجمالي للمبالغ التي دفعتها السعودية حتى عام ٢٠١١ حوالي ثلاثة ملايين وثمانمئة ألف يورو(٢). خلافاً للفكرة الشائعة، لم تقم السعودية أبداً بإرسال أي إمام لتعليم الدين في الجوامع التي قامت بإنشائها في فرنسا، اللهم ما عدا شهر رمضان حيث يتم دعوة عدد من منشدي القرآن رسمياً. « لا يهم السلطات السعودية إرسال مبشرين، لكن هذا لا يعفيها من أن تقوم بتصدير الوهابية إلى أصقاع الدنيا كافة» وصل إلى هذا التحليل برنارد غودار وهو موظف سابق في وزارة الداخلية الفرنسية ومسؤول عن ملف العبادة الإسلامية(٣).

---

(١) دفع المغرب ، من جهته ، عام ٢٠١٦ ستة ملايين يورو، والجزائر مليوني يورو.

(٢) تم نشر المبلغ في تقرير لجنة الإعلام في مجلس الشيوخ حول المنظمة والمكان وتمويل الإسلام وأماكن العبادة في فرنسا. تقع الجوامع التي قامت السعودية بتمويلها في مدن آينير، ستراسبورغ ، نانت لا جولي ، سيرجي ،نانتير، سانت دوني وجيفور.

(٣) المسألة الإسلامية في فرنسا – برنارد ودار - أيار – ٢٠١٦.

وبالمقابل تقوم المملكة بتأهيل مبشرين فرنسيين في جامعاتها الإسلامية. وبحسب الأرقام الرسمية يوجد أربعة عشر إماماً على الأراضي الفرنسية من خريجي كليات سعودية يتم دفع رواتب لهم إمّا من السعودية وإمّا من خلال الرابطة الإسلامية.وقد بيّن عبد الله الفالح، المستشار الديني في السفارة السعودية منذ ٢٠٠١، قائلاً: «ليس كل هؤلاء مبشرين فمعظمهم إمّا مدرسين وإمّا مربيين في المجال الاجتماعي».

إنّ السيد الفالح هو شخصية غامضة من مخرجات وزارة الشؤون الإسلامية، ويعرف خارطة توزع الجوامع على الأراضي الفرنسية كما يعرف أصابع يده، ولكنه لا يتحدث عنها إلّا ما ندر. «إنّه يقوم بعمل استخباري ديني ولمراكز النفوذ في فرنسا»، هذا ما ذكره وتذكّره دبلوماسي فرنسي رافق وفداً سعودياً مؤلفاً من أربعين عضواً في زيارة لفرنسا عام ٢٠٠٩. كان عبد الله الفالح ملازماً للوفد طيلة فترة الزيارة. قمنا بجولة على عدد من الجوامع في مدن، روان، شامبيري، ليون،كليرمونفيراند، وفي المنطقة الباريسية. أجرى الفالح خلال هذه الجولة العديد من الاتصالات وكان يعرف مع من يتصل في كل منطقة. وما يثير الانتباه هو أنّ أغلبية محدثيه يأتون إليه صاغرين كعبيد له، إنّه غير قادر على التحدث باللغة الفرنسية ولو بكلمة واحدة مع أنه مضى على إقامته في فرنسا خمسة عشر عاماً.كانت دولتا المغرب والجزائر القوتين المؤثرتين تاريخياً في إسلام فرنسا، بيد أنّ المال السعودي ساهم في بناء أغلب أكبر الجوامع فوق الأراضي الفرنسية، كما ساهم في أعمال الصيانة وتقديم الكتب إلى مكتبات الجوامع . تقدم السعودية أيضاً مساعدة شهرية للجامع الكبير في باريس لتسيير عمله[1]. «نساعد مسلمي

(١) العلاقة بين فرنسا والعربية السعودية من عام ١٩٦٧ حتى عام ٢٠١٢ – فيصل المجفل – دار طباعة لا رماتان، ٢٠١٤ .

فرنسا من أجل تحقيق هدف واحد هو تأمين أماكن عبادة لائقة، ونقوم بهذا من خلال تنسيق وثيق مع الجانب الفرنسي وتحت إشرافه»؛ هذا ما أكّده محمد ناجي مسؤول آخر عن الشؤون الدينية في السفارة السعودية في باريس[1]. يجب وضع هذه المساعدة لمسلمي فرنسا في إطار أكثر اتساعاً.

لكي تقوم بنقل الإسلام إلى الذريّة، أسست المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٢ في مكة الرابطة الإسلامية العالمية التي شكلت منذ ذلك التاريخ الذراع الديني للمملكة؛ كان الهدف من تأسيس هذه المنظمة التصدي للتيار القومي العربي الذي كان يتزعمه جمال عبد الناصر. ستقوم السعودية، بعد الانهيار المالي الذي حدث على أثر الصدمتين البتروليتين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٩، بتمويل الدعوى الإسلامية من خلال الرابطة لزيادة عددالجوامع والمراكز الإسلامية في جميع أنحاء العالم، وخاصة في أوروبا (بروكسل، فيينا، مدريد، لندن، جنيف ... إلخ).

أنشأت الرابطة في فرنسا مقرها الرئيس في الجامع الكبير بمنطقة مانت لاجولي. كان يتم تطبيق سياسة المساعدة في بناء الجوامع في ثمانينيات القرن الماضي، عبر السفارة السعودية والرابطة في باريس. «إنه العصر التي كانت السعودية تضخ فيه المال دون حساب إلى مسلمي فرنسا»؛ أكّد ذلك برنارد غودار؛ كان المال يتدفق غزيراً دون مراقبة حقيقية إذ موّل السعوديون بناء الجامع الكبير في مدينة إيفرى التي سيقوم على إدارتها ما بين عامي ٢٠٠١ و ٢٠١٢ مانويل فالز، وكان قد أُنجِز بناء هذا الجامع عام ١٩٩٤ بالتعاون مع المغرب.

حصلت واقعة كان من شأنها تثبيط عزيمة السعوديين وحماسهم في بسط أيديهم. فقد اكتشف السعوديون، إبان حرب الخليج عام ١٩٩١ أنّ الدول العربية التي تقدم السعودية لها المال ومختلف أنواع المساعدات، ولا سيما دول

---

(١) المرجع السابق ذاته.

المغرب العربي، تدعم صدام حسين الذي اجتاح الكويت، وأراد تقديم نفسه بطلاً للقضية الفلسطينية. اعتبرت الرياض هذا الدعم بمنزلة طعنة في الظهر، واستشاطت غضباً أمام هذا العقوق للبلدان العربية الشقيقة. وكنتيجة لهذا الوضع، لم يعد لدى السعوديين النية في تمويل جوامع بالسخاء نفسه الذي كان سابقاً. حيث ستفرض الرابطة الإسلامية، من الآن فصاعداً، تقديم فواتير نظامية يتم على أساسها الدفع، بينما ستقوم سفارة السعودية في باريس التي أصبحت أكثر حذراً واحترازاً بمضاعفة أعمال المراقبة .

تقوم السعودية اليوم بتمويل الجوامع على مستويات ثلاثة:

١- تمويل مباشر من خلال الحكومة السعودية، ومثال ذلك الجوامع الثمانية المشار إليها سابقاً.

٢- الصناديق الخاصة: التي يتم جمعها بالتنسيق مع السفارة السعودية في باريس.

٣- أخيراً الصناديق التي ليس للسلطات السعودية أيُّ علاقة بها، ومثال ذلك ما حصل في مدينة نيس. ها هنا تكمن نقطة الضعف فيه، ويوجد في هذه المجموعة الأخيرة جامع المدينة المنورة في مدينة كان (Cannes) الذي موّل بناءه كاملاً(أي مئة في المئة) السيد صالح كامل، مدير القناة التلفزيونية القرآنيّة (اقرأ) الذي يقطن في المدينة، وكان يرغب في إنشاء مكان للعبادة، قريب من منزله، وذلك من أجل الصلاة فيه.

لقد عزف رجل الأعمال السعودي على وتر الشفافية، وذلك من خلال إشراك برنارد بروشان، عمدة المدينة من ٢٠٠١ حتى ٢٠١٤ في مشروعه من دون أن يُظهر هذا الأخير أيّ معارضة، حتى إنه في ذلك الوقت، وكما يروي برنارد غودار، «اتصل بي مكتب السيد العمدة وأنا في وزارة الداخلية ليطلب مني إذا ما كنت أعرف إماماً أهلاً للقيام بأعمال القداسة في الجامع المذكور أعلاه. أجبت طبعاً بلا لأن ذلك لا يدخل في دائرة اختصاصي».

قام، أيضاً، أحد أقطاب الصحافة السعودية هشام حافظ ببناء جامع صغير بالقرب من الكروازيت (La Croisette) بمدينة كان حيث يأتي لقضاء عطلته.

هنا أيضاً بُنِيَ هذا الجامع بموافقة البلدية. وقام، وموّله بدراهمه الشخصية، وقد بلغت كلفته مئتين وخمسين ألف يورو. منحت إذن محافظة كان لاثنين من الأغنياء السعوديين الحق في أن يبني كل واحد منهما جامعه الخاص في المدينة، في حين أن السلطات المحلية الحالية تقوم بمنع الفرنسيات من ارتداء لباس البحر الكامل (قماط) على الشاطئ.

بالطبع لا يفوت على بعضهم أن يسجل عدم اتساق بين هذين القرارين.

هناك العديد من الجوامع في فرنسا، مُوّلت من الصناديق الخاصة السعودية، فجامع ليون قد بُني من خزينة الملك فهد الخاصة. وهناك جوامع قام بتمويلها رجال أعمال كما هي الحال في جامع مدينة ديجون. لا يجب أن ننسى دور بعض الأمراء الذين، هم أيضاً، يدفعون من مالهم الخاص على أمل أن ينالوا رضا الله عز وجل.

وهكذا مول عبد العزيز بن فهد الابن العاشر للملك فهد الذي يقيم في سويسرا الجوامع التي بُنيت في مدينتي إيفيان وتونون لي بان. يعيش الداعية السعودي الشهير عايد بن عبد الله القرني بحماية هذا الأمير فاحش الثراء، يهاجم هذا الداعية داعش وهو في الوقت نفسه ينتمي إلى إسلام فائق التشدد، وكان قد وصف اليهود بـ «أخوة القرود والخنازير»، وقد صدر بحق هذا الرجل قرار بمنع إقامته في فرنسا، وذلك في عهد نيكولا ساركوزي عام ٢٠١٢.

عزت السلطات السعودية مراقبة أعمال التمويل الدينية. هناك فرض في الدين الإسلامي يوجب أن يقوم كل مسلم بدفع الزكاة، وهي تحتل

المركز الثالث في أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادة والصلاة. يتم حساب مبلغ الزكاة بحسب دخل كل مسلم.

يبلغ ما يتمّ تحصيله سنويّاً في المملكة العربية السعوديّة نحو ثلاثة مليارات وستمئة مليون يورو، يتمّ إدراج هذا المبلغ في ميزانيّة الدولة السعوديّة. يعادل هذا المبلغ في عام ٢٠١٥ بالعملة المحلية أربعة عشر ملياراً وخمسمئة مليون ريال سعودي، أي بنسبة ١،٥% من الميزانيّة السعودية.

يُصار إلى توزيع ١٠% من هذه الصدقة خارج المملكة ولأعمال خيريّة[1]، وقد حرص السفير السعوديّ في باريس خالد الأنكاريّ على إيضاح هذه النقطة قائلاً: «لا يذهب هذا المال إلى تمويل أيّ جامع في الخارج».

«تخضع التمويلات اليوم لمراقبة صارمة من قبل الدولة السعوديّة على عكس ما كان يجري قبل عشرة أعوام، حيث كانت تسيطر الفوضى، هذا ما أكدّه لنا السيد عمّار الأصفر، مدير اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، أحد فروع حركة الإخوان المسلمين[2]. لكنْ وضع السعوديون حدّاً لهذه الفوضى وأصلحوا الأمور. سابقاً عندما كانت أيّ جمعية إسلاميّة فرنسية ترغب في أن تقوم السعودية بتمويلها، تسلِّم هذه الجمعية ملفّاً إلى السفارة السعوديّة في باريس – مكتب المستشار للشؤون الدينية، ثم يُنقل الملف إلى وزارة الشؤون الدينيّة فتقوم بدورها بإعطاء التوصية أو الموافقة. يقوم بعدئذ مسؤولو الجمعية الفرنسية المسلحون بهذه الوثيقة، بجولة على التجار،وعلى رجال الأعمال والمحسنين السعوديين، ويقيمون اتصالات مباشرة لجباية المال لصالح جوامعهم في فرنسا في إطار الزكاة. أمّا من اليوم فصاعداً فقد

(١) المملكة العربية السعودية ومحاربة الإرهاب، نايل الجبير، بوليتيكو– ٤ نيسان ٢٠١٦.

(٢) لقاء مع أحد المؤلفين في مقر اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا –لاكور نوف – ١٩ تموز ٢٠١٦

تغـيَّر النظـام حيـث إنّ المبـالغ التـي تـمّ جمعهـا مـن الزكـاة سـيتمّ تخصيـصها لصندوق تقوم على إدارته السلطات السعودية.ومع اتخاذ كـلّ التـدابير يبقـى النظـام غـير مـسيطر تمامـاً، فهنـاك الثـروات الـسعوديّة الفاحـشة والأمـراء السلفيون ما يزال بإمكانهم تمويل الجوامع حسب رغبتهم وبحرية .

من يستطيع أن يمنعهم عن ذلك ؟

اعترف السفير الـسعوديّ نفسه أمـام أعـضاء لجنـة الإعـلام في مجلـس الشيوخ الفرنسيّ بأنه لا يملك أيّ معلومـات بهـذا الخـصوص، لـذلك لـيس بإمكانه تقدير أهميّـة هـذه الموضـوعات عـلى الأراضي الفرنـسية بدقّـة،وتبقى هذه التمويلات محدودة حسب رأيه.

لا يمكـن إجراء عملية إحصائيّة دقيقـة لهـذه الهبـات الخاصّـة التـي يـتمّ جمعها كتبرعات، على الرغم من أنها دون أدنى شـكّ تثير لـدى الـرأي العـام ارتياباً حول توجهها الإيديولوجي الذي يحرّكها[1]. أصبح هذا الموضوع على درجـة عاليـة مـن الحـساسية حتـى إنّ مانويـل فـالز أعلـن تأييـده لتعليـق التمويلات الخارجية لبناء مساجد[2] لفترة زمنية تحدّد لاحقاً.

إنّ السؤال الـذي يطـرح نفسه: هـل هـذا الحـلّ فعـلاً لمحاربـة «سـلفيّة العقـول» خاصـة إذا مـا أخـذنا بعـين الحـسبان الطـابع الهامـشي للـصناديق الـسعودية، بحـسب تعبـير رئـيس الـوزراء الفرنـسيّ؟ وحـرص الـسفير السعودي في باريس على التأكيد أنّ: «الـسعودية تحـترم الـشرعية الفرنـسية، وإن كلّ نشاطنا في تمويل الجوامع هو بإذن مـن الـسلطات الفرنـسيّة، ونحـن لا نقوم إلّا بتطبيق القوانين المعمـول بهـا في فرنـسا، إذا مـا أرادت الـسلطات

(١) «من الإسلام في فرنسا إلى إسلام فرنسا ، إقامة الشفافية وإزالـة الغمـوض»، تقريـر من اللجنة المكلفة من مجلس الـشيوخ الفرنـسي بدراسـة تمويـل الإسـلام في فرنـسا وأماكن العبادة التابعة له- ٢٠١٦ .

(٢) لقاء مع مانويل فالز ، جريدة اللوموند ، ٣٠ تموز ٢٠١٦.

الفرنسية ذات يوم أن تقول لنا هذا غير مسموح، فإننا سنوقف حينذاك كلّ نشاطاتنا».على كلّ حال، يفتش السعوديون عن مسؤولين مسلمين محليين موثوق بهم من قبل الفرنسيين من أجل تنفيذ مشاريع جوامعهم. وبحسب برنارد غودار: لا تكمن المشكلة في الجوامع المموّلة من المال السعودي، لكنها تكمن في (جوامع الإيواء) ذات الوجود شبه الرسمي وفي المئات من أماكن العبادة التي يقوم عليها سلفيون من دون أيّ علاقة مع إسلام السفارات. تتمحور النقطة الحاسمة على صعيد نشر إسلام رجعي مناهض للتقدّم والحداثة، وتتحمّل السعودية في هذا المجال مسؤولية مباشرة.

أغرق السعوديون ولوقت طويل الجاليات المسلمة بكتب علمائهم اللاهوتيين ودعاتهم. لقد موّلوا دور الطباعة، وتزخر المكتبات الإسلامية بفرنسا بمؤلفات العلماء السعوديين أمثال عبد العزيز بن باز،و صالح الفوزان و ربيع المداخلي.

شاعت - منذ خمس عشرة سنة - موضة «الكتاب السندويش» حيث كان بإمكان المؤمنين، في الوقت الذي يأكلون فيه سندويشة، القيام بقراءة كتب صغيرة مؤلفّة من عدّة صفحات تتناول مفهوماً دينياً أو فكرة دينية .

يبقى الحج إلى بيت الله الحرام الفرصة السانحة بالنسبة إلى المؤمنين لجلب الكتب السلفيّة والوهابية في حقائبهم؛ إلّا أنّ الحال قد تغيَّر اليوم، فالأدب الوهابيّ والسلفيّ مُيسَّر تيسيراً مباشراً على شبكة الإنترنت.

قدَّم عمار الأصفر تحليلاً يقول فيه: «إنَّ المشكلة مع ورثة محمد عبد الوهاب واتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا هي في أنهم لا يرغبون في التطور، ولديهم فكر مقولب وجامد يطرح نفسه ضامناً وحارساً للمعتقد التقليدي، وهم يريدون فرصة في كلّ مكان دون الأخذ بالحسبان السياق المحليّ. هم يعيبون علينا أنّنا أفسدنا النصوص المقدّسة لكي نؤقلمها مع المحيط الفرنسيّ» .

هنا حطَّنا الجمَّال،حيث نلامس لُبَّ المشكلة: إنَّ نسخة الإسلام التي تسعى السعودية لنشرها غير متسقة مع المنظومة القيميّة للجمهوريّة، وينظر إليها بأنَّها متطرّفة، لا بل متعصّبة **(طائفيّة)** من قبل كثير من المسلمين، في حين أنَّ السعودية تعتبرها تجسيداً للإسلام الأصليّ والحقيقيّ طبقاً للأصول.

ليس بإمكان الوهابية الانصهار
في بوتقة الجمهورية العلمانية

من أجل أن نفهم جيداً الحمض النوويّ الإيديولوجيّ والديني للمملكة الوهابيّة، يتوجّب علينا الرجوع إلى أغوار الزمن. فقد رأت النور سلطة آل سعود كثمرة للتحالف الموقَّع عام ١٧٤٤ بين محمد آل سعود (أمير الدرعية) وهي منطقة تقع في محيط الرياض، ومحمد بن عبد الوهاب (إمام نجد)؛ الأول قائد عسكري طموح وماكر، والثاني شخصية دينية متشددة وجذابة .

« يفتش المحارب عن نظرية، والداعية يبحث عن سيف. اتفقنا على رصّ صفوفهم إلى بعضهم بعضاً لتشكيل قوّة مشتركة تضمن تطبيق الإرادة الربّانية وإعادة الوحدة المفقودة للشعب العربيّ»[1].

عزَّز الرجلان تحالفهما طبقاً للنواميس البدويّة الصافية، فقام عبد الوهاب بتزويج كريمته لمحمد آل سعود؛ ووعد هذا الأخير بفرض النظرية التعصبية لمحمد عبد الوهاب على امتداد أرض شبه الجزيرة العربية. وضَمِنَ بالمقابل الداعية وفاء جميع المؤمنين لعائلة آل سعود. كان عبد الوهاب مقتنعاً بأنّه يمثّل الإسلام الحقيقيّ، أي الإسلام النقيّ المبعوث من جديد للعودة إلى

(١) ابن سعود أو ولادة مملكة – جاك بونوا –مبشين– دار الطباعة ألبان ميشيل ، ١٩٥٥.

الأصول.لقد ألغى عبد الوهاب بهذه الحركة ألف عام من التاريخ العربي، وعاد إلى النقطة التي انطلق منها النبي محمد[1].

ما زال ميثاق التحالف بين السيف والقرآن صامداً منذ أكثر من ثلاثة قرون[2]، وهو يشكّل حجر الزاوية الإيديولوجيّ لسلطة آل سعود. تَمَّ بموجب هذا الميثاق تقاسم السلطات، فتولّى آل سعود الذين ليسوا وهابيين جميعهم الشؤون الملكية، بينما تعود إلى المرجعيّة الدينيّة وعلمائها سلطة القضاء والتربية، كما يعدّون حرساً للمعبد، ومسؤولين عن نشر العقيدة الوهابيّة التي لم تتزحزح مبادئها ولو قيد أُنملة عمّا كانت عليه عند تأسيسها: وحدانيّة مطلقة، تحريم ابتكار البِدَع ، عزل الكفَّار والمسلمين المنحرفين ، والجهاد.

ينتظم هؤلاء العلماء الذين يبلغ عددهم نحو خمسمئة وسبعين عضواً، في مجلس كبار العلماء الذين يسنّون الفتاوى التي تُفرض على جميع المؤمنين في المملكة، ويتقاضون رواتب من الدولة، ويتبعون لسلطة آل سعود. وهذا ما يفسّر أنَّ هناك سعوديين آخرين يغرّدون خارج السرب،ويلحقون بعلماء غير رسميين، لكن لديهم أفكار أكثر تشدّداً وتطرّفاً.

عارض عدد من العلماء الوهابيّين المقولبين في قوالب نظرية جامدة إدخال التلفاز، حتّى أنّ واحداً من هؤلاء سنَّ فتوى تمنع لعبة الشطرنج،لأنّها من صنع الشيطان، وذهب آخرون إلى حظر (منع) لعبة البوكيمونكو (Pokemon Go). كلّ هذا يبدو غير معقول ونحن في القرن الواحد والعشرين، ولاسيّما إذا علمنا أنَّ العلماء السعوديين، ما زالوا حتّى الآن يناقشون فيما إذا كان الرقص والغناء حلال أم حرام!

---

(١) المرجع السابق ذاته.

(٢) في الدين الإسلام مفهوم الجهاد هو أولاً معركة روحية مع النفس قبل أن يكون فعلاً قتالياً.

يرفض السعوديون اليوم هذه الصورة. فبالنسبة إليهم ليس للوهابية أيّ علاقة مع أيّ شكل من أشكال التطرّف الدينيّ،وما يقدّم ليس سوى ذريعة تستخدمها الصحافة الغربيّة لتلطيخ صورة المملكة. هنا نستمع إلى ما قاله عادل الجبير، وزير خارجية السعودية، الذي التقيناه في باريس: « مثل الوهابية مثل جملة مقدّسة يردِّدها الناس دون أن يفهموا ماذا تعني. نعم توجد مدرسة فكريّة أسّسها محمد بن عبد الوهاب الذي كان إصلاحيّاً. ولو كان فعلاً متطرّفاً كما يتمّ تصويره لرفض الآخر، وتشدّد مع الشيعة والأقليّات الأخرى، وهكذا نحن في السعودية منذ مئتي سنة، ولم نشهد أيّ شكلٍ من أشكال العنف، و إلَّا لكانت الناس قد ثارت[1] ».

بعد انتهاء عرض المراوغة الجدليّة بدا أنَّ الوهابية في عيون وزير الخارجية السعوديّ تجسّد «إسلام الأنوار»؛ لكنّه لم يكن مقنعاً، ويستدعي عرضه التدقيق فيما قاله، خاصَّةً إذا ما علمنا أنه أمر طبيعي النظر إلى غير المسلمين على أنهم كفّار. بالطبع النخبة السعودية المستغربة لا تؤمن بذلك لكن التيارات المتطرفة القوية هي التي قولبت المجتمع السعودي حيث أصبح في غالبيته منتمياً إلى هذه التيارات. وفي هذا السياق لنرَ ما يروي لنا مغترب عن حادث حصل معه، له الكثير من الدلالات وذلك عام ٢٠٠٠ .

«اقترب، ذات يوم، شرطيان سعوديان من سائقي الفيليبيني الذي كان يقوم بنزهة مع كلبي حول منزلي. واستوقفاه ليسألاه : « هل معلموك مسيحيون ؟ ».

أجابهما السائق بالإيجاب؛ رد الشرطيان قائلين: «سنذبحهم». قام السائق بإعلامي فاتصلت مباشرة بوزير الداخلية لوضعه في الصورة. وبعد يومين تم توقيف الشرطيين وإيداعهما السجن. جاءني، بعد انقضاء عدة

---

(١) لقاء مع المؤلفين – باريس – ١٠ أيار – ٢٠١٦ .

أشهر على سجنهما، موظف وطلب مني: « هل ترغب في أن يبقيا في السجن وإلى متى ؟ أو أن الأمر في حكم المنتهي نصفّيهم» وكان جوابي بأن: حرّروهم، شرط ألّا أراهم بعد الآن في الحيّ».

عانت أجيال من السعوديين - ومنذ عدة عقود - من غسيل إيديولوجي للدماغ وذلك من على مقاعد الدراسة في المدرسة، وهنا تكمن واحدة من أهم المشكلات التي على المملكة التصدي لها. ومع أنّ السلطات مدركة لهذه المشكلة، إلّا أنّها مقيدة بسلطة العلماء، ولهذا السبب هي عاجزة عجزاً شبه كامل. إنَّ هذا الواقع مثير للقلق فحتى الشهادة الثانوية يخصص ثلث الدروس للدين، بمعدل ثماني ساعات بالأسبوع في المرحلة الابتدائية؛ «وبيَّن أيضاً المحامي عبد العزيز القاسم أنّ الأمور ستكون مقبولة لو كان التعليم مركَّزاً على الإسلام، لكن الطامّة هي أنه يقوم فقط على أساس الوهابية»؛ أي على أساس من التشدد والتطرف.

يتلقى الأطفال، في السنوات الثلاث الأولى المبادئ الأساسية التي أمر بها محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر. ثم يتابعون خلال سنوات تعليمهم دراسة مؤلفه المرجعي الذي يحمل عنوان « كتاب التوحيد»، ونقتطف منه :

- « الثقة بالله واجب،وهي واحدة من شروط صحة الإيمان «(الفصل ٣٢).
- « التجديد علَّة تقود إلى الكفر» (الفصل ١٨).
- « إنّ الطريق الذي يسلكه أهل الكتاب (اليهود والمسيحون) طريقٌ مستنكرٌ، مثل الطريق الذي يتبعه المشركون» (الفصل الثامن).
- « كلّ من يستهزئ بـ(الله –القرآن – أو الرسول) كافر»(الفصل السابع والأربعون).
- «قاتلوا الذين كفروا بالله» (الفصل الثاني والستون).

نكتفي بهذا القدر من الاستشهادات التي تطول قائمتها .

«تفحّصت مقرّر التربية الدينيّة المخصّص لطلاب الثانويّة في المدرسة السعوديَّة بفرنسا» صرّح دبلوماسيّ فرنسي في الرياض، مضيفاً أنَّه فيما إذا وقع هذا الكتاب بين يديك فستفكّر حتماً أنَّ داعش هي التي قامت بتأليفه. إنَّها الوهابية الخالصة، التي تدعو إلى تهديم القبور والآثار وإلى قتل الكفار».

أمام هذا الحشو للدماغ ، كثيرة هي الأسر السعودية التي تهاوت: «لقد أخرجت ابني ذا السنوات التسع من المدرسة العامة، وأرسلته إلى مدرسة خاصّة، وذلك بسبب الكوابيس التي يعيشها في الليلة التي تلي دروس الدين»؛ هذا ما قاله موظف في بنك بمدينة جدّة.

تختصر طرفة سعودية - من قبيل الاستهزاء - كلّ هذا النظام التعليميّ الذي لا علاقة له بروح العصر الذي نعيشه: «الخطان المتوازيان في السعودية لا يلتقيان إلّا بإذن الله».

لنتخيل وجود هكذا مدرسة في قلب باريس، اكتشفنا وجودها في جادة إيينا (Iena) بالدائرة السادسة عشرة، وهي مخصصة حصرياً لأبناء الرعايا السعوديين والدبلوماسيين العرب. يبدأ التعليم فيها من سن الحضانة حتى شهادة البكالوريا، ويطبّق فيها المنهاج الذي تطبّقه السعودية من ألفه حتى يائه. هنا في باريس كما في الرياض، يتعلّم الطلاب قواعد اللغة العربية من خلال الآيات القرآنية. تُحترم في المدرسة مواقيت الصلاة، ويأتي كلّ يوم جمعة إمام واعظ يلقي تعاليماً دينية على الطلاب .

يقاطع بعض السعوديين - في باريس كما في جدّة - هذه المدرسة الوهابية بامتياز بنظرهم،هذا ما باح به لنا أحد هؤلاء قائلاً: « أخرجت أبنائي من هذه المدرسة، كي أسجلهم في مدرسة فرنسية عامة، طبعاً فيها كُفّارٌ كُثر، لكنها أفضل بكثير ».

وكما سبق الحديث عن تمويل الجوامع، يجب القول إنّ السعودية لم تقم أبداً بخرق القانون الفرنسي، وإنَّ هذه المدرسة ليست سوى ثمرة لاتفاق تمّ توقيعه بين باريس والرياض. وهذه المدرسة ليست الوحيدة بل هناك اثنتا عشرة مدرسة أخرى منتشرة في أنحاء العالم. « أحقاً يوجد مثل هذه المدرسة في باريس ؟»، هكذا تظاهر بالتجاهل دبلوماسي فرنسي متابع عن كثب الشؤون السعودية.

باختصار، علينا أن نخجل مرّة أخرى.

قبلت السعودية الورعة جداً! نتيجة إدراكها للنواقص التي تعتري نظامها التعليمي عرض فرنسا العلمانية لتطوير المناهج، وإدخال الإصلاحات على نظام تأهيل المدرسين.«أرادوا البدء بالقطاعات الأقلّ حساسية مثل العلوم والرياضيات، وأعرب المسؤولون السعوديون عن اهتمامهم أيضاً بتطوير الرياضة المدرسية وخاصة رياضة البنات وذلك على الرغم من حساسية هذا الأمر، هذا ما أكَّده دبلوماسي فرنسي تأكيداً مُلَّطفاً».

إنَّ هذا الملف على درجة كبيرة من الحساسية إن في فرنسا أم في السعودية.

إنَّ حذف دروس الدين مسألة غير مطروحة، لأنّ في ذلك إعادة النظر في العقد الاجتماعي – إنَّما توجد إرادة حقيقية لتعديل المناهج، بما في ذلك على مستوى دور الحضانة التي تستعمل النونيات (الألعاب) الأجنبية وترغب الدولة في استبدالها بألعاب سعودية.

اتخذت وزارة التربية السعودية قراراً يقضي بتوزيع مبالغ تتراوح ما بين ألفي يورو وخمسة وعشرين ألف يورو لمن يستحق من المديرين والأساتذة الذين يبرزون في تحسين جودة التعليم، لا بل ستقدم سيارة بي أم دبليو (BMW) للمحظوظ بينهم .

فرنسيون «تائهون» على دروب المدينة

تعدُّ المملكة العربية السعودية نفسها «فاتيكان» الإسلام السُنِّي، وتسعى المملكة الوهابيّة إلى جذب العديد من الشباب الفرنسيين الذين قدموا إلى السعودية بهدف دراسة علم اللاهوت واللغة العربية. إنّ هذا الهدف بحدّ ذاته لا يستوجب أيّ لوم، لكن بعض هؤلاء يتيهون على دروب التطرّف الدينيّ، بينما يقع آخرون في شرك الإرهاب.

تتابع الاستخبارات الفرنسية هذا الملف عن كثب، وتتعقب أولئك الذين يتسللون إلى الأوساط الطلابية. تشكل جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض أحد أهم أهدافها، حيث إن عدداً من الرعايا الفرنسيين قاموا في أواسط الألفين بالتدريس فيها، وإن واحداً منهم كان يُدرّس الشريعة، وآخر قيادة مراكز التنصت الهاتفي، وهذا اختصاص منوط عادةً بالشرطة، إلّا أنّ عمليّة التسلل هذه انتهت نهاية مأساوية،حيث وُجِد المُخبر الفرنسيّ مقطوع الرأس داخل الحرم الجامعي. من المحتمل أن يكون قد وشى به وفضح أمره رفاق له، بقي هذا الحدث قيد الكتمان فلا السلطات السعودية أعلنته ولا فرنسا.

تُعدُّ جامعة الإمام محمد قلعة إسلاميّة حقيقيّة، يتم فيها تدريب «جنود الله» المنحدرين من كلّ الجنسيات. لم يكن مسموحاً، ولفترة طويلة من الزمن، لا للجيش ولا للشرطة بالدخول إلى حرم الجامعة، الذي يقع تجمُّعها الضخم على محيط العاصمة السعودية، والدخول إليها يخضع لمراقبة شديدة

من قبل حراسة مدجَّجة بالسلاح. من ينظر إلى هذه الجامعة من الخارج ويشاهد أسوارها الشائكة الشاهقة وبرج المراقبة المتطوّر جداً على أعلى قمة خزان المياه وأنظمة الأمن المدهشة، يتولد لديه الانطباع أنَّه أمام سجن أو معسكر للجيش وليس أمام جامعة.

يُدرك الطلاب الأجانب أنهم مراقبون بشدة من قبل وزارة الداخلية السعودية.

لا بل أكثر من ذلك: «يمتلك هؤلاء الطلاب أنظمتهم الاستخباراتية الخاصة بهم ويترصدون بعضهم بعضاً، وهذا ما أكَّده عميل فرنسي مبيناً أنهم يراقبون بعضهم بعضاً حتى في لباس كل واحد، ويبلغون بأقلّ انحراف غير مطابق للشريعة الإسلامية. فمثلاً، من غير المسموح إطلاقاً الذهاب سراً إلى مطعم ماكدونالد وتناول الهمبرغر، على اعتبار أنَّ هذا المطعم رمز من رموز أمريكا. يعيش هؤلاء الطلاب، بين بعضهم، حياة هذيانية وتآمرية .

نجا عنصر من المخابرات الفرنسية بأعجوبة، عند نهايات الألفين، من محاولة اغتيال في الرياض. اعتاد هذا العميل أن يوقف سيارته أمام منزله، لكن صدف ذات يوم أن أركن جاره الألماني سيارته في المكان المخصص لسيارة الفرنسي، وحصل انفجار ألهب السيارة المتوقفة. أدرك الجاسوس الفرنسي مباشرةً أنه المقصود، قام بإجراء بحثه من أجل بلوغ الحقيقة،فاكتشف أنّ من قام بتنظيم هذه العملية فرنسيّ اعتنق الإسلام، تم توقيفه وما يزال يرزح في أحد سجون المملكة .

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه: كم من الفرنسيين تاهوا في بلد الله ؟

أبلغ وزير التربية السعودي تلقائياً وبعد انتظار طويل،في ربيع ٢٠١٥ السفاره الفرنسية في الرياض بوجود أربعة وتسعين طالباً فرنسياً في

السعودية، منهم سبعون طالباً مسجلون في الجامعات الإسلامية. ومنذ ذلك التاريخ، طلبت فرنسا وبإلحاح تزويدها بقائمة اسمية لهؤلاء الطلبة...، لكن عبثاً فعلت، وما زالت فرنسا بانتظار الجواب.

وما يظهره التعاون في هذا المجال هو محدودية التعاون الفرنسيّ– السعوديّ، على الرغم ممّا يقال رسمياً إنّ التعاون بين البلدين ممتاز: « هناك تبادل معلومات بين أجهزة الأمن السعودية والفرنسية، أوضح مصدر أمنيّ، لكنَّه أضاف أنّ السعوديين يستطيعون قول ما يرغبون قوله».

نظرياً، لا تملك الجامعات السعودية حقّ قبول تسجيل طالب فرنسي من يدون أن يكون مزوداً بكتاب من السفارة الفرنسية،لكن الواقع هو على غير هذا الحال: «لاحظت السفارة الفرنسية تجاوز بعضهم، بالطبع ليس الكل. نقل دبلوماسي مضيفاً بأنّه قام بجرد حسابيّ فخرج بنتيجة:إنّ اثنين أو ثلاثة طلاب يمرّون عن طريق السفارة، وهذا يبدو قليلاً جداً».

تحاول السفارة الفرنسية اقتفاء أثر كلّ أولئك القادمين من اليمن وهاجروا إلى المملكة العربية السعودية بسبب الحرب الأهليّة الدائرة في اليمن.

« رأينا عدداً منهم مرّوا على القنصلية في جدّة، شرح لنا دبلوماسي: قدموا إلى القنصلية لتسجيل قيد لهم في القنصليّة لكونهم قد حوصروا في اليمن، ولم يكن بإمكانهم العودة إلى فرنسا. وأضاف هذا الدبلوماسيّ أنَّ الأمر معقّد قانونيّاً فيما يتعلق بحجز مواطن من الرعايا الفرنسيين في الخارج».

يتجنب هؤلاء الفرنسيون الذهاب إلى القنصلية إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ «إنهم أناس يصعب تقفي أثرهم، اعترف بذلك جاسوس فرنسي مضيفاً، إنني أتذكّر أحدهم وكان يتجول بين السعودية واليمن تحت ذريعة أنه يُنتج العسل في اليمن ».

إنَّ حالة توماس بارنويين المعروف باسم عبد الحكيم هي خيرُ مثال يوضّح الانحراف الجذريّ الذي تُعلِّمه السعودية؛ بدأت مسيرة الجهادعند هذا الشخص وهو ابن لعائلة مدرسين من ألبي (Albi)، عام ٢٠٠٣ عندما حطّ رحاله وهو في السادسة والعشرين ربيعاًفي جامعة المدينة الإسلامية من أجل «ترجمة القرآن الكريم».

تمّ اعتقال هذا الطالب، الذي يُدرِّس علم اللاهوت من قبل المخابرات السورية عام ٢٠٠٨ بينما كان يستعد لاجتياز الحدود، ويحمل معه سلاحاً ليحارب فيه الأمريكيين في العراق. قامت السلطات السورية بترحيله إلى فرنسا، وحكم على توماس عبد الحكيم بالسجن لمدّة خمس سنوات ، منها واحدة مع وقف التنفيذ؛ أُطلِق سبيله عام ٢٠١١ .

ولكن، على ما يبدو ، ما زال حلم الحرب المقدسة يُدغدِغ توماس بارونين؛ فقد استطاع، وعلى الرغم من الرقابة المفروضة عليه، الوصول إلى سوريّة في شهر شباط ٢٠١٤، فُقِد بعدها أيّ أثر له .

بالطبع ليس كلّ الفرنسيين، الذين يدرسون الدين في المملكة العربية السعودية يسعون إلى ارتكاب عمليات اغتيال أو تفجيرات في فرنسا أو غيرها من البلدان، أو الالتحاق بداعش في سورية أو العراق. وإنّ الأغلبية الساحقة من هؤلاء الطلاب ليست سليلة لابن لادن.

لكنّهم، وفي المقابل، يكتشفون ويتمثّلون الإسلام الوهابي في المملكة العربيّة السعوديّة، الذي وإن كان هادئاً وغير عنِفي، يشكلّ تياراً سلفياً مناهضاً للديمقراطية لذا لا يتناسب مع طريقة عيشنا، وخاصّة لأولئك الذين قد يرغبون في العودة يوماً إلى فرنسا.

لا تكلّف الخطوة الأولى، على الأرض،باتجاه الإرهاب الكثير من العناء، إذ يكفي لقاء معلّم جذّاب مع طالب أو موعظة ملتهبة من داعية. ولهذا السبب، يشرح دبلوماسيّ فرنسيّ: « حرصنا على أن تبقى عيوننا

عليهم؛ فنحن لا نرغب في المساعدة على خلق حوض لتسمين السمك في المملكة العربية السعودية ومع ذلك، فقد اكتشفت السلطات الفرنسية بالصدفة في المدينة المنورة مقرّاً لجامعتين إسلاميتين، حيث هناك تطورت جالية فرنسية صغيرة،تطوراً سرّياً، منذ سنوات عدّة، وشهدت توسعاً مذهلاً. تضمّ هذه الجالية، في يومنا هذا، أربعمئة وثلاثة وتسعين فرنسياً منهم مئتان وواحد وسبعون أعمارهم أقلّ من ثمانية عشر عاماً، وذلك بحسب إحصائيات القنصلية الفرنسية في جدة[1].

« إنَّ الولادات التي تُسجَّل في القنصلية هي أساساً لأبناء هؤلاء الفرنسيين التائهين، وذلك بحسب دبلوماسيّ فرنسيّ في جدّة، مضيفاً أنَّ عدداً منهم متزوّج من نساء عدّة. وباعتبار أنَّ تعدُّد الزوجات ممنوع في فرنسا، يلجؤون إلى الزعم أنَّ هذه الولادات هي من عشيقاتهم ، فيتمّ على هذا الأساس إعلان المولود الجديد رسمياً، وقد أدركنا أنَّ هؤلاء الأبناء ليسوا فرنسيين اللهم إلَّا على جواز السفر وعائلاتهم لا تتحدّث إلَّا باللغة العربية، ويتلقّى معظم أبنائهم التعليم في المدارس السعوديّة ».

إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: كيف وصل هؤلاء إلى المدينة ؟

يقول مصدر قنصليّ آخر:إنَّ الشيوخ المقيمين في فرنسا هم من يقومون بتسهيل الإجراءات للشباب الذين يسافرون إلى المملكة العربية السعودية من أجل دراسة الدين. تتحمل السعودية نفقات التأهيل الفقهي، وتقدّم للطلاب منحاً دراسية قيّمة كلّ منحة نحو ثمانمئة ريال سعوديّ (أي ما يعادل مئتي يورو)، ويؤمنون السكن مجانياً.

---

(١) تمّ الحصول على هذه الأرقام من المحضر الرسمي لاجتماع المجلس القنصليّ للتأهيل في مجال تعليم اللغة الفرنسية في الخارج المنعقد بتاريخ ٧ كانون الأول عام ٢٠١٥ في جدة.

يعيش هؤلاء المهتدون الجدد إلى الدين الإسلامي في بيئة مغلقة في المدينة المنورة.

يتابع المصدر القنصليّ قوله:« وجد هؤلاء الشباب الفرنسيون ضالتهم من الدعم في المدينة المنورة،بعد أن يئسوا من الحياة في فرنسا. ومن الجدير ذكره أنَّ التضامن بين هؤلاء كبير جداً ». لكن على أرض الواقع، هم يلتمسون العيش بكل الوسائل المتاحة بما فيها الإحسان، ففي يوم الجمعة الذي تقام فيه الصلاة الكبيرة، يقوم بعض الطلاب بانتظار رئيس الرابطة الإسلامية العالمية، ليَدُسَّ في جيوبهم عند مغادرتهم خمسمئة أو ألف يورو

هناك سؤال آخر: كيف يتم التواصل مع أهالي مدينة ممنوعة على غير المسلمين؟

تقوم القنصلية بإرسال عملاء لها من المسلمين للإبقاء على التواصل مع هؤلاء الفرنسيين الذي يكنُّ جزء منهم الكراهية للوطن الأمّ . تنظم مواعيد للقاء معهم في الجزء الدوليّ من المدينة. تنوي جمهوريتنا العلمانية، زيادة على هذه الاتصالات العرضية افتتاح مدرسة فرنسيّة في المدينة. وبانتظار تنفيذ هذا المشروع، تقوم مدرسة خاصّة سعوديّة، منذ افتتاح العام الدراسي ٢٠١٥، بتخصيص صفين نحو ثلاثين طفلاً فرنسيّاً وناطقين بالفرنسية لمتابعة دروس دعم مدرسين للغة كُفَّار موليير.

ليست بنزهة إدارةُ شؤون الفرنسيين في المدينة، واسألوا من كان بها خبيراً أيّ موظفي القنصليّة الفرنسيّة في جدة الذين لديهم الخبر اليقين. يرفض بعض هؤلاء الفرنسيين التحدث باللغة الفرنسية؛ يروي أحد الدبلوماسيين أنَّ «أحد هؤلاء الفرنسيين رفض إبراز جواز سفره لتجديده، ورفع صوته بوجه موظفة الاستقبال. سألتُه « ما المشكلة؟ فأجابني:«إنَّها امرأة ولا أرغب في التواصل معها !»، فتقدّم شرطي الخدمة نحوه ورجاه بمغادرة القنصلية، عاد هذا الشخص ذاته، بعد فترة، لتجديد جواز سفره.

طرحت عليه السؤال ذاته من جديد: « ما هي مشكلتك؟ وهنا أجابني بلهجة سريَّة:

«باعتبار أنَّ من يستقبلني لمعالجة جواز سفري امرأة، فأخشى أن تغويني!».

في إطار رؤيتهم الدينية، أصبح هؤلاء مهاجرين حطّوا رحالهم في دار الإسلام.

«إنَّهم مقتنعون بقدرهم،لأنّهم قدموا إلى المدينة المنورة من أجل الدين، هذا ما لاحظه الدبلوماسيّ الآنف ذكره. «رفضت عائلة تعاني من ظروف حياتية صعبة أن يتمّ ترحيلها إلى فرنسا»، أضاف هذا الدبلوماسيّ.

يجلس الفرنسيون على مقاعد الدراسة في الكلية الإسلامية في المدينة المنورة، جنباً إلى جنب مع طلبة باكستانيين، وفلبينيين، وماليزيين، ومصريين، وفلسطينيين، وسوريين، وذلك بهدف أقلمتهم اجتماعياً. يتمّ تزويج الشاب الأعزب عن طريق الشيخ المحلي من فتاة غالباً ما تكون من جنسية أخرى غير جنسية العريس. ما عدا طبعاً الجنسية السعودية، لأن القانون السعودي لا يعطي الحق للفتاة السعودية بالزواج من أجنبيّ.

يهدف تأهيلهم اللاهوتي إلى أن يقوموا، بعد الانتهاء من الدراسة، بنشر هذا الإسلام المتعصب «الأجداد الأوائل» في أقاصي الأرض، وهذا هو الإسلام الذي تتحزب له الوهابية.

إنَّ الأربعة عشر إماماً الذين ينشطون فوق الأراضي الفرنسية، هم من خريجي هذا الأنموذج من التأهيل.

إنَّ أكثر الأئمة المبشّرين حماسة، غالباً من الفرنسيين الذين تحوّلوا لاعتناق الإسلام[1].

---

(1) قدَّرت وزارة الداخلية الفرنسية، عام ٢٠١٣، عدد الذين يعتنقون الإسلام سنوياً ما بين ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ شخص،من دون أن يكون هناك إمكانية النفي أو التأكيد لهذه التقديرات.

وقد ذكر دبلوماسي آخر مذهولاً: «لقد عرفت منهم واحداً هو ابن لأحد الأشراف (فيكونت)، مضيفاً: إنّ هؤلاء المهتدين الجدد يريدون أن يكونوا مسلمين أكثر من المسلمين الأصليين». لقد نقل أحد ضباط الشرطة: «عالجت حالة شاب من منطقة البروتانيا اعتنق الإسلام،واختلط بسلفيين في فرنسا.

اختفى فجأة بطريقة سريَّة ليذهب إلى المملكة العربية السعودية ليتم تأهيله كإمام وهابيّ. عاد أدراجه إلى فرنسا، ثمّ غادرها من جديد إلى الخارج. واعتماداً على ما يجري وعلى السلوك الرائج، يمكن العثور على أثر هؤلاء الأفراد في الخلايا الجهادية في البوسنة، أو اليمن، أو العراق أو سورية».

طرحت إحدى موظفات القنصليّة الفرنسيّة في جدّة السؤال الآتي على أحد هؤلاء الجهاديين:

« ما الذي تنوي القيام به في فرنسا بعد عودتك إليها ؟ ».من دون أن يرفع نظره إليها، أجابها الفتى الفرنسي المعتنق الإسلام: « ربما أذهب لقضاء عطلة ولقاء أهلي وأصدقائي، لكنني لن أستقرَّ أبداً في فرنسا التي تكره الإسلام!». بالنسبة إلى هؤلاء، أن تعيش في المدينة المنورة، فتلك نعمة من الله على الرغم من كلّ المعاناة اليوميّة.

سيتابع بعض هؤلاء دراستهم إمَّا في مصر وإمَّا في المغرب. وقد أكَّد المحامي عبد الله القاسم أنَّ: « أولئك الذين سيعودون إلى فرنسا لنشر عقيدتهم، إنما هم لا يدخرون جهداً في سبيل انكفاء الإسلام على نفسه وعزلته، وهذا بالطبع يشكل خطراً عليه ».

إسلام فرنسا، مسرح للمنافسات القطريّة - الإماراتيّة

ظهرت قطر بصفتها لاعباً جديداً على مسرح إسلام فرنسا؛ فعلى غرار المملكةالعربية السعودية استفاقت الدوحة على أثر الصدمتين البتروليتين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٩، و في سنوات الألفين لتجد نفسها متربعة على ثروة هائلة بفضل ما تمتلكه من مخزون ضخم من الغاز الطبيعي بعيداً عن الشاطئ. لقد أرَّق الأمير السابق الشيخ حمد المتربع على عرش السلطة ما بين ١٩٩٥و٢٠١٣، أن تصبح بلاده لاعباً على مسرح الأحداث العالمية، وقد اعترف دبلوماسي فرنسيّ مقرَّب من الديوان الأميري أنَّ «الشيخ حمد كان مستعداً للذهاب إلى أبعد حدّ من أجل أن يُعترف به حتى أنَّه تجاوز كلّ الخطوط في بعض الأحيان».

دعم الشيخ حمد، المقرَّب من الإخوان المسلمين ومن قادتهم، الإسلاميين في كلّ مكان استطاع أن يجد إليه سبيلاً، طبعاً ليس بدوافع إيديولوجية إنَّما من قبيل الانتهازية السياسية.

جربت الدوحة، وهذا ما أمطنا اللثام عنه في كتابنا السابق[1]، محاولة الهيمنة على الجالية المسلمة في فرنسا، وذلك بأنَّ اقترحت على الرئيس ساركوزي

(١) قطر ، أسرار الخزنة ، كريستيان شيسنو وجورج مالبرينو– دار الطباعة ميشيل لافون– ٢٠١٣.

تشكيل «مجلس تمثيلي للمؤسسات الإسلامية على غرار المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا». ينضوي تحت لوائه جميع المنظمات والجمعيات الإسلامية في فرنسا، وحيث ستكون فيه حصّة الأسد لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، فرع الإخوان المسلمين في فرنسا. كانت فكرة قطر تكمن في استنساخ منظمة تمثيل إسلامي على غرار المنظمة الخاصة باليهود، حيث هناك حاجة إلى أن يكون،إلى جانب المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، المماثل لمجلس الكرادلة، هيئة شبيهة بالمجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية (CRIJF) في فرنسا. وقد أعرب هنري غينو (Henri Guaino)، المستشار الخاص لنيكولا ساركوزي، عن تأييده لهذه الفكرة. لكن عندما علم سفيرا المغرب والجزائر بالمشروع القطري، توجها باحتجاج رسميّ إلى قصر الإليزيه، الأمر الذي أجبر الدوحة على التراجع، وأجَّج هيجاناً كبيراً في أوساط الجالية المسلمة في فرنسا التي تقع تحت تأثير المغرب والجزائر.

أخرجت قطر دفتر شيكاتها لشراء بطاقة دخول لها على «سوق الإسلام» وذلك على غرار ما تفعله في إدارة الأعمال والرياضة والثقافة.

خصّصت قطر مبلغ مليون يورو لبرنامج تجديد الجامع الكبير في باريس الذي أُطلِق عام ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣، وكنا قد رأينا سابقاً رجال أعمال قطريين قاموا بتمويل جوامع كجامع مدينة نانت على سبيل المثال لا الحصر. إلّا أنّ مشروع قطر الكبير في فرنسا هو جامع ميلو (Milos) بالقرب من مدينة ميلوز (Mulhouse) الذي سيكون التجمع الإسلامي الأكبر في أوروبا.

يُفترض أن يقوم مركز النور بتخديم حوض يضم مئة وخمسين ألف مسلم، يتوزعون في إقاماتهم في فرنسا وألمانيا وسويسرا؛ سيقام على مساحة عشرة آلاف متر مربع، يتألف من أربعة طوابق ويحتوي على جامع، مدرسة لتعليم القرآن، ومخبر لتعليم اللغة العربية، ويتضمن فضاء للاستجمام (حمام، مسبح ... إلخ) تم استنساخ هذا المركز عن المركز الذي تم افتتاحه عام

٢٠١٤ في كوبنهاكن في الدنمارك الذي تم تشييده على رقعة من الأرض مساحتها ستة آلاف وسبعمئة متر مربع، وبلغت كلفته حوالي سبعة وعشرين مليون يورو على نفقة مؤسسة قطر شاريتي(١) وهي الذراع الأخير للإمارة في الخارج. ويساهم في تنفيذ هذا المشروع جمعية محلية منبثقة عن اتحاد المنظمات الإسلامية ، فرع فرنسا للإخوان المسلمين بضوء أخضر من السلطات الفرنسية المحلية و الوطنية .

يقوم القطريون على غرار السعوديين بمراقبة استخدام الأموال عن كثب، ويؤكد رئيس اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا عمار الأصفر أن مساهمة قطر تُقدم دون أي مقابل، لكن مؤسسة قطر شاريتي تشترط فقط وجود ممثل لها في مجلس إدارة الجامع، وذلك من أجل مراقبة إدارة المنشأة، فقد تبينَّ للقطريين أنَّ ثمة اختلاسات مالية في مشاريع أخرى موَّلوها، وهذا ما لا يروق لهم باعتبارهم يملكون عقلية رجال أعمال.

إذا ما توقفنا هنيهة من الزمن عند قطر شاريتي، تبينَّ لنا أن هذه المنظمة الخيرية أصبحت عبر الأيام إحدى أشكال القوة الداعمة للدوحة في العالم. تمول هذه المنظمة غير الحكومية مساعدات طارئة لضحايا الكوارث الطبيعية ولبرامج مكافحة الفقر وبرامج التنمية. هذا بالنسبة إلى الجانب الإنساني، أما البعد الثاني لنشاط قطر شاريتي فهو في المجال التبشيري الديني خاصةً في إفريقيا، وهذا ما سنراه في أحد الفصول اللاحقة في هذا الكتاب. تدعم المنظمة غير الحكومية مشاريع بناء جوامع وإنشاء مدارس لتعليم القرآن ومعاهد لحفظ القرآن في جميع أنحاء العالم.

أثار هذا النوع من النشاط الخيري الديني القطري حساسية عند جيرانهم في الإمارات العربية المتحدة التي كما رأينا سابقا تشن حرباً

(١) www.qcharity.org.

بلا هوادة ضد الإسلاميين وقد اختصر ميشيل ميرييه (Michel Miraillet) سفير فرنسا في الإمارات المشهد بقوله: «أبو ظبي هي إسبارطة الخليج» وهكذا فقد وجد شبها بين أبو ظبي والمدينة اليونانية القديمة التي دافع عنها جنود أشداء، مهذبون ومنظمون في جيش حديث. يعتبر رئيس الإمارات محمد بن زايد محافظاً جديداً يرى أنَّ على الدين أن يبقى حبيس الجوامع، وهذا ما يجعل منه علمانياً في نظر فرنسا.

يعتبر الإسلاميون من كل الأجناس، ومهما كان طول ذقونهم، العدو اللدود للسلطة الإماراتية. ففي كانون الأول من عام ٢٠١٥، لم يتردد الشيخ محمد المكتوم حاكم دبي، في صرف رئيس تحرير الجريدة المحلية (البيان) مع اثنين من مساعديه من الخدمة، وذلك بسبب إعادة نشر تغريدة دعائية لداعش تقول إنَّ راية الجهاديين السوداء سترفرف ذات يوم على قمة برج خليفة في دبي.

بالنسبة إلى الإمارات من غير المسموح به أبداً إطلاق العنان لأهواء الأئمة، فجميع المبشرين والدعاة يتم تأهيلهم في المعهد الديني نفسه، وتقوم وزارة الشؤون الدينية في كل يوم جمعة بتوزيع عظة الصلاة التي تتم تلاوتها في جميع الجوامع في البلاد، و ويلٌ للداعية الذي يخرج عن الخط المرسوم، لأنه سيلقى مالا يحمد عقباه.

تنفرد الإمارات العربية المتحدة، من بين عروش الخليج، بدرجة تسامح صفر اتجاه الإخوان المسلمين، فهي تعتبرهم حركة إرهابية، بل ذهبت أبعد من ذلك بأن وضعت عام ٢٠١٤ اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا عبر فرعها في فرنسا على القائمة السوداء الخاصة بالإمارات.

قمنا بطرح السؤال على رئيس اتحاد المنظمات الإسلامية السيد عمار الأصفر عن رأيه في الموضوع فأجابنا:« إنها مجرد مطاردة مرتبطة بما يجري في مصر. حددت الإمارات خمساً وثمانين جمعيةً في العالم كأهداف لمحاربتها بما

فيها المؤتمر العالمي لعلماء المسلمين الذي يرأسه الشيخ القرضاوي. تعتبر الإمارات جميع هذه الحركات التي تنشط في أوروبا إرهابية. أضاف السيد الأصفر: ذهبتُ للقاء أحد دبلوماسيي السفارة الإماراتية لكي أقول له «إنكم أنتم من موّل جامع كورنوف عام ١٩٩٤» لقد قدمت إمارة الشارقة في ذلك العام ما بين ستة إلى سبعة ملايين فرنك فرنسي، ولم يكن مثل هذا الأمر شائعاً.

عرض علي الدبلوماسي اقتراحاً، طالباً مني أن أكتبَ إليه واعداً أن ينقل الرسالة للجهات المعنية، وأكد لي أنَّ القائمة السوداء ليست نهائية. انتهت الأمور عند هذا الحد «تبين لنا من خلال بحثنا، أن المبعوثين الإماراتيين قد تجشموا عناء السفر حتى فرنسا لمطاردة الإسلاميين؛ ففي أيار ٢٠١٦ زار فرنسا سراً مدير الشؤون الدينية الإماراتي بهدف معاينة عدد من الجوامع في الضواحي الباريسية.

أقام هذا المسؤول في فندق ضخم في جادة الشانزيلزيه وأوفد عدداً من مساعديه ففي جولة لمدة يومين طافوا خلالها على عدة مساجد، من بينها جوامع فينيوسيرسين وسافينيي لوتامبل وسانت جنيفياف دي بوا. أفشى لنا أحد المرافقين لهذا الوفد سراً بأن كشف لنا بعض التفاصيل لهذه الرحلة «من أكثر الأشياء التي استرعت انتباهي هو الانفصال التام للإمارتيين عن الواقع الفرنسي، فهم لا يمتلكون الحد الأدنى من فهم السياق المحلي؛ وعلى سبيل المثال اندهاشهم من أن بعض المساجد تخصص أجنحة تربوية لتعلم وتعليم المواطنة،» وكذلك ما أثاره وجود كاميرات للمراقبة حيث سأل أحد أعضاء الوفد «أتستخدم هذه الكاميرات دون أدنى شك لمراقبة الإسلاميين المتطرفين» الأمر الذي فاجأ المسؤول عن هذا المسجد فأجابه «أبداً، ليس لهذا الغرض، وإنما من أجل رصد أعضاء اليمين المتطرف الذين يأتون لاستفزازنا».

عبَّرَ الإماراتيون عن استيائهم حينما اكتشفوا مؤلفات الشيخ يوسف القرضاوي باللغة العربية في مكتبات الجوامع التي زاروها، ويعتبر اليوم القرضاوي أيقونة الإخوان المسلمين الذين تأويهم قطر «لقد أفهمونا أنَّ صورة الإسلام في فرنسا تم تشويهها على يد المسلمين أنفسهم، تابع المرافق للوفد الإماراتي حديثه مضيفاً طلبوا منا أن نظهر شيئاً من التواضع على غرار ما كان يفعله أجدادنا، وإنَّ رؤيتهم للدين غير مطابقة لتلك التي يجسدها معظم المسلمين الفرنسيين؛ فمفهومهم للإسلام هو مفهوم أمني **(بوليسي)»**.

أصبحت فرنسا بالنسبة إلى الإمارات، بلد المخاطر، كونها خزاناً للشباب الجهاديين وبؤرة للإسلام المضطرب. يفكر الإماراتيون ملياً بمشروع تمويل معهد إعداد أئمة، ويفتشون عن شركاء لإنشاء هذا المعهد ذي الأهداف التربوية وفرنسة الدين الإسلامي. لكن بمثل هذا المشروع نجد أنفسنا مرة أخرى أمام تدخل أجنبي، يفرض على إسلام فرنسا التبعية للخارج حتماً، مع أن ٨٠% ثمانين بالمئة من المساجد الموجودة على الأراضي الفرنسية اليوم هي ممولة من مسلمي فرنسا.

هل يموّل الأمراء الإرهاب ؟

إن العبء الذي يقع على عاتق هيلاري كلينتون في هذا المجال ثقيل «آن الأوان لأن يقوم السعوديون، والقطريون، والكويتيون والآخرون بمنع مواطنيهم من تمويل المنظمات المتطرفة»؛ هذا ما أعلنته مرشحة الديمقراطيين للرئاسة الأمريكية هيلاري كلينتون، وذلك بعد ساعات قليلة من مجزرة أورلاندو التي أوقعت تسعة وأربعين قتيلا في الثاني عشر من حزيران ٢٠١٦، قام بتنفيذها شخص من أصل أفغاني أعلن ولاءه للدولة الإسلامية في ملهى ليلي للمثليين. أضافت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة إنه « يجب أن يتوقف هؤلاء عن دعمهم للمدارس والمساجد المتطرفة التي تسبَّبت بوضع العديد من الشبان على سكة التطرف في جميع أنحاء العالم».

إن السيدة هيلاري كلينتون في وضع يمكنها من معرفة الأشياء على حقيقتها، لذلك أدانت في برقية دبلوماسية لها عام ٢٠٠٩ ما أسمته «التعاون السيئ جداً» لقطر في محاربة تمويل الإرهاب.

إن التقارير الرسمية وغير الرسمية في الولايات المتحدة بهذا الخصوص عديدة، في حين أنه في فرنسا على العكس من ذلك ولو وجه بعض السياسيين أمثال برينو لونير و أرنو مونتوبورغ أصابع الاتهام صوب عروش الخليج، ستجد الألسن صعوبة في الانطلاق بهذا الاتجاه، فقد أضحت الحقيقة معقدة وتائهة بين الاتهامات البذيئة، وإرادة إخفاء الحقيقة حرصاً على عدم إزعاج شركائنا، مع أنَّه لا أحد يجهلُ أنَّ السعودية قامت

علناً، على رؤوس الأشهاد وبموافقة الأمريكيين بتمويل تدريب فيلق من الجهاديين الذين التحقوا بالحرب المقدسة في أفغانستان، عند نهاية السبعينيات ضد العدو السوفييتي المشترك. فماذا حصل اليوم حتى انتشرت داعش كالنار في الهشيم؟ تساءلت محتارة هيلاري كلينتون.

انطلقنا في بحثنا هذا قبل أن تقوم المرشحة الديمقراطية بتوجيه نقدها لهذه الدول الثلاث والحليفة للولايات المتحدة، المتساهلة في مراقبة شبكات تمويل الإرهاب حتى إنه يمكننا القول في كثير من الأحيان إنَّ هناك لعباً على الحبلين، لذا أقل ما يمكن قوله هو أن هذه الاتهامات في بعض الأحيان مسوَّغة .

قطر «التلميذ الأسوأ»

أكد سفير قطر في باريس مشعل بن حمد آل ثاني، في مقابلة أجراها مع جريدة جورنال دوديمانش في شهر تشرين الثاني ٢٠١٥ « لا تتساهل قطر في ترك الأفراد الذين يقومون بتمويل الإرهاب طليقي الحرية ».

أخذنا كلامه على محمل الجد وذهبنا إلى الدوحة لنتحقق من مصداقية الكلام.

يتراوح عدد الأفراد القطريين[1]، الذين يمولون حقيقة منظمات إرهابية، ما بين ثمانية إلى اثني عشر مواطناً قطرياً، ولا سيما فرع القاعدة في سورية[2] – جبهة النصرة – وداعش.

التقينا بأحد الممولين في الدوحة حيث ينعم بحياة هادئة لا يلقى أي إزعاج من قبل السلطات المحلية. كان التواصل مع الشيخ عبد الرحمن بن عمير النعيمي سهلاً جداً، مع أن اسمه كان مدرجاً على القائمة السوداء للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي منذ عام ٢٠١٤. فيكفي أن تترك له رسالة على المستقبلة التي تطالعك بتلاوة قرآنية، لكي يقوم سكرتيره بالاتصال بك ويحدِّد لك موعداً في اليوم التالي للقائه في مكتبه بالمركز العربي

(١) «نادي البحر الأبيض المتوسط (كلوب ميد) للإرهابيين»، التلغراف، ٢٧ أيلول ٢٠١٤.

(٢) تحت الضغط القطري، غيرت جبهة النصرة اسمها في صيف ٢٠١٦ لتصبح جبهة فتح الشام، وأعلنت انفصالها عن القاعدة رسمياً.

للأبحاث والدراسات الذي يقع على أطراف طريق السلوان بمحيط الدوحة.

إن البناء الذي يضم المركز بناء قديم ولا يوحي ظاهره بالثقة.استقبلنا الشيخ النعيمي في قاعة انتظار، برفقة شيخين ملتحيين، وقدم لنا فنجاناً من الشاي، قبل أن يدعونا إلى مكتبه للبدء بهدوء في الحوار معه.الشيخ عبد الرحمن ذو قامة صغيرة ووجه اكتسحه ذقن أشيب كثيف، لكنه بشوش وودي، هو هادئ جداً لكنه حذر، وقد حرص على تسجيل اللقاء « لا أرغب في أن يتشوه كلامي أو يساء فهمي».

وقبل الشروع بالنقاش الجدي، لابد من التعريف بالشيخ النعيمي؟ هو ممول للجهاد، نقل ملايين من الدولارات خلال السنوات العشر الأخيرة إلى فروع القاعدة في العراق، وسورية، والصومال، واليمن، وذلك بحسب تقرير وزارة الخزانة الأمريكية[1] التي تصفه «بالإرهابي المستهدف بنوع خاص« باعتباره داعماً، و راعياً، وممولاً مالياً وتقنياً لمنظمات إرهابية».

يمكن اختصار القول عن شخص الشيخ النعيمي إنّه كل شيء ما عدا أن يكون الرقم الثاني وبإمكانكم الحكم بأنفسكم! كان يدفع شهرياً، في منتصف أعوام الألفين، مليوني دولار لفرع القاعدة في العراق – الجد الأول لداعش، ثم قام بتمويل الجماعة اللبنانية – عصبة الأنصار – في مخيم اللاجئين الفلسطينيين عين الحلوة، جنوب بيروت.

وفي عام ٢٠١٤ قام بتحويل ستمئة ألف دولار إلى أبي خالد السوري، وهو مبعوث رئيس القاعدة أيمن الظواهري إلى سورية. وأخيراً، منح مئتين وخمسين ألف دولار إلى قيادة جماعة الشباب في الصومال، وهي جماعة مرتبطة بالقاعدة.

---

(١) وزارة الخزانة الأمريكية – ١٨ كانون الأول ٢٠١٣.

وبقفا يده كنّس (فنّد) كل هذه الاتهامات قائلاً « قدموا براهين تثبت أننا نقوم بتمويل المتطرفين!» وعزا أسباب اتهامه من قبل الولايات المتحدة الأمريكية إلى قيامه بنشر تقرير عن الطائرات بدون طيار قدمه إلى مختصين من الأمم المتحدة في الثامن من كانون الأول عام ٢٠١٣، يشرح فيه أن الأمريكيين قتلوا بطريقة غير شرعية أبرياء، خاصةً في اليمن حيث قُتل أكثر من تسعمئة وخمسين شخصاً بواسطة رمايات من طائرات بدون طيار.

لا يمكننا القول منذ أن تم تحديده كممول للإرهاب من قبل واشنطن، إنَّ الحليف القطري لكل من الولايات المتحدة ولبلدنا فرنسا، يُظهر أي قدر من الاستعداد لاتخاذ أي إجراءات ضد الشيخ النعيمي، وذلك على عكس ما أكده سفير واشنطن في باريس.

« ليس لدي أية مشكلة مع السلطات القطرية، قالها الشيخ النعيمي مغتبطاً، وأضاف أنَّ مصدر إزعاجي ينحصر في الولايات المتحدة التي تريد أن تكم فاهي. وأنا ممنوع من السفر فقط إلى الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة، والمملكة العربية السعودية».

إن المنظمة غيرالحكومية التي أسسها وهو مقرب من الديوان الأميري هي موضع اشتباه بأن الدولة القطرية هي من تموّلها. من الجدير بالذكر أن علاقات هذه المنظمة مع النخبة القيادية في قطر قديمة.

حصل أن أُلقي الشيخ النعيمي عام ١٩٩٨ وراء القضبان في السجن في الوقت الذي كان فيه على رأس عمله موظفاً في وزارة التربية القطرية، وذلك على أثر عريضة أطلقها معترضاً فيها على تحرر المرأة في المجتمع، ولاسيما تحرّر الشيخة موزة،الزوجة الثانية للشيخ حمد أمير البلاد آنذاك[1].

---

(١) وقع العريضة، إلى جانب الشيخ النعيمي، ثلاثة من أعضاء الأسرة الحاكمة، قطر وتمويل الإرهاب، دافيد أندرو وينبرغ، مركز المقاطعة وحضر التمويل في جنيف. مركز الدفاع عن الديمقراطية – كانون أول ٢٠١٤.

استقبله الشيخ حمد، بعد إطلاق سراحه في ربيع عام ٢٠٠١، وجعل هذا الإسلاميّ لاحقاً مبعوثه إلى القيادات الجهادية مثل اليمني عبد المجيد الزنداني المقرّب سابقاً من ابن لادن، وهو مطلوب أيضاً من الولايات المتحدة الأمريكية.

باختصار شديد، يمكن القول إنَّ الشيخ النعيمي لم يكن محتاجاً لأي شيء، فقد أسس عام ٢٠٠٤ المنظمة غير الحكومية التي تحمل اسم (الكرامة)، ومقرها في جنيف.

إن هذه المنظمة ليست سوى غطاء ففي عام ٢٠٠٩ دعت المنظمة إلى دعم المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال الأجنبي أي الأمريكية. من المعروف أن الولايات المتحدة التي تمتلك قاعدة عسكرية في قطر، تضمن أمن هذه الإمارة الصغيرة. ألا ترون اللعب على الحبلين؛ تركت له السلطات الحبل على غاربه، ينظم محاضرات ومؤتمرات ذات لهجة عنيفة ضد الغربيين. لقد ذهب بعيداً بحيث لم يعد يتوقف[1] عن مواجهته للغرب «تربطني علاقات طيبة بالديوان الأميري، ومن حقي أن أكون على خلاف مع السياسة التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية» ويضيف مؤكداً أنَّ «الأمريكيين هم من طلبوا من السلطات القطرية إيقاف حملة الهبات للتمرد في سورية، وليست قطر من قررت هذا من تلقاء نفسها».

يُقسم الشيخ النعيمي، إلى حد الكذب قسماً مفاده أنَّ قطر لا تمول الإخوان المسلمين أكثر مما تقوم به تجاه الثوار في سورية، ومصر، وليبيا.

(١) إليكم جواب السفير القطري في فرنسا بخصوص الشيخ النعيمي بدقة لجريدة الأحد: «سنتخذ كل الإجراءات الملموسة للتحري والتصرف حسب المقتضى، فيما لو تقدمت الولايات المتحدة بأي وثائق رسمية تثبت تورط الشيخ النعيمي تطال به، لأن قطر لا تتساهل أبداً في ترك أفراد تمول الإرهاب أحراراً».

« قدّمنا دائماً الدعم لخيارات الشعوب، وإذا ما كان الشعب يدعم الإسلاميين فإننا نقوم بدعمه. لقد حصل قبول لجبهة النصرة (الفرع المحلي للقاعدة) عند الشعب السوري على الرغم من كل الاحتجاجات، وطالما أنَّ الناس يريدون جبهة النصرة، وهذا حقهم، أما بالنسبة إليّ فأنا أميز بين جبهة النصرة وداعش. فداعش هي قوة احتلال مؤلفة من مقاتلين من كل أنحاء العالم، أما النصرة فهي مكونة بمعظمها من سوريين» يتحمل الشيخ النعيمي مسؤولية كاملة بدون أي مواربة تجاه مقاطعة مع حركة مصنفة إرهابية من قبل المجتمع الدولي. زار وزير مالية القاعدة باريس، نهاية عام ٢٠١١، دون أي مقاطعة من قبل السلطات الفرنسية، وكان في ذلك الوقت مقرباً من قطر لدرجة كبيرة. ولا زال يتذكر المعارض السوري المقيم في فرنسا، هيثم مناع لقاءه مع الشيخ النعيمي على مائدة عشاء « عرضت عليه الصعوبات التي نعاني منها في مساعدة اللاجئين، فكان جوابه لي « أنت ضد عسكرة التمرد» فقلت له « إنَّ هذا كارثي» فكلمني بحسم قائلاً « لا مفر من العسكرة «وعلى كل حال إذا ما أردت مساعدة عسكرية فأنا جاهز، أما ما يتعلق بمساعدات إنسانية فهذا ليس من شأني»[1]؛ وهكذا أصبحت الأمور واضحة.

لكن يجب القول إن النعيمي ليس حالة فريدة، فهناك أكثر من نصف دزينة من الممولين الآخرين للإرهاب، يقيمون في قطر، يتمتعون هم أيضاً بحفاوة من السلطات. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تتهم وزارة الخزانة الأمريكية كلاً من السيدين سالم حسن قواري وعبد الله غانم خوار بتقديم مئات الآلاف من الدولارات إلى القاعدة لتنفيذ عملياتها، ولتحرير محتجزين من القاعدة في إيران وفي غيرها من البلدان، الرجلان متهمان أيضاً بتسهيل نقل متطرفين للقتال في أفغانستان.

---

(١) لقاء مع أحد المؤلفين – باريس، ١٨ أيار ٢٠١٦.

يرجع تاريخ هذه الأحداث إلى عام ٢٠١٢، بعد سجنهم في الدوحة «لخطرهما على الأمن» بين حزيران ٢٠٠٩ وآذار ٢٠١٠ ، أعيد هذا الثنائي إلى السجن مع بداية عام ٢٠١١ قبل أن تقوم المنظمة غير الحكومية التابعة للشيخ النعيمي المسمَّاة، بـ(الكرامة) بشن حملة إعلامية لتحريرها، وكان لها ما أرادت في تشرين الأول ٢٠١١، حيث تم إطلاق سبيلهما، مع أن الولايات المتحدة الأمريكية وضعت هذا الثنائي على القائمة السوداء الخاصة بها منذ ثلاثة أشهر. أصدرت المحاكم البحرينية حكماً غيابياً على خليفة محمد تركي سبيهي، الموظف في بنك قطر المركزي في شهر كانون الثاني عام ٢٠٠٨ بتهمة تمويل نشاطات إرهابية. قامت الدوحة بعد شهرين من هذا التاريخ بإلقائه في السجن، وقامت الولايات المتحدة الأمريكية بوضعه على قائمتها السوداء، لكن دولة قطر أطلقت سراحه بذريعة عدم كفاية الأدلة، وهذا ما سمم العلاقة مع واشنطن لمدة عام ونيف. وبحسب برقية دبلوماسية أميركية مؤرخة في شهر آذار ٢٠٠٩ ، شرح النائب العام القطري علي بن فطيس المعري[1] بأنه تم تحرير السبيهي من أجل أن يندمج من جديد في المجتمع، وأن إحدى الوسائل لبلوغ هذا الهدف تكمن في السماح له بامتلاك حساب مصرفي يعيل فيه أسرته[2]. ثم صرح النائب العام لاحقاً في الولايات المتحدة، أن السبيهي موضوع تحت المراقبة، وتم تجميد جميع حساباته، إلا حساباً واحداً فقط وهو تحت مراقبة مباشرة من البنك المركزي الذي كان السبيهي يعمل فيه سابقاً. لم تدم مراقبة السبيهي وقتاً طويلاً، لأن الولايات المتحدة قامت في أيلول ٢٠١٤ بمعاقبة مواطنين أردنيين يحملان بطاقة هوية قطرية عملا مع السبيهي عام ٢٠١٢، وقاما معه بترحيل مئات الآلاف من

---

(١) كان المعري مقرباً، ولوقت طويل، من وزيرة العدل الفرنسية السابقة رشيدة داتي، وقد سُمّي من قبل الأمم المتحدة عام ٢٠١٢ محامياً إقليمياً خاصاً لمحاربة الفساد.

(٢) ويكيليكس، ١٩ آذار ٢٠٠٩.

الدولارات إلى القاعدة وقادتها في الباكستان. اعترف بذلك وزير الداخلية القطري نفسه. لا زال السبيهي يحمل جواز سفر، وبطاقة هوية، وإجازة سواقة، كل هذا من شأنه أن يؤجج غضب الولايات المتحدة.

هناك مثال آخر لذلك، هو حالة الأخوين المعري التي تثبت قدم العلاقات بين بعض القطريين وتبعيتهم للقاعدة. تم توقيف الرجلين بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ مباشرة لدورهم العملياتي داخل التنظيم الإرهابي. تم إلقاء القبض على جار الله على الحدود الباكستانية، وعلى علي صالح في الولايات المتحدة، حيث أرسله العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من أيلول، خالد شيخ محمد، لزرع خلية نائمة. وعندما طلبت الولايات المتحدة عام ٢٠٠٨ كشف بعض حسابات علي من قطر لإضافتها إلى ملف القضية، لم تأبه الدوحة للطلب، وقد اشمأزت الإمارة من القرار الأمريكي الذي قضى بإبعاد مواطن قطري معتقل في سجن غوانتنامو إلى السودان.

عندما نقل جار الله في تموز عام ٢٠٠٨، من الباكستان، أصبح السجين الوحيد القطري في غوانتنامو، وذلك قبل ترحيله إلى الإمارة بموجب ضمانات مكتوبة تعهدت فيها قطر بعدم السماح له بمغادرة أراضي الإمارة، وفي حال تم عكس ذلك على قطر أن تقوم بإخبار الولايات المتحدة.

لكن جار الله المعري ظهر في بريطانيا، بداية ٢٠٠٩، حيث تم توقيفه، ثم أخلي سبيله. اعتبر السفير الأمريكي في قطر، أنه ما كان بإمكان المعري القيام بهذه الرحلة بدون موافقة النائب العام القطري، الأمر الذي زاد الطين بلة وزاد من اشمئزاز الأمريكيين. وهكذا يصبح من السهل علينا فهم الأسباب التي دفعت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون منذ عام ٢٠٠٩، إلى التأكيد في برقية دبلوماسية على التعاون مع قطر في مجال مكافحة الإرهاب هو الأسوأ في منطقة الشرق الأوسط.

تعود صلات قطر مع الحراك الجهادي إلى تسعينيات القرن الماضي. إن الإيديولوجيا الدينية التي توجه هذا الجهاد هي الوهابية التي كانت تقوم في ذلك الوقت برعاية وتمويل الفروع الإسلامية الأكثر تشدداً، ففي عام ١٩٩٦ توقفت الطائرة التي كانت تقل على متنها أسامة بن لادن قادماً من السودان ومتجهاً إلى مقر القاعدة الجديد في جلال آباد بأفغانستان. وكان لسان حال زعيم القاعدة يقول لمقربيه «إنَّ قطر هي أرض عبور» نحو الجهاد فيجدر المحافظة عليها[1]. إن المرة الوحيدة التي تعرضت فيها قطر لهجوم إرهابي كانت عام ٢٠٠٥، يُرجّح أن تعود أسبابها إلى قطع قطر تمويلها للقاعدة[2]. وأخيراً يجب الإشارة إلى أن العديد من أفراد العائلة الحاكمة لا يخفون تعاطفهم مع الجهاديين؛ فالولد الثاني لأمير قطر السابق الشيخ حمد من زواجه الأول، ويدعى فهد انضم للقتال إلى جانب المجاهدين عام ١٩٩٣ في الباكستان. إضافة إلى ذلك كان عمه الشيخ عبد الله على صلة وثيقة مع صديقه العقل المدبر لاعتداءات الحادي عشر من أيلول حيث كان يأويه في قطر في بداية التسعينيات. غير أنه وبضغط من الولايات المتحدة، أكبر بكثير مما هو من حليفتها فرنسا، بذلت الدوحة جهوداً لمعارضة تمويل الإرهاب فقامت قطر عام ٢٠١٥ بتجميد حسابات سعد الكعبي وعبد اللطيف القواري ومنعتهما من مغادرة الأراضي القطرية وهما الممولان للإرهاب، وذلك بحسب الأمم المتحدة.

في العام ٢٠١٥ نفسه، غيرت الدوحة بنية لجنة محاربة الإرهاب وذلك باستصدار عدد من المراسيم التي حدّت بموجبها من نشاطات المنظمات غير

---

(١) نقل هذا التصريح ناصر البحري، أحد أفراد الحرس الشخصي السابقين لأسامة بن لادن، في كتاب «تحت ظل ابن لادن» في مقابلة مع جورج مالبرينو، ميشيل لافون ٢٠١٠.

(٢) مقابلة لأحد المؤلفين مع دبلوماسي فرنسي – الدوحة - ١٥ كانون الأول ٢٠٠٦.

الحكومية الخيرية. يشير التقرير الأخير لوزارة الخارجية الأمريكية: « إلى أنه على الرغم من تلك الجهود المبذولة لا يزال هناك وجود لكيانات ولأفراد مستمرين في تمويل المجموعات الإرهابية، ولاسيما فروع القاعدة الإقليمية مثل جبهة النصرة ».وبحسب شهادة أدلى بها صحفي في قناة الجزيرة قال فيها « نستقبل باستمرار رسائل قصيرة حول حملات تبرع إنسانية لصالح سوريين، وصوماليين، وأنا من فلوجة. يمكن المساهمة في هذه الحملات من خلال تقديم ما بين خمسة ريالات إلى خمسمئة ريال (أي ما يعادل ما بين يورو وربع و مئة يورو) الرسائل المرفقة بروابط لتسجيلات يمكن الاستماع فيها لعضات دينية لدعاة سعوديين مثل الشيخ القرني[1] ومحمد ريفي. ينتمي معظم الممولين لأكبر العائلات أو لأهم العشائر، مما يجعل من الصعب على السلطة تنظيف البيت ». هذا هو السبب الذي تبرر فيه السلطة عجزها، فلو هاجمت السلطة أحد أفراد عشيرة قوية، لغاظت العشيرة كلّها وجعلت منها عدواً، وعلى اعتبار أن قطر دويلة صغيرة، فإن هكذا صراع من شأنه زعزعة الاستقرار في كل أنحاء المجتمع. تثير هذه الحجة سخرية أنور قرقش، سكرتير الدولة في الخارجية الإماراتية، ويقول مفنداً هذه الحجة: «مهما يكن،فبإمكاننا فعل أي شيء، إذا ما توفّرت الإرادة»[2].

استبدلت اليوم قطر بالتمويل المباشر للمنظمات الإرهابية صيغة أخرى فبدلاً من تحويل المال، يمكن دفعه على شكل فدية لمختطفي رهائن غربيين، وفي معظم الأحيان يحصل هذا مع الفرع السوري للقاعدة .دفعت قطر الفاتورة لمختطفي الرهائن، منذ عشر سنوات ولما يقرب من عشر حالات خطف يقارب المبلغ الذي دفع إلى جبهة النصرة مئة وخمسون مليون يورو.

---

(١) الشيخ عبد القرني ممنوع من الدخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢) مقابلة مع أحد المؤلفين – باريس – ١٠ أيار ٢٠١٦.

حظرت مجموعة الثمانية، والأمم المتحدة، ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا منذ عام ٢٠١٤، دفع الفديات، لكن هذا لم يمنع بعض الدول كفرنسا، الالتفاف على هذا الحظر.

وباسم عدد من الدول الأوروبية، أنفقت الدوحة وعُمان عشرين مليون دولار وأربعمئة ألف في اليمن لصالح القاعدة في شبه الجزيرة العربية، وذلك من أجل إطلاق سراح زوجين فنلنديين ونمساوي اختطفوا عامي[١] ٢٠١٢ و ٢٠١٣[٢].

«أكد مسؤولون يمنيون في شهر شباط عام ٢٠١٣، أنهم شاهدوا بأنفسهم قطريين ينزلون من قارب سريع خاص ومعهم حقائب مملوءة بالمال ثم ينطلقون برفقة رهينة سويسرية[٣] عائدين إلى قطر ليتم استقباله من قبل السفير السويسري في الدوحة»، وقد حذّر، وزير خارجية اليمن في ذلك الوقت، من خطر هذه التصرفات قائلاً: «يمكن لهذه الترتيبات الملفقة أن تقود إلى كارثة» وأضاف ساخطاً «بإمكان القاعدة وبسهولة تمويل احتلال أراضٍ في الجزيرة العربية».

لكن حصة الأسد في تمويل صناديق القاعدة من قبل قطر كانت من نصيب فروعها في سورية وفي العراق.

أجرى خالد العطية وزير خارجية قطر شخصياً مفاوضات مع متمردين سوريين مقربين من جبهة النصرة، بشأن تحرير تسعة حجاج شيعة تم أسرهم في حلب. دفعت قطر فدية لجبهة النصرة تتراوح بين مئة ومئة

---

(١) «تزداد المجموعات المرتبطة بالقاعدة تمويلاً يوماً بعد يوم عن طريق الفدية» وول ستريت جورنال، ٢٩ تموز ٢٠١٤ – ألين كنيكمر.

(٢) «أوربا تقوم بتعويم القاعدة بدفعها فديات» نيويورك تايمز – ٢٩ تموز ٢٠١٤.

(٣) سيلفيا إيبرهارد كانت محتجزة منذ سنة.

وخمسين مليون دولار، وذلك بحسب ما تناقلته مقالات صحفية في لبنان وتركيا[١].

تم دفع مليون دولار عن كل راهبة محررة: أجل هذا ما دفعته قطر، مرة أخرى في آذار ٢٠١٤، لتحرير ثلاث عشرة راهبة سورية محتجزات في يبرود، بالقرب من حمص من قبل جبهة النصرة. وإذا ما أضفنا ثلاث نساء أسيرات أيضاً، سيصل المبلغ الدسم إلى ستة عشر مليون دولار.

ساعدت وساطة قطرية أخرى، في عام ٢٠١٤، في تحرير الأميركي تيوبادنوس من أيدي جبهة النصرة، ولدى سؤال مسؤولين أمريكيين عن هذا الموضوع، كذّبوا الأخبار التي تقول بدفع جزية، لأن ذلك سيكون خرقاً للسياسة الأمريكية في هذا المجال. إلا أنه وبحسب تحقيق أُجري من قبل صحفيين في الديلي بيست، فقد طلب المختطفون خمساً وعشرين مليون دولار لتحرير أسيرهم[٢].

أجرى المبعوثون القطريون، وعلى مدى أشهر طويلة بدءاً من صيف ٢٠١٤، مفاوضات مباشرة مع النصرة وداعش اللتين تحتجزان معاً ثلاثين عسكرياً لبنانياً أسروا عند الحدود السورية. ومقابل تحرير هؤلاء الرهائن حصل الإرهابيون على تحرير خمسة أسرى من بينهم الزوجة العراقية لزعيم داعش أبي بكر البغدادي التي كانت محتجزة في سجن ببيروت، وبلغ المبلغ الذي دُفِع ثلاثين مليون دولار، مليون عن كل رهينة محررة. وذهبت النصرة تطالب بتحرير عمر القطري، وهو مجاهد قطري تم توقيفه بينما كان ينقل

(١) مقابل تحرير الحجاج، تم إطلاق سراح طيارين تركيين من الخطوط الجوية التركية كانا محتجزين في لبنان، كما قام النظام السوري، من جانبه بإطلاق سراح حوالي مئة سجين. ماك كلاتشي ١٩ تشرين أول ٢٠١٣.

(٢) شكل إطلاق سراح أحد عناصر القاعدة جزءاً من صفقة تبادل مع أسير أمريكي – شان هاريس وجيمس كير شيك في الديلي بيست – ٢٥ كانون الثاني ٢٠١٥.

أموالاً إلى جبهة النصرة و لاسيما إلى شيخٍ قطري تربطه علاقات قوية مع العائلة الحاكمة .

عندما يوجه السؤال إلى المسؤولين عن هذه التمويلات للمجموعات الإرهابية عن طريق الفدية، يتحاشون الجواب عموماً قائلين: « لا تلومونا، والأجدر بكم أن تلوموا الدول الأوروبية التي تلتمس منا ذلك ». تتمترس قطر أيضاً خلف اعتبارات إنسانية إلا أن التقارب الديني بين قطر والخاطفين يلقي بظلاله على «كرم» الدوحة في جميع هذه القضايا التي تحصل في خضم أوضاع معكرة.

«لا يظنن أحد أن القطريين يدفعون فديات من أجل عيون الرهائن، إنما يفعلون ذلك من أجل أن يصبح دور قطر ضرورياً»، هذا ما أكده عنصر في الأمن المصري يعمل لصالح الأمم المتحدة. حيث كان شاهداً على المفاوضات التي جرت لتحرير خمسة وأربعين رجلاً من رجال القبعات الزرقاء المحتجزين لدى جبهة النصرة عام ٢٠١٤ «كان القطريون يخربون أحياناً المفاوضات التي كنت أجريها وأكون فيها على وشك الوصول إلى حل؛ فيتدخلون ويقومون بلعبة قذرة تهدم كل شيء. كما اكتشفت أن الخاطفين كانوا ينتظرون الضوء الأخضر من الدوحة. لذا تولدت لدي القناعة بأن قطر تدعم جبهة النصرة؛ رأيت ذلك بأم عيني»[1] . لقد سمح هذا المنجم من الذهب المكرس للفرع السوري للقاعدة بشراء السلاح وبدفع رواتب للمقاتلين. أما الفائدة بالنسبة إلى قطر فهي مضاعفة؛ إنها تؤدي خدمة لبلد، لا بد عاجلاً أو آجلاً أن تذكر هذا الفضل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي تمول متمردين هم الأقرب للإيديولوجية الوهابية المهيمنة على الإمارة؛ فمن يقدر أن يقول شيئاً عن هذه المساعدة الإنسانية؟

---

(١) مقابلة مع أحد المؤلفين – دمشق - تشرين الثاني ٢٠١٣.

لا تقوم قطر في كثير من حالات الاختطاف، بإعلام الدولة المعنية حيث الرهائن من رعاياها. وهذا ما تبين لنا في تحقيقنا، على الأقل في حال احتجاز السويسرية بياتريسستوكلي، التي اختطفت في شهر نيسان ٢٠١٢ بمنطقة تومبوكتو .

« بلغنا العلم بعد تحريرها أن قطر قد قامت بدفع الفدية إلى جماعة أنصار الدين، ووضعنا أمام الأمر الواقع» هذا ما أكده مصدر أمني سويسري[1].

(١) جماعة أنصار الدين هي إحدى المجموعات المسلحة السلفية الجهادية، وواحدة من الفصائل التي تشارك في الحرب الدائرة شمالي مالي.

الكويت مركز لتمويل الجهاد

بالإشارة إلى الكويت، هذه الإمارة الصغيرة المحصورة بين العربية السعودية والعراق، لا يدور حولها اليوم أي حديث على الإطلاق، مع أن «الكويت أصبحت مركزاً لجمع المال لصالح المجموعات الإرهابية في سورية»، هذا ما حذر منه، منذ نيسان ٢٠١٤، نائب وزير المالية الأمريكي دافيد كوهين. يملك ممولو الجهاد بيتاً في مركز مدينة الكويت، ويتكون هؤلاء الممولون من أساتذة جامعات، ومن رجال أعمال أثرياء، وأحياناً من وزراء. باختصار من نخبة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية. لقد حررت الولايات المتحدة، الضامن لأمن عروش الخليج، الكويت عام ١٩٩١ من الجنود العراقيين التابعين لجيش صدام حسين.

يتصدر هؤلاء الممولين ثلاثة أساتذة في قسم الشريعة بجامعة الكويت. يصعب على المرء تحصيل لقاء معهم. فهم لا يجيبون على هواتفهم المحمولة، اللهم ماعدا الأرقام المعروفة لديهم. وإذا ما أراد أحد التعرف عليهم، فيجب عليه التوجه إلى شبكات التواصل الاجتماعي، حيث تظهر نشاطاتهم المكثفة، و تجد على صفحاتهم أرقام حسابات مصرفية لمن يود التبرع بالمال للمتطرفين الإسلاميين[1].

تم اعتقال البروفسور حامد العلي، المسجل على القائمة السوداء الأميركية بتهمة تمويل القاعدة، لبضع ساعات، في صيف عام ٢٠١٤، أثناء

(١) «الكويت تحت وطأة الحظر المالي المتجدد للجهاد»، الفيغارو - ٢٠ نيسان ٢٠١٥.

عودته من رحلة إلى الخارج[1]، تم استجوابه ثم أطلق سراحه ومن بعدها تم ترقيته إلى منصب رئيس الماجستير في اختصاص الشريعة بجامعة الكويت. كان أيضاً، ولوقت طويل، الموجه الخفي لمجموعة جند الأقصى، المرتبطة في سورية بجبهة النصرة. وبحسب مبدأ من يموّل يقرر، فإن البرفسور العلي هو من يفصل في الحوارات اللاهوتية أو غيرها داخل الفصيل المتمرد.

الشخص الثاني من الممولين هو حجاج العجمي، وهو إمام شاب مولع بالتقنيات الحديثة، وأنفق ثروة أسرته لصالح المتمردين السوريين عبر تنظيمه للديوانيات التي يجتمع فيها لمناقشة كل الأوضاع ويتحلقون مساءً حول الشاي الساخن جداً، أما الشخص الثالث فهو شافي العجمي، هو أيضاً أستاذٌ جامعيٌّ في قسم الشريعة.

لكنه الأشهر بين الأربعة نظراً للإقبال الكبير على عظته يوم الجمعة في ضاحية الكويت حيث يجذب الآلاف من المؤمنين. وكان أيضاً يقدم برنامجاً تلفزيونياً قبل أن يصار إلى إلغائه عام ٢٠١٤. إن كلاً من شافي العجمي وحجاج العجمي متهمان من قبل الولايات المتحدة الأميركية بتمويل داعش والنصرة.

وأخيراً، هناك حكيم المطيري، وهو رجل أعمال ثري. « يملك المطيري استثمارات عقارية في تركيا حيث يتردد باستمرار لإلقاء محاضرات. يصحب معه في كل رحلة حوالي عشرين شخصاً، لكنَّ واحداً منهم لن يعود مع الوفد، إنه حامل الحقائب المسؤول عن نقل الأموال للجهاديين»[2]، هذا ما يتذكره أحد عناصر الاستخبارات، مضيفاً أن تركيا رجب طيب أردوغان تغض الطرف لأن أولويتها كانت ولوقت طويل إسقاط بشار الأسد .

---

(١) « اللعب في النار: لماذا يغامر الممولون الخاصون في تأجيج الصراع في سورية»، إليزابيث ديكنسن. سابان سنتر – كانون الأول ٢٠١٣.

(٢) لقاء مع أحد المؤلفين – الكويت سيتي – ٣١ آذار ٢٠١٥.

علاوة على هذه الحفنة من الأفراد المتغلغلين في قلب جهاز الدولة، فإن هناك خصوصية تتميز بها الكويت، وهو أن هذه الإمارة كانت السباقة في التقدمية فكانت الأكثر تقدمية في كل المنطقة. حيث كان البلد الأول في الخليج، بعد استقلالها مباشرة عام ١٩٦١، الذي له برلمان منتخب انتخاباً ديمقراطياً ودستور. بل إنَّ جمعيات خيرية عريقة استغلت الحرية الممنوحة لها لإيصال المال إلى المتمردين السوريين، وأحياناً للأكثر تشدداً.

إن واحدة من تلك الجمعيات وهي شركة إحياء الإرث الإسلامي، ذات الطاعة للسلفية، تتباهى بالجلوس إلى جانب الوكالات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة، أثناء انعقاد مؤتمرات دولية. علماً أن هذه الشركة مصنفة على اللائحة السوداء منذ عام ٢٠٠٢ من قبل الولايات المتحدة لقيامها بتمويل نشاطات إرهابية في أفغانستان وباكستان ويذكر أحد عناصر الاستخبارات الفرنسية: «لقد حذرت دبلوماسيينا الذين كانوا يرغبون بلقاء هذه المنظمة غير الحكومية».

ويبدو أنه لا يكفي أن تكون هذه المنظمة غير الحكومية على اللائحة السوداء، كي تردعهم عن اللقاء معها.

وإذا ما أجملنا جميع المبالغ المدفوعة، منذ عام ٢٠١١، فإننا سنصل إلى عدة مئات من ملايين الدولارات تم نقلها من الكويت إلى المجموعات السورية المتمردة ومن بينها داعش، وجبهة النصرة، وأحرار الشام، وهذه الأخيرة أي مجموعة أحرار الشام، هي منظمة سلفية ممولة أيّ تمويل من قبل قطر وتشترك أحياناً مع جبهة النصرة لمقاتلة الوحدات العسكرية التابعة لبشار الأسد، لكن هذه المجموعة غير مسجلة على قائمة المنظمات الإرهابية للأمم المتحدة. بدعم من فرنسا، خاصةً، تعتبر الدوحة والرياض هؤلاء المتمردين مقاتلين شرعيين لمحاربة النظام السوري.

يقيم في هذا البلد المحافظ، ومنذ زمن طويل، مئة ألف مغترب سوري، إنها قضية شعبية.

يشرح وزير الإعلام الكويتي لتبرير الدعم لهؤلاء المتمردين قائلاً: «تأثر هؤلاء الناس بشراسة النظام السوري ويرغبون بإظهار تضامنهم[1] فلا غرو في ذلك».

تعددت الدعوات للهبات الإنسانية من أجل شراء السلاح ،منذ بداية التمرد السوري. ولم يتردد الممولون، ومن على شبكات التواصل الاجتماعي، في التأكيد على أن دفع ثمانمئة يورو مثلاً، يمكّن المتمردين من شراء قاذفة صواريخ (آربيجيه) يقول خبير في مكافحة الإرهاب: « رأيت بأم عيني صورة لصندوق بحجم متر مكعب مملوء بقطع نقود تبلغ عشرين ديناراً (أي: ما يعادل ستين يورو) وإذا ما أجرينا عملية حسابية فسيكون المبلغ ضخماً « وسيُرسَل بالطائرة إلى تركيا ومن ثم سيفرغ في صناديق صغيرة للوصول إلى المتمردين عبر الحدود التركية السورية .

تم جمع الأموال في الكويت إما نقداً أثناء انعقاد الديوانيات وإما مباشرة على حسابات مصرفية عبر أرقام الواتس أب على الإنترنيت التي أفلتت من رقابة أجهزة الأمن .

لم تكن السلطات الكويتية لتمارس أية رقابة على ممولي الجهاد، وذلك حتى بداية عام ٢٠١٣ حيث، وتحت ضغط الأمريكيين، انتفضت القيادة الكويتية وعلى رأسها أميرها الشيخ صباح وقبل في شهر نيسان ٢٠١٤، استقالة وزير العدل الكويتي الذي شغل بنفس الوقت حقيبة وزير الشؤون الإسلامية نايف العجمي. إن العجمي بحسب وصف واشنطن له هو «داعية للجهاد» وهذا ما تثبته صوره التي تزين الملصقات الإعلانية لجمع الأموال لصالح جبهة النصرة.

---

(١) لقاء مع أحد المؤلفين – الكويت سيتي – ٣٠ آذار ٢٠١٥ – سيتي في الفيغارو ١٧ نيسان ٢٠١٥.

انتشرت في الجامعات، عن طريق الهمس من الفم إلى الأذن، أرقام الحسابات المصرفية المخصصة لجمع الأموال فقامت السلطات بمنع هذه العمليات. كما قامت باعتقال الأئمة الذين يكيلون المديح لداعش أثناء عظاتهم في الجوامع. إلا أن رد الجهاديين لم يتأخر، ففي حزيران ٢٠١٥، صحت الإمارة الهادئة للمرة الأولى على أصوات تفجير تبنته الدولة الإسلامية واستهدف في يوم جمعة من رمضان واحداً من الجوامع الشيعية الأكثر أهمية في البلاد، وهو جامع الإمام الصادق. نفذ الهجوم انتحاري سعودي، قدم من المطار مباشرة، وقتل سبعة وعشرين مؤمناً، وجرح مئتين وسبعةً وعشرين. صدرت على أثر ذلك أحكام قاسية بالإعدام والسجن على خمسة عشر متهماً ينتمون إلى جنسيات متعددة.

« أما عن ردة الفعل الأمريكية، فقد عبرت وزيرة الخارجية الأمريكية عن ارتياحها للإجراءات التي اتخذتها الحكومة الكويتية في مراقبة وضبط جمع الأموال من قبل المنظمات الخيرية، بما في ذلك مراقبة نقل هذه الأموال إلى مستفيدين دوليين، وضبط الهبات عبر الإنترنت»[1].

أقر البرلمان الكويتي في حزيران ٢٠١٥، قانوناً يجرّم التمويل عبر الإنترنت لأغراض إرهابية، وكان هذا مطلباً أميركياً منذ زمن طويل. ولقد رصدت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ثمانين خرقاً للتمويل غير الشرعي خلال عام ٢٠١٥ ، وهذا ما أدى إلى حل منظمتين غير حكوميتين مرخصتين وعدد آخر من المنظمات المخالفة للقانون.

«على الرغم من كل هذه الجهود المبذولة لا زال بعض الأفراد والكيانات في الكويت مصدراً لتمويل مجموعات إرهابية متطرفة «تأسف لهذه الحالة التقرير الأميركي ويوجز بأنه لا يزال هناك الكثير من العمل على

---

(١) تقرير صادر عن وزارة الخارجية الأميركية عام ٢٠١٥ حول الإرهاب .

الكويت القيام به. فالكويت هي الدولة العضو في تعزيز التعاون الإقليمي بما يتعلق بشؤون الإرهاب.

اكتفت السلطات الكويتية ولوقت طويل باتخاذ أنصاف الحلول. بالتأكيد فرضت السلطات الكويتية في آذار عام ٢٠١٥ منع مغادرة للأراضي الكويتية بحق شخصين من تابعية أجنبية، وجمدت ممتلكاتهم، وهذان الشخصان مصنفان من قبل الولايات المتحدة الأمريكية كداعمين للإرهابيين. لكن في المقابل» لم تتخذ السلطات الكويتية أي إجراء بحق شخص ثالث من الجنسية الكويتية، اسمه مدرج على القائمة السوداء للأمم المتحدة كممول لجبهة النصرة « هذا ما تأسفت له وزارة الخارجية الأمريكية. وبالرغم من كل الإلحاح الأمريكي لا زال التهرب موجوداً.

«حضر إلينا مسؤولان أمريكيان عام ٢٠١٤، يشكوان أن داعش حصلت على مليوني دولار وصلا إليها من الكويت، هذا ما ذكره أحد الرسميين الكويتيين مضيفاً إنَّنا أجبناهُما ماذا يساوي هذا المبلغ مقارنة مع تهريب البترول الذي ينظمه الأتراك بالتنسيق مع داعش [١] كثر أولئك الذين يكيلون الاتهامات للكويت باللعب على الحبلين .

قُتل كويتي عام ٢٠١٤، وهو يجاهد في سورية، حيث يوجد حوالي مئة كويتي في صفوف داعش. يتأسف دبلوماسي بأن ولي العهد الكويتي الشيخ نواف ذهب لتقديم التعازي إلى عائلة الجهادي، ولكن ذلك حسب قول الدبلوماسي «بمثابة رسالة سيئة« يؤكد الشيخ سلمان الصباح أن الكويت تحترم القوانين الدولية، ولكن هناك أفراد خارج السيطرة يستمرون في مواصلة تمويلهم، ولا أحد يستطيع إيقافهم إذا ما عبّؤوا جيوبهم بقطع المال. لكننا اتخذنا إجراءات بحق عدد من هؤلاء والآن حسم الأمر ».

---

(١) لقاء مع أحد المؤلفين. الكويت سيتي، ٢٩ آذار ٢٠١٥.

«ويعترف أحد المسؤولين الكويتيين بأنه من الصعب فعل أكثر من ذلك، لأن هؤلاء الأشخاص متجذرون في قلب المؤسسة، ويسيطر الإسلاميون على وزارتي التربية والنفط، إضافة إلى كون العديد من الممولين ينتمون إلى صفوف المعارضة، وإذا ما واجهناهم فيجب توقع عقابيل خطيرة».

يبرر المسؤولون الكويتيون، دائماً هذه الحجة بضرورة مراعاة جانب بعض الأهداب المجتمعية تحت طائلة خلخلة استقرار البلاد.

إن قطر التي تأوي وكيل أحد الممولين الكويتيين للجهاد، مثلها في ذلك مثل شقيقتها الكبرى المملكة العربية السعودية التي تستغل هامش الحرية الممنوح في الكويت لتمرير الأموال باتجاه المتمردين الذين لا يمتلكون صورة جيدة، وذلك عبر أراضي إمارة الكويت.

السعودية هي التلميذ الأقل سوءاً

خلافاً للفكرة السائدة عموماً في فرنسا، المملكة العربية السعودية هي اليوم التلميذ الأقل سوءاً في الخليج فيما يتعلق بموضوع مراقبة تمويل المنظمات الإرهابية. وقد أكد دبلوماسي أمريكي يخدم في الرياض: « السعودية هي أفضل شريك لنا في الخليج»[1].

وقبل الدخول إلى لب الموضوع، يجب التنويه إلى أنه يوجد ثلاث ملاحظات تفرض نفسها، فمنذ أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، قامت المملكة ببذل جهود كبيرة لمحاربة الإرهاب، إلا أن المهمة شاقة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار اللهجة التسامحية التي أنتجتها السلطات السعودية خلال السنوات الطويلة الماضية، وأخيراً الميثاق الموقع من السلطة مع المؤسسة الدينية، والذي أتاح فرصة أكبر للعب على الحبلين. أشار التقرير المقدم من وزارة الخارجية الأميركية والمكرّس لموضوع الإرهاب في العام ٢٠١٥ إلى «أفراد وكيانات لا زالت مستمرة في الدعم المالي للمجموعات السنّية المتطرفة في سورية، خاصة لفرع القاعدة المحلي، جبهة النصرة ».

كما يبيّن التقرير أنه تم جمع مبالغ غير شرعية من المال سرياً نُقلت إلى خارج البلاد نقداً خلال فترة الحج إلى مكة والمدينة. وبشكل أوضح، يستغل

(١) لقاء مع أحد المؤلفين، الرياض – ١٨ نيسان ٢٠١٦

الممولون السعوديون أوقات الصلاة والتنقل لإرسال حقائب مملوءة بالمال إلى المجموعات الإرهابية.

من هم هؤلاء الأفراد ؟ إنهم أبناء عائلات سعودية كبيرة مثل عائلات فرعون، وراجحي التي ينحدر منها شيخ جماعة أوصى بجزء من ثروته لمؤسسات إسلامية، وكذلك عائلة عبد اللطيف جميل، وكيل تويوتا وهي الماركة الأكثر استخداماً من قبل الجهاديين.

كشف لنا رجل أعمال فرنسي سراً حول عائلة جميل: « أردت القيام بعقد صفقات مع جماعة جميل، لكنني تلقيت تقريراً سلبياً جداً من شركة معلومات اقتصادية، يصف جماعة جميل بأنها مستهدفة ».

يتعلق التقدم الذي حققته السعودية، بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية بالتحقق عام ٢٠١٥ من هوية سبع عشرة شخصية بارزة وسطاء لممولين داعمين بشكل مباشر لداعش[١]. قامت السلطات بتجفيف منابع التمويل[٢].

وصفت السعودية في شهر آذار ٢٠١٦، أيضاً بالتنسيق مع واشنطن، أربعة أفراد آخرين بالإرهابيين لقيامهم بتمويل منظمات إرهابية .

من هي تلك الكيانات التي تغذي المنظمات الإرهابية؟

حلّت السلطات مؤسسة الفرقان عام ٢٠١٥، بسبب قيامها بتمويل الشيخ أمين الله منذ تشرين ثاني عام ٢٠١٣. الشيخ أمين الله هو «ميّسر» للقاعدة ويدير مركز تدريب (غانج مدرسة) لصالح المتمردين الأفغان[٣] .

---

(١) تقرير وزارة الخارجية الأمريكية حول الإرهاب، ٢٠١٥.

(٢) المملكة العربية السعودية ومحاربة الإرهاب، نايل الجبير، بوليتيكو، ٤ نيسان ٢٠١٦.

(٣) تقرير وزارة الخارجية الأميركية حول الإرهاب، ٢٠١٥

حـددت الريـاض، في شـهر آذار ٢٠١٦، جمعيتـين خيريتـين أخـريين تقومان بتمويل المتطوعين الجدد والعمليات التي تقودها القاعدة أو الطالبان أو مجموعة الأشقر الطيبة،كجمعيتين إرهابيتين.

هناك العديد من الأسئلة التي تطرح نفسها، فبدون الضغط الأمريكي هل كان بالإمكان إغلاق هذه المنظمات غير الحكومية ؟ .. غير مؤكد .

وهل كانـت الـسلطات الـسعودية عـلى درايـة بالنـشاطات التـي كـانوا يقومون بها ؟ .. محتمل .

لقد أوضح الباحث تومـاس ويـسر[١] قـائلاً: « نعـرف مـن هـم الأفـراد الـذين مولـوا النـشاطات الجهاديـة، في المـاضي بـشكل شخـصي، إنهـم ليـسوا بالآلاف، حتى إن السعودية لديها فكرة عن أولئك الذين يمولـون الإرهـاب عندهم ».

يتوافق جميع المختصين اليوم على القول بأنه خلافاً لما كانت عليه الحال حتى الحادي عشر من أيلول ٢٠١١، لم تعـد الـسلطات الـسعودية هـي التـي تمـول الجماعـات الإرهابيـة لا في سـورية – داعـش وجبهـة النـصرة – ولا في العراق، ولا في أفغانستان .

ولكـن وبحـسب مـا أعلنـه بـن رودس، في ربيـع عـام ٢٠١٦ وهـو الـشخص الثـاني في مجلس الأمـن القـومي الأميركـي، فـإن الريـاض لا تـولي مسألة تدفق الأموال إلى الإرهابيين القدر الكافي من الانتباه.

« هل كـان لهـذا الانحـراف أن يحـصل بـلا علـم الحكومـة ؟ »، تـساءل هكذا بن رودس الذي لا يعتقد بأن الرياض قد بذلت جهوداً حثيثة أو كافية لوقف سيل المال إلى المنظمات الإرهابية .

---

(١) لقاء مع أحد المؤلفين، باريس ، ٢٣ شباط ٢٠١٦

أثار باراك أوباما، قبل ذلك بعدة أسابيع في لقاء مع المجلة الأمريكية (أتلانتيك) غضب القادة السعوديين عندما وصفهم بـ(فرسان خارج الملعب) وشرح كيف يقوم بلدهم بتمويل إسلام متطرف في أندونيسيا .

« قام الأكاديمي عبد الرحمن مكاوي بتقديم شرح لهذا الواقع قائلاً: تكمن المشكلة في أن هناك أثرياء أنصار لا يأتمرون بتوجيهات الحكومة الرسمية. لقد انسحبوا من منظمات خيرية وإنسانية ليشكلوا جمعيات بأقنية سرية لتمويل الإسلاميين المتطرفين تتمركز بشكل خاص في مدينة دوربان[٢] بدولة جنوب أفريقيا ».

اشترت الدولة السعودية سلامها الاجتماعي ولزمن طويل، تاركة النشاطات الإسلاموية تموّل نفسها بنفسها « أما الآن، فهي تواجه صعوبة في وضع حد لها»، هذا ما عبر عنه توماس ويسر.

هل بإمكانهم الذهاب بعيداً ؟

« تكمن المشكلة برمتها في تقدير الخطر الأمني الذي تجازف فيه السلطات السعودية فيما لو قررت أن تلوي عنق كل هذه الشبكات التي تمول الجهاديين، أضاف الباحث، مؤكداً إنَّ هذه هي عقدة العقد ». ومن جهته أكد خبير في الاستخبارات، مقرب من المملكة ومرتاب أيضا بما يتعلق بإرادة السلطات في تعريض الميثاق الاجتماعي مع المؤسسة الدينية للخطر ، أكد أن مثل ذلك قد يثير بالتأكيد ردود فعل انتقامية ضد مسؤولين سعوديين.

« لايتم في السعودية معالجة أسباب الإرهاب، وإنما تعالج ظاهرته فقط ».

هذا ما توصل إليه موظف في الاستخبارات. تقوم السلطات بالتعبير عن أسفها وتندد حال وقوع حادث ما. ثم يقومون بإزالة الآثار الظاهرة الناجمة عن الحدث المؤسف في المجتمع السعودي. لا تعالج السلطات أصل

السوء، فهي واقعة تحت التأثيرات المختلفة إذ إنّ هناك العديد من الشباب السعودي يدعم داعش. وهنا يجب الإشارة إلى أن طياراً سعودياً شارك في هجوم ضد داعش شنه التحالف الغربي في العراق وسورية، وتلقى بعد يومين أو ثلاثة أيام من هذه المشاركة على عنوان البريد الإلكتروني تهديدات مباشرة.

أن يقوم السعوديون بمعالجة أسباب الإرهاب، فإن ذلك يعني نشر الغصن الذي يجلسون عليه. فبالنسبة لهم اعتقال إرهابي أو شبيه به سيقود حتماً إلى مواجهة مع العشيرة برمتها[1]« شأنها في ذلك شأن الحجة التي سبق وأشرنا لها بخصوص قطر».

يذكر دبلوماسي سابق عمل في السعودية أنه حضر ذات مرة لقاءاً في الديوانيات الخيرية جمع عدداً من المؤمنين بعد انتهاء الصلاة. « شاركت بأمسيات جرت بعد الإطاحة بصدام حسين عام ٢٠٠٣، فكان يتم خلال هذه الأمسيات عرض مشاهد من الهجمات ضد الجنود الأمريكيين على شاشات عملاقة، وفي كل مشهد يحدث فيه تفجير ضد قوة أمريكية تلتهب القاعة بالتصفيق تحية لهذا الفعل. وكان يتم خلال هذه الأمسيات جمع المال للمجاهدين في الفلوجة. وقد تم تخصيص أماكن في الجامع الكبير في مكة المكرمة وفي المدينة للدُعاة المؤثّرين من أجل تطويع مقاتلين جدد، من بينهم العديد من الأفارقة الذين تمت مذهَبتُهم قبل العودة إلى الساحل. وكانت السلطات السعودية على علم بذلك لكنها تركت الأمور دون أي تدخل من قبلها. أي إنّ هناك شكلاً من أشكال «الحماية»[2].

إنها لمهمة شاقة أن تميّز بين الصدقة الحقيقية ودفع مبالغ مشبوهة. ومع ذلك تصدت السعودية لمطاردة هذه الأموال التائهة لدى منظمات إرهابية،

---

(١) لقاء مع أحد المؤلفين، باريس ، ٥ نيسان ٢٠١٦.

(٢) لقاء مع أحد المؤلفين، باريس ، ٥ نيسان ٢٠١٦

وهـذا مـا تؤكـده إحـصائيات مجموعـة العمـل المـالي (GAFI) التـي أحـدثتها مجموعة السبعة (G7) في باريس عام ١٩٨٩. وفيما يتعلق بتجميـد الأمـوال، استهدفت الرياض ألفين و مئة وسبعةً وثمانين شخصاً وكياناً وذلك منذ عام ٢٠١٠[١].

لقد مكنت الإجراءات التي اتخذتها السعودية من استرداد مبلغ فعلي وقـدره واحـد وثلاثـون مليـون وثلاثمئـة وعـشرون ألـف يـورو منـذ عـام ٢٠١٠، ما يضع السعودية على رأس الدول فيما يتعلق باسترجاع مبالغ مـن المال من ممولي الإرهاب. كما تبوأت السعودية الصف الأول بين الدول التـي أصـدرت أحكامـاً بحـق ممـولي الإرهـاب، إذ بلـغ عـدد الأحكـام منـذ عـام ٢٠١٠[٢] ثمانمئة وثلاثة وستين حكماً.

تزودت السعودية، منذ صدمة الحادي عشر من أيلول بترسانة قانونيـة وبأدوات متعددة لمحاربة تمويل الإرهـاب. لكـن العقـدة، في هـذا الموضـوع، تكمن في الاستقلالية المالية التي تـنعم بهـا المـنظمات غـير الحكوميـة الخيريـة. وحـول هـذه النقطـة نفـسها « تحـرص الـسعودية ومعهـا بعـض الـدول عـلى المحافظة على هذه الاستقلالية المالية للمنظمات الخيرية غير الحكومية ».

لنقرأ ما ورد في تقرير الاجتماع الدولي الذي عقد حـول محاربة تمويـل

(١) روسيا فقط هي الدولة التي فاق العدد لديها عما هو في السعودية، حيث بلـغ عـدد المـستهدفين في روسـيا مـن الأشـخاص والكيانـات ثلاثـة آلاف وسـبعة وثمانـين مـستهدفاً – تمويـل الإرهـاب – تقريـر فافـت في مجموعـة العـشرين، تـشرين الثـاني ٢٠١٥.

(٢) « ثلاث وعشرون دولة فقط أصدرت حكـماً واحـداً عـلى الأقـل، في محاربـة تمويـل الإرهـاب: محـور رئيـسي أو ثـانوي؟». شـارلوت سـومانيو– مجموعـة بحـث – ٣٠ تشرين الثاني ٢٠١٥

الإرهاب في البحرين في التاسع من تشرين الثاني عام ٢٠١٤[١]. «برزت خلافات حادة بين الوفود حول تحديد الأهداف، فبينما أعطت الوفود الأوروبية (فرنسا – ألمانيا – بريطانيا) الأولوية للرقابه المادية لعمليات حركة النقود العينية، نأت السعودية وممثلوا دول خليجية أخرى بنفسها عن ذلك.

وهكذا ظهرت من جديد ضرورة ممارسة الضغوط لكي يصار إلى اتخاذ إجراءات حاسمة. الجهة القادرة على ممارسة هذه الضغوط هي الولايات المتحدة، وليس فرنسا المطيعة جداً لحليفتها السعودية، وهذا ما سنراه في الفصل القادم.

لنستمع الآن إلى ما باح به عنصر من المخابرات الفرنسية (DGSE) عام ٢٠٠٧ إلى أحد مؤلفي هذا الكتاب: «مكافحة نقل المال إلى الحركات الإسلامية المتطرفة عبر العالم هي محدودة إلى درجة كبيرة. وحدها منظمة الحرمين غير الحكومية طالتها أحكام، ولكن كان ذلك لذر الرماد في العيون[٢] ليس أكثر، حتى إنّ السلطات نفسها تعترف بذلك. أما المنظمات الأخرى غير الحكومية فهي تواصل تمويل مجموعات في الخارج. وقد أعلن المسؤولون السعوديون أنّ التمويل ليس ممنوعاً بصفة شخصية لحماس، على سبيل المثال إنه إجراء ضمني يطال مجموعات أخرى. الدفع نقداً هو طبعاً ممنوع. لكن حتى إذا لم يعد الدفع مسموحاً نقداً عند الخروج من الجامع، فيمكن تحقيقه بطرق أخرى وفي أمكنة أخرى. لا توحي تصرفات السلطات في هذا المجال، كما في مجالات أخرى، بأنها تبذل قصارى جهدها. فعلى سبيل

(١) تقرير الاجتماع (الذي اطلعنا عليه) موجود في برقية حررها المكتب الاقتصادي في السفارة الفرنسية في البحرين، ١١ تشرين الثاني ٢٠١٤.

(٢) تم اعتقال الإمام شفيق كراسنيكي، في شهر أيلول ٢٠١٤، من قبل شرطة كوسوفو، على أثر استلامه عدة مئات من ملايين اليورو من مؤسسة الحرمين.

المثال لا الحصر: كان سليمان بوتي، وهو مسؤول عن منظمة غير حكومية إسلامية يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، تم الاشتباه به بتمويل المتمردين الشيشانيين، وُضع على القائمة السوداء الأميركية. تم ترحيله إلى السعودية حيث صرَّحَ بحرية كاملة ما يشاء على صفحات الصحف السعودية. باختصار تمارس السلطة إلى حد ما لغة مزدوجة، فهي تتصرف تصرفاً حيادياً. علماً أنها مدركة للتهديد الذي يمثله الإسلاميون على استقرار النظام، لكنها لم تنخرط فعلاً في محاربتهم فبعض الأئمة الإسلاميين لا ينتقدون صراحة النظام، لكن لهم الحرية المطلقة في مهاجمة الغرب[1].

وبما أن السعودية بقيت هدفاً دائماً للإرهابيين، فقد وافقت على بذل جهود كبيرة إلى أن انتزعت اعتراف حليفتها الولايات المتحدة بذلك.

«قامت الرياض وللمرة الأولى عام ٢٠١٥، بإصدار «كشوف مصرفية موثقة « للاستجابة لطلب من شؤون الإعفاء القضائي»[2] ومن جانبه، سنَّ البنك المركزي قواعد صارمة بخصوص نقل الأموال.

بعد أن تم إدراج القاعدة وداعش وحزب الله ومجموعات أخرى على اللائحة السوداء للمنظمات الإرهابية عام ٢٠١٤، جرّمت السعودية عدداً من الأعمال: كالمشاركة في النزاعات أو التشجيع عليها في بلدان أخرى، أو سن فتاوى بهذا الخصوص، أو تقديم الهبات المالية إلى منظمات متطرفة، أو التواصل مع أفراد أو مجموعات يؤوون أعداء للمملكة أو الاتصال بهم.

تم في عام ٢٠١٣، إيقاف أكثر من ألف إمام عن العمل لما يقومون به من تبشير بإسلام متعصب، وفي عام ٢٠١٤ تم تعليق عمل تسعمئة آخرين. وقبل هذا العام بعشر سنوات خلت أي في عام ٢٠٠٣، قام وزير الشؤون

---

(١) لقاء مع أحد المؤلفين، باريس، ٦ تشرين الثاني ٢٠٠٧.

(٢) تقرير وزارة الخارجية الأميركية ٢٠١٥ حول الإرهاب.

الإسلامية بطرد ثلاثمئة وثلاثة وخمسين إماماً، وعلق نشاطات ألف وثلاثمئة وسبعة آخرين، لأنهم يحرضون على التعصب. باختصار، يمكن القول إن صعوبة اجتثاث هؤلاء كمن يفرّغ البحر بواسطة ملعقة صغيرة

هبَّ مواطنون سعوديون لمساعدة مدينة الفلوجة المتمردة، وذلك من خلال الهجوم الذي شنه الجيش العراقي، في صيف ٢٠١٦، ضد المدينة السنية التي تسيطر عليها داعش. حاول الجنرال منصور التركي، الناطق الرسمي باسم وزارة الداخلية السعودية، تبرير ذلك أمام صحفي أمريكي بقوله « لا نستطيع كبح جماح عواطف الناس » إنها الذريعة نفسها التي ساقها وزير الإعلام الكويتي، ومع ذلك فعدونا هو نفسه داعش التي تتم محاربتها، لكن بالنسبة للمولين الأولوية هي لمحاربة العراق الشيعي وعرّابه الإيراني اللذين يجب دحرهما.

وهنا في ترتيب سلم الأولويات يكمن خلافنا مع حليفنا السعودي. ومع ذلك، فقد تورط في التاسع عشر من آب عام ٢٠١٤، المفتي الأكبر للسعودية، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الشيخ، وهو السلطة الدينية الأعلى في المملكة، في إصدار بيان يصف فيه داعش والقاعدة بالخوارج « كما سبق له في عام ٢٠٠٨، أن عبر عن رأيه هذا داعياً الشباب بعدم الذهاب للقتال في الخارج الأمر الذي لم يمنع أكثر من ألفي سعودي للالتحاق بداعش في العراق وسورية مع بداية عام ٢٠١١.

وإذا ما بذل السعوديون جهوداً كبيرة في الداخل، فإنهم على عكس ذلك في الخارج حيث يستمرون في اللعب بالنار. فهم على سبيل المثال لا زالوا يمولون بعض المجموعات المسلحة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. إنهم يستخدمون ذلك كورقة تستخدمها مخابراتهم ضد أعدائهم الإيرانيين أو الشيعة.

لا أدل على ذلك دلالةً من ماجد الماجد، هذا السعودي الأربعيني، الذي كان واحداً من أمراء مجموعة عبد الله عزام الإسلامية، المقربة من

القاعدة، في مخيم عين الحلوة، جنوب بيروت. غادر الإسلامي بيروت في صيف ٢٠١٢، ليحارب ضد نظام بشار الأسد في سورية المجاورة. أعلنت السلطات اللبنانية، في الأول من كانون الثاني ٢٠١٣، إلقاء القبض عليه واعتقاله.

تم إعلام الجيش اللبناني، قبل أربعة أيام من قبل وكالة الاستخبارات العسكرية الأمريكية، بأنه قد تم نقل ماجد الماجد إلى مشفى في بيروت بهدف إجراء غسيل كلى له. حدد الجيش اللبناني موقع المشفى الذي يوجد فيه الماجد، قبل أن يتم اعتقاله أثناء هروبه، في السادس والعشرين من كانون الأول بسيارة إسعاف باتجاه عرسال التي تشكل القاعدة الخلفية للمتمردين السوريين قرب الحدود السورية اللبنانية، وسيبقى اعتقال زعيم القاعدة في لبنان سراً من أسرار الدولة.

السعودي ماجد الماجد مطلوب رسمياً بتهمة الإرهاب في بلده ولكنّه يرتبط ارتباطاً شبه رسميّ بعلاقة مع مكتب الاستخبارات التابع للمتهور جداً الأمير بندر بن سلطان، وهو الذي أقسم: « بأن يسقط نظام بشار الأسد بكل الوسائل » اعترف ماجد الماجد، أثناء التحقيق معه، بأنه كان وراء العديد من العمليات ومن بينها تفجير السفارة الإيرانية في بيروت في التاسع عشر من تشرين الثاني عام ٢٠١٣، والتي ذهب ضحيتها خمسة وعشرون قتيلاً، أصيب الماجد خلال هذه العملية بجروح، وتم نقله إلى مشفى في بيروت وبقي فيها عدة أيام لأخذ العلاج قبل أن توافيه المنية، لكنه وقبل وفاته، أدلى باعترافات أمام محققين من المخابرات العسكرية اللبنانية، قاموا بنقلها إلى المخابرات المركزية الأمريكية CIA في بيروت.

أوضح قاضٍ عسكري لبناني مطلع على شهادة الماجد اعترافات هذا الأخير قائلاً: «حاول السعوديون التأثير على اللاجئين الفلسطينيين عن

طريق زج مرتزقة معروفين بعدائهم الصارخ لأي سلام مع إسرائيل، ومنهم أفراد مجموعة عزام. الذين اتجهوا عند خروج القوات السورية من لبنان، صوب السعوديين الذين مولوهم منذ أعوام ٢٠٠٦-٢٠٠٧. وكان عزام يتلقى مالاً من السعودية على شكل مبالغ صغيرة عن طريق المصارف، وقد اعترف ماجد الماجد بذلك»[1].

بالنسبة للسلطات اللبنانية، ما كان يمكن أن تحصل هذه القضية الكئيبة في لحظة أسوأ من اللحظة التي حصلت فيها. تزامنت وفاة ماجد الماجد في الرابع من كانون الثاني ٢٠١٤، مع وجود قائد الجيش اللبناني، العماد جان قهوجي، في السعودية التي أعلن ملكها، قبل عدة أيام من الزيارة أمام فرانسوا هولاند، بأن بلاده ستقوم بتمويل شراء أسلحة فرنسية لصالح الجيش اللبناني بمبلغ ثلاثة مليارات دولار أمريكي.

تضاعف الضغط السعودي على لبنان.« وقعت المخابرات العسكرية اللبنانية في مأزق لا تحسد عليه، وهي التي استجوبت ماجد الماجد، يتابع القاضي شرحه، فقد أعطت المخابرات العسكرية اللبنانية وعداً للسعودية بأنها لن تحقق مع الماجد، ولكن وفي الوقت نفسه تلقت المخابرات العسكرية اللبنانية معلومات تفيد بتمويل سعودي لإسلاميّ مجموعة عبد الله عزام .

إنها معضلة حقيقية فمن جهة، لا يستطيعون إفشاء السر، ومن جهة ثانية سيتراجع السعوديون عن وعدهم بمساعدة الجيش اللبناني. ولأجل كل هذه الأسباب التزم قائد الجيش اللبناني، العماد جون قهوجي، الصمت. شاهدت بأم عيني تقرير ضابط في المخابرات العسكرية اللبنانية يقول فيه إنه تم نقل الأموال إلى مجموعة عبد الله عزام من قبل أشخاص سعوديين يعملون لصالح السلطات السعودية : إنه غطاء استخباراتي» .

---

(١) مقابلة مع أحد المؤلفين. بيروت، ١٢ كانون الثاني ٢٠١٤.

التأثير على الدبلوماسية الفرنسية

إن مسؤولي الاستخبارات والدبلوماسية الفرنسية في الشرق الأوسط على دراية بالشطط الذي ينتهجه حلفاؤنا في الخليج. ولكن هل هذا من فعل قادتنا السياسيين؟ «وهل تحتوي البطاقات الصفراء التي ترسلها لهم الإدارة العامة للأمن الخارجي (DGSE) على كل ما يعرفه هذا الجهاز عن شركائنا؟» يتساءل، مرتاباً، جنرال من فئة خمسة نجوم يطلع يومياً على تقارير «البيسين» أي «المسبح»، وهو اللقب الذي أعطي للاستخبارات الخارجية والجواب هو على الأغلب كلا.

كان هذا الجنرال ذو المرتبة العالية يعرض، قبل كل اجتماع مصغر لمجلس الدفاع[1]، على السيد وزير الدفاع، جان إيفلودريان، المعلومات التي بحوزته «حدث أن أخبرته عن بعض ممارسات قطر والسعودية، وقلت له، على سبيل المثال، ذات مرة إنّ الدوحة والرياض هما من يموِّل المجموعة المتمردة أنصار الدين في مالي[2]، كان الوزير ينظر إلي ولا يقول لي شيئاً وينتقل للحديث عن موضوع آخر».

بالنسبة للوزير، «لدينا علاقات طيبة مع قطر» هذا ما أكده شخصياً، في شهر آذار ٢٠١٦ للصحافة، على هامش معرض الصناعة الدفاعية البحرية في الدوحة. الدبلوماسية الاقتصادية ميالة لأن تتبوأ الصدارة على

(١) يضم الاجتماع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، وبعض الوزراء، ويكرّس لدراسة قضايا أمنية.

(٢) جماعة أنصار الدين هي مجموعة سلفية مسلحة، أسسها وأدارها إياد غالي، وهو واحد من زعماء المتمردين الطوارق.

كل ما تبقى، مثل العلاقات المريبة لأمرائنا الأعزاء مع بعض المجموعات الدينية المتطرفة[1]، ومثل التعدي على حقوق الإنسان في بلادهم.

عندما أثار إعدام السعودية في شباط ٢٠١٦، لسبعة وعشرين محكوماً موجة عارمة من الإدانة الدولية، انفردت ردة الفعل الفرنسية بأنها كانت خجولة لأقصى حد، حيث اكتفت بالتعبير عن حزنها على قطع الرؤوس، انتظرت فرنسا ثماني وأربعين ساعة لتعلن احتجاجاً محدوداً، في حين أن العواصم الأوروبية والأميركية أعربت مباشرة عن إدانتها الشديدة.

جعل لوران فابيوس، وهو على رأس وزارة الخارجية الفرنسية ما بين ٢٠١٢-٢٠١٦، الدبلوماسية الاقتصادية تتصدر جميع الأولويات «لقد كانت ديدنه» هذا ما أفاد به أحد معاونيه. إنها هاجس فعلي بالنسبة له، وذلك لكون هذه الممالك تحتضن مناجم النمو الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط إضافة إلى أنها عرفت كيف تقي نفسها من عدم الاستقرار الناجم عن الربيع العربي . اختارت فرنسا غض النظر عن حلفائها السنيين.

«تلقينا تعليمات بعدم بث أو نشر أية أخبار عن الاغتصابات التي ترتكب في مجال حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية. لا يرغب لوران فابيوس أن يسمع شيئاً من هذا القبيل»، كشف ذلك معاونه .

ذهب لوران فابيوس بعيداً جداً، باسم هذه الدبلوماسية الاقتصادية، في الدفاع عن مصالح الخليج، في مواجهة إيران صاحبة الأطماع النووية التي تشكل مصدر قلق شرعي. لم يكن حصاد هذا الولاء على مستوى الطموحات. هذا ما اشتكى منه العديد من الصناعيين الذين التقيناهم طيلة فترة إجراء تحقيقنا هذا، ملقين باللوم على الانقياد الأعمى لقادتنا تجاه مسؤولي الخليج . وكم من وعود بقيت دون أن ترى النور، كان أمراؤنا الأعزاء قد قدموها .

---

(١) استقبل الملك سلمان الرئيس السوداني عمر البشير في قصره بطنجة، في شهر تموز ٢٠١٦، علماً بأنه مطلوب من محكمة الجنايات الدولية. أمير قطر يستقبله أيضاً بشكل منتظم.

خائبو الدبلوماسية الاقتصادية

التقى السفير الفرنسي، برتران بوزاتسنو ، محمد بن سلمان، ابن الملك ومدير مكتبه ووزير الدفاع ورئيس مجلس النمو الاقتصادي، وذلك في الحادي والعشرين من نيسان ٢٠١٥ أي قبل أسبوعين من زيارة الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند إلى الرياض، كتب السفير الفرنسي في برقيته المرسلة إلى باريس، بعد لقائه مع رجل السعودية القوي، إنَّ الملك سلمان. «قد اتخذ قراراً باستثمار خمسين مليار دولار دفعة واحدة في السوق المالية الفرنسية وفي بعض المشاريع الثنائية التي تعتبر حيوية لإعادة إطلاق عجلة الاقتصاد.

وسيبذل جهوداً أخرى لتحصيل خمسين مليار دولار من دول مجلس تعاون الخليج الأخرى «أي قطر، والكويت، والإمارات العربية المتحدة، والبحرين» .

ضخ مئة مليار دولار من قبل السعودية وأمرائنا الأعزاء لصالح الاقتصاد الفرنسي!

إنه أمر يستحق التزام الصمت إزاء بعض الملفات المزعجة. استقبل لوران فابيوس ومن لف لفيفه هذه الأنباء بحماس كبير رأوا فيها إرادة السعودية «دعم أحد حلفائها الاستراتيجيين، خاصة في ملفي اليمن وإيران» اللذين تدعم فرنسا فيهما دون أي تحفظ مواقف السعودية.

أحيا بعض العاملين في وزارة الخارجية ومعهم بعض الصناعيين المقربين من السعودية اهتماماً كبيراً لدى وزير الخارجية لوران فابيوس بهذا السوق المثمر.

« يوجد لدى لوران فابيوس نزعة تجارية، هذا ما يتهمه به معاونه السابق الوزير المهووس تماماً بالخمسين مليار دولار المنتظرة من السعودية. فقد فرض اجتماعاً أسبوعياً مخصصاً لهذا الملف برئاسة مدير مكتبه، الكسندر زيكلر، علماً أنَّ التزامه واجب، كما جرت العادة في مثل هذه الحالات، إن إدارة هكذا اجتماع هي من اختصاص الأمين العام للوزارة. تردد الكسندر زيكلر إلى السعودية عدة مرات سراً، مثله في ذلك مثل كلود غيان في عهد نيكولا ساركوزي، وذلك لمعالجة الأمور المتعلقة بمبلغ الخمسين مليار دولار، أردف الدبلوماسي مضيفاً أن لوران فابيوس أعاد إلى العمل بجانبه مقربين كانوا يعملون معه في الثمانينات من القرن الماضي عندما كان فابيوس رئيساً للوزراء: لويس شويتزر، وسيرج وينسبيرغ وجان دوكر فاس دوي في مجال التعاون الطبي، وليونيلزينسو الذي كان يحظى بعناية فائقة وحماية خاصة من قبل فابيوس[1]«كان رئيس الدبلوماسية الفرنسية، سيد هذا الملف بعد أن أقصى وزير الاقتصاد عنه مقتنعاً أن حلفاءنا الخليجيين سيعيدون المصعد مترنحاً بالنقود المعدنية (أي إنهم سيهيلون المال بلا كيل)».

وبما أنلوران فابيوس هيمن أيضاً على الخلية الدبلوماسية في قصر الأليزيه، لم يعد أحد يشكك في صدق رئيس الوزراء السابق، ولاسيما أنه بعد أسبوعين في أيار ٢٠١٥، تعلن قطر أمام فرنسوا هولاند، وجان

---

(١) شغل لويس شويتزر منصب مدير مكتب لوران فابيوس عام ١٩٨١، قبل أن يتبعه إلى قصر ماتينيون عام ١٩٨٤. وسيرج وينبيرغ كان هو أيضاً في مكتب فابيوس. أما الفرانكو بيني لويس زينسو فقد كان ريشة رئيس الوزراء السابق لوران فابيوس.

إيفلودريان، ولوران فابيوس نيتها بشراء أربع وعشرين طائرة حربية من طراز (رافال) من فرنسا بمبلغ قدره ستة مليارات وثلاثمئة مليون يورو؟

اقترح السفير الفرنسي في الرياض برتران بوزانسونو، في برقية مرسلة إلى باريس، أن تقوم فرنسا سريعاً بتحديد، «المشاريع ذات الأولوية التي يمكن أن تنجز بفضل هذا الدعم». وتم الجواب بالإيجاب حيث قامت الإدارة العامة للخزينة في وزارة الاقتصاد بتقديم جرد للمشاريع التي يمكن للسعودية تمويلها.

حذرت وزارة المالية الفرنسية في اللائحة التي حددتها « من المفيد أن نبقى حذرين إزاء العرض السعودي، وكذلك حول المبالغ المذكورة (مئة مليار دولار) مستندة في ذلك على تجربة المحاولة السابقة في التعاون المالي بناءً على إدارة مبدئية للسعوديين في استثمار ما يعادل خمسة عشر مليار دولار في الاقتصاد الفرنسي، حيث برزت صعوبة إيجاد مشاريع عملية تلبي مطالب الممولين السعوديين خاصة فيما يتعلق بالمخاطر والأرباح ».

في الواقع قبل الخمسين مليار دولار، أو المئة مليار المنتظرة كانت السعودية قد أعلنت عن استعدادها لضخ خمسة عشر مليار في عجلة الاقتصاد الفرنسي الواهن والله وحده يعلم كم يحتاج الاقتصاد الفرنسي لكي ينتعش. ذهبت كل هذه الوعود هباءً منثوراً دون أن يكون لها أي مستقبل في التطبيق. وقع الاختيار على صندوق الإيداع والأمانات (CDC) وبنك الاستثمار العام (Bpi) لإدارة المشاريع الاستثمارية السعودية في فرنسا. إلا أن المشاريع التي تم اختيارها من قبل المؤسستين (CDC)و (Bpi) لم تلق اهتمام البنك المركزي السعودي باعتبارها ليست تنافسية بالقدر الكبير « إن ما يهم المستثمرين السعوديين هو المشاريع ذات الربحية السريعة»، هذا ما شرحه خبير في وزارة المالية الفرنسية.

يفضل السعوديون الاستمرار في الاستثمار في صناديق فرنسية لاستثمار رأس المال مثل صناديق أرديان وبي (PA1) ضعف المردود في المشاريع الأخرى. إن هذه الصناديق هي صناديق مالية حصراً تنجز عملياتها الصناعية في أوروبا أكثر مما تنجز في فرنسا، ولا تخلق إلا القليل من فرص العمل والوظائف داخل الأراضي الفرنسية.

نجد لزاماً علينا القول إن اختيار صندوق الإيداع والأمانات لم يكن موفقاً بل ليس أفضل الخيارات « إنه الصندوق نفسه الذي أدار الصندوق القديم « لضاحية قطر»[١] والذي تحول إلى صندوق للشركات المتجددة، هذا ما ذكرته كورين فابر مستشارة في العلاقات الحكومية. هل تعلمون ما هو عدد المشاريع التي تم تمويلها ؟ إن العدد هو واحد أو اثنان فقط. وذلك بسبب تركيز ورقة الطريق القطرية على تمويل الإقلاع لشركات نامية ذات مردودية جلية. إنها شركات تعيش ضائقة تلتمس مساعدة القطريين. إلا أن دفتر الشروط تم تنظيمه تنظيماً سيئاً. حصل الإخفاق نفسه مع الإمارات العربية المتحدة لذات النمط من الصناديق. الفشل أيضاً كان على موعد بخصوص الخمسين مليار دولار التي وعد بها الملك سلمان، فقد انقضى أكثر من سنة ونصف على وعود الشراكة التي بقيت رسالة ميتة. وأما فيما يتعلق بالخمسين مليار دولار التي التزم الملك سلمان تأمينها من قبل أصدقائه أمراء الخليج، فلا أحد يعرف شيئاً عن حقيقة هذا الموضوع. باختصار خيبة أمل مستمرة . ومما زاد الطين بلة هبوط أسعار إيرادات الميزانية ونقصها الذي نتج عن تدهور الأسعار ، لدرجة أن الملك سلمان وولده طالبوا الشركات التي تستثمر في بلدهم العودة لتأهيل موظفين « يلزم تحقيق نتائج ملموسة في بلدهم والعودة لتأهيل موظفين»، «يلزم تحقيق نتائج ملموسة للشباب العاطلين عن العمل»، يلح بإصرار القادة السعوديون على محاوريهم الأجانب.

---

(١) تم تغيير اسمه بطنة ورنة ليصبح: أبطال فرنسا المستقبليون.

ترك لوران فابيوس وزارة الخارجية مورثاً فشلاً نسبياً «للدبلوماسيته السنية». كان فابيوس يمقت هذا التعبير « الدبلوماسية السنية»! ولم يكن بوارد فابيوس الاعتراف بأن موقفه الصلب جداً تُجاه الملف النووي الإيراني، إنما يحركه « طغيان العقود « الذي ميّز دبلوماسيتنا في العالم منذ خمسة عشر عاماً ونيف.

يبرز البعض، في زواريب السلطة في باريس، تهديداً آخر يلقي بظلاله على تعاوننا مع السعودية. إن هذا التهديد غير معروف لدى الكثيرين وهو يتعلق بالنووي. إذ إنَّ المملكة تفكر، منذ عدة سنوات، بإطلاق برنامج نووي ضخم. قامت فرنسا بتقديم دراسات حول جدوى بناء مفاعلين نووين (EPR)، وطمع كل من شركة أريفا وشركة كهرباء فرنسا بتأمين التقنيات اللازمة لهكذا مشروع[1]. حذرت المديرية العامة للطاقة والمناخ، في برقية أرسلتها إلى لوران فابيوس عشية سفره إلى السعودية بتاريخ ١٢ نيسان ٢٠١٥، وحملت البرقية الموجهة إلى رئيس الدبلوماسية الفرنسية العنوان الآتي « لا انتشار: يجب وضع هذا التعاون تحت الرقابة الشديدة ».

وتذكر البرقية أولاً أن السعودية لم توقع البروتوكول الإضافي مع أنها عضو في معاهدة عدم الانتشار. لقد قبلت المملكة، بعد مفاوضات شاقة استمرت عدة شهور مع فرنسا، بذكر عبارة « بالحدود الدنيا « في نص الاتفاق الثنائي الذي يربطها بفرنسا التي التزمت بفكرة التوقيع عليه.

يقضي عدم التوقيع على البروتوكول الإضافي بمنع أي تعاون في مجال التخصيب والمعالجة، لكن ليس بيع المفاعلات.

---

(١) سبق للرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي أن اقترح على العقيد محمد القذافي، أيام كانت تربطهما صداقة، تعاوناً في المجال النووي السلمي، لكن هذا التعاون أيضاً لم يبصر النور.

إذا ما كانت المصالح التجارية للمساهمة الفرنسية في البرنامج الكهرونووي جلية، فيجب أن لا يحجب ذلك: آ- مخاطر الانتشار لهكذا برنامج، وبـ(تماسك الخطاب الفرنسي في المنطقة، خاصة فيما يتعلق بإيران. إذ إنه من الصعب أن تعطي لأحد ما ترفض أن تعطيه لآخر).

استطردت البرقية مضيفة أنه «تم تشكيل لجنة متابعة تقودها السكرتارية العامة للدفاع والأمن الوطني (SGDSN) لتنكب على الاستراتيجية التي يجب تطبيقها في هذا المجال مع السعوديين، وذلك دون المس بالمصالح الصناعية» وحسب الأنباء الأخيرة الواردة لم يكن هناك أية تعليمات من قبل (SGDSN).

إذا ما تجاوزنا كل الوعود التي لم يتم الإيفاء بها، هناك سؤال يطرح نفسه وهو كم تبلغ العقود الموقعة مع السعودية طيلة هذه السنوات الأخيرة؟ أجاب عن هذا السؤال السفير الفرنسي بيرتران بوزانسنو، الذي يوجه إليه غالباً الاتهام بأنه باع مبكراً جداً لباريس توقيع تلك العقود:

٢٠١٢: مليار ومئتان وستة وعشرون مليون دولار

٢٠١٣: ملياران وثلاثة وثمانون مليون دولار

٢٠١٤: ثلاثة مليارات وأربعمئة مليون دولار

٢٠١٥: ثلاثة عشر مليار وثلاثمئة وتسعة وثلاثون مليون دولار، تم توقيع قسم كبير منها مع أيرباص (AIRBUS) يعود لإعلانات سابقة.

يمكن إيجاز ذلك بالقول إن الشركات الفرنسية باعت، خلال أربع سنوات، إلى السعودية ما يقارب عشرين مليار دولار. إنها حصيلة معقولة، لكنها أدنى بكثير من الآمال التي عُلقت على التقارب مع الرياض على أثر الزخم الذي أعطاه فرنسوا هولاند منذ عام ٢٠١٢.

لم تسفر الزيارة الأخيرة التي قام بها محمد بن سليمان إلى باريس، في حزيران ٢٠١٦، عن أي إعلان، وظهرت علامات الانزعاج على الرئيس الفرنسي من هذه الزيارة: « قدم فرانسوا هولاند، أمام محمد بن سلمان، مونولوجاً طويلاً عما تنتظره فرنسا من عقود، هذا ما نقله دبلوماسي متابع لهذا الملف مضيفاً، أن محمد بن سلمان، في جوابه، اكتفى بعرض رؤيته الجديدة للسعودية في الألفين وثلاثين». إنه باختصار حوار الطرشان «لم يتحقق حتى ما كان ينتظره الأكثر تشاؤماً، أي بيع مدافع من عيار ١٠٥ ملم وطوافات بحرية» هذا ما عبر عنه متأسفاً مسؤول عسكري مشارك في المساومات التي جرت فيها على كل مكامن القوة الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية والأمنية، في حين أنه لم يبق في باريس سوى يومين فقط، ألغى خلال زيارته انعقاد مجلس رجال الأعمال السعودي و الفرنسي، وقاطع دعوة إفطار وجهها له وزير الدفاع الفرنسي جان إيفلودريان، قبل أن يغادر باريس متوجهاً إلى جزر المالديف لقضاء نهاية رمضان فيها.

لكن ما الذي يمكن أن يشتريه أمراؤنا الأعزاء المعروفون بدقتهم المفرطة في الأعمال، من فرنسا.

فرنسا أبعد من أن تُشترى ثانية من السعوديين

لنبدأ أولاً بذلك الذي يثير الضجة من حوله «تشتري قطر فرنسا ثانية» هذا ما يتذمر منه في معظم الأحيان عدد من القادة السياسيين والصحفيين، الراغبين بركوب موجة الهجمة القطريّة التي تحوز على شعبية عند الفرنسيين. أين نحن من هذا المذكور؟ تمكنا من الاطلاع على المبالغ التي استثمرت من قبل قطر، والسعودية،والإمارات العربية المتحدة في فرنسا.

جاءت المفاجأة الأولى، بأنه ليست قطر هي التي قد تعاود شراء فرنسا، بل هي دولة الإمارات العربية المتحدة . ففي الواقع، يحتل المستثمرون الإماراتيون المرتبة الأولى بين مستثمري دول الخليج في فرنسا، برصيد استثماري مباشر، قدره ثلاثة مليارات وسبعمئة مليون يورو عام ٢٠١٤ ، وذلك بحسب ما ورد في برقية المديرية العامة للخزينة التي اطلعنا عليها . لقد تضاعفت مرتين مشتريات الإماراتيين من فرنسا خلال سنتين من الزمن، ومع ذلك لا أحد يتحدث عن ذلك، وخلافاً لما يقوم به جيرانهم القطريون، لايظهر الإماراتيون مشترياتهم من فرنسا بشكل إعلامي ومباشر.

يوجد حوالي خمسين شركة في فرنسا تعود ملكيتها الكاملة أو المشتركة لرؤوس أموال إماراتية، هذا ما أوردته برقية أخرى للمديرية العامة للخزينة التي اطلعنا عليها.

تتركز المشتريات الإماراتية بشكل خاص في مجالي الأثاث والعقارات، والقليل منها يذهب إلى مجال الصناعة.

تحتل قطر المرتبة الثانية بمبلغ استثماري قدره مليار وسبعمئة واثنان وخمسون مليون يورو في العام ٢٠١٤، أي ما يعادل نصف المبلغ الذي تستثمره دولة الإمارات العربية المتحدة. يتم إنجاز العدد الكبير من استثمارات قطر من قبل الصندوق السيادي، قسم الاستثمار القطري (QIA).

انتهج قسم الاستثمار القطري، منذ وصول الشيخ تميم إلى سدة الحكم بعد والده حمد عام ٢٠١٣، سياسة الكتمان في استثماراته بالخارج، وهذا تغيير إلا أن التغير الذي لم يحصل هو الغموض الذي لا زال يحيط بهذه الاستثمارات. وهناك أمر مؤكد هو أن قطر تستثمر في بريطانيا أكثر بكثير مما تستثمره في فرنسا، إذ تبلغ نسبة الاستثمارات القطرية في بريطانيا ٢٩% من مجموع استثماراتها، في حين أن ١١% منها فقط تستثمر في فرنسا و ٧% في ألمانيا.

لم نعثر على أية معطيات لا من حيث الطبيعة ولا من حيث المبالغ تفيد بوجود استثمارات خاصة لقطريين إلى جانب الاستثمارات القطرية الحكومية. إنه الغموض مرة أخرى، ومع ذلك نحن نعلم أن القطريين يركزون استثماراتهم في مجالي العقارات والفندقة، وأن معظم هذه الاستثمارات تحصل في بريطانيا، وفي فرنسا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه البلدان الثلاثة هي التي تقوم على أمن الدوحة. تبلغ هذه الاستثمارات حوالي ثلاثين مليار دولار، يعود نصفها أو أكثر لشخص رئيس الوزراء القطري الأسبق حمد بن جاسم. يأتي في طليعة استثمارات هذا الأخير الأسهم الكبيرة في دوتش بنك، ملكيتها لحمد بن جاسم. وبالمقابل فإن أمير قطر السابق الشيخ حمد حاز على ملكية مخازن البرنتان، وكافيه

دولابيه بالقرب من الأوبرا في باريس. يمكننا اختصار كل ذلك بالقول وعلى عكس الفكرة السائدة، إنَّ قطر لم تشترِ فرنسا ثانية.

وأخيراً أين نحن من حليفنا السعودي؟

إن الملاحظة الثابتة الأولى هي أن الاستثمارات السعودية المباشرة في فرنسا متواضعة جداً، وهي في مجملها لا تزيد عن ثمانمئة وتسعة وعشرين مليون يورو، أي لا تتجاوز ٣% من إجمالي استثمارات السعوديين في الخارج. إنها استثمارات وضيعة إذا قيست بالكم الضخم من الجهود التي بذلها المسؤولون الفرنسيون لجذب السعودية إلى السوق الفرنسية. بالتأكيد لا يشمل هذا المبلغ المسجل لدى بنك دوفرانس الاستثمارات العقارية (أي أبنية السكن الثاني) والتي تقدر بعدة مئات من ملايين اليورو. ولكن حتى إذا ما أدخلناها في الحسابات ستبقى المساهمات السعودية في الاقتصاد الفرنسي هزيلة.

تحتضن فرنسا أربعاً وعشرين شركة سعودية معظمها، بحسب برقية من السفارة الفرنسية في الرياض مؤرخة بشهر كانون الثاني عام ٢٠١٦، أعيد شراؤها من كيانات موجودة في الأصل. ويعمل لديها بشكل مباشر ثلاثة آلاف ومئتين من الموظفين، وتحقق أرباحاً يصل رقمها جمعاً إلى ما يقارب ثلاثمئة وخمسين مليون يورو سنوياً.

يأتي على رأس المستثمرين السعوديين في فرنسا الأمير وليد بن طلال، عبر مملكة الأراضي المستأجرة (كينغ دوم هولدنغ)، حيث تبلغ أسهمه في فندق جورج الخامس حوالي ثلاثمئة وخمسة وأربعين مليون يورو، وفي ديزني لاند حوالي ١٠% أي ما يعادل مئة وأربعة وعشرين مليون يورو، ويليه الأمير متعب، ابن الملك السابق عبد الله، الذي أعاد شراء فندق كريون بمبلغ مئتين وخمسين مليون يورو، كما أعاد شراء مجموعة رولاكو (التي كانت تعود ملكيتها لعبد العزيز سليمان) التي تملك ٤.٩٩% من كلوب مير

(أي ما يعادل تسعة وأربعين مليون يورو) وكذلك سعودي أوجيه في المجموعة الدولية أوجيه بمبلغ قدره عشرون مليون يورو.

تتصدر الاستثمارات الثلاثة الأحدث والأكثر شهرة قائمة الاستثمارات السعودية في فرنسا، وذلك بكونها قد سمحت بالمحافظة على الوظائف في شركات فرنسية تواجه صعوبات، هذه الاستثمارات هي: شركة المنجم في مجال الطيور دو (doux) بمبلغ خمسة وعشرين مليون يورو، ومجموعة البابتين في شركة بوتي جان بمبلغ سبعة ملايين وخمسمئة ألف يورو، وأخيراً مجموعة الأيووني في شركة سيراغا بمبلغ مليونين ونصف مليون يورو.

لعبة قطر المكدرة في مرجنا الأفريقي المربع

يقوم حلفاؤنا في قطر والسعودية، بعيداً عن أراضينا، بأفعال تتناقض أحياناً مع مصالحنا على المدى المتوسط و لاسيما ما يحصل في مرج فرنسا المربع بأفريقيا الساحلية.

إذا ما صمت جان إيف لودريان، وزير الدفاع الفرنسي، أمام معاونيه، فإن هناك بعض العسكريين الذين عبروا عن تذمرهم علناً، بسبب تزايد أمثلة التعطيل واللعب على الحبلين بشكل كبير خلال السنوات الأخيرة.

« كان المسلمون يمارسون سابقاً إسلاماً أخوياً متسامحاً ذا طابع بدائي على الأراضي الأفريقية، فهي أرض خصبة لتأثير بلدان الخليج عليها نظراً لفقر الناس الذين يعيشون عليها» يختصر الأمر بهذه الكلمات الصحفي دافيد باشي الذي أمضى وقتاً طويلاً مراسلاً في باماكو بمالي .

قامت ثلاث طائرات قطرية من طراز c-130 بسحب أشخاص كانت الدوحة قد أحضرتهم إلى شمال مالي، وذلك بالضبط، قبل التدخل العسكري الفرنسي في شهر كانون الثاني ٢٠١٣ في شمال مالي لمنع الجهاديين من الانقضاض على العاصمة باماكو.

أدلى عضو سابق في القوات بشهادة قال فيها « تلقت الفرق المشتركة في شمال مالي للتحضير للتدخل الفرنسي، تعليمات بضرورة التريث في الوصول ريثما يقوم القطريون بترحيل رجالهم عبر المراكب . يا له من عائق أن نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع حلفائنا. لقد أغضب الوجود القطري كثيراً

مـن العـسكريين الفرنـسيين وعنـاصر الـ DGSF، الـذين تـساءلوا لماذا هـذا التعلق بأناس لا يعتمد عليهم؟

من كان هؤلاء الرجال؟ إنهم جهاديون، وليسوا مواقع تعمل تحت غطاء منظمات غير حكومية (الهلال الأحمر القطري أو قطر شاريتي) هذا ما أشارت إليه جريدة الكانار أنشيني قبل ستة أشهر[1].

أجـاب دوني بيتـون، مـدير مكتـب وزيـر الخارجيـة الفرنـسية لـوران فابيوس، لدى سؤاله من قبل أحد مؤلفي هـذا الكتـاب «طلبـت بإلحاح مـن برنارد باجوليه، مدير الـ DGSF أن يجيبني حـول الوجـود القطـري في شـمال مالي، فأجابني مؤكداً بأن إدارته لا تملك أي دليل على هكذا التـزام مـن قطـر في شـمال مـالي» وذلـك عـلى عكـس مـا يؤكـده العـسكريون الموجـودون عـلى الأرض، لكـن لا وزارة الخارجيـة، ولا الـDGSF يرغبـون بـالتورط كـي لا يحرجوا حليفنا القطري.

ماذا كان يفعلُ هؤلاء الجهاديون المدعومون من قطر في شمال مالي؟

إنهـم يقومـون، عـلى الأغلـب، بتـأطير وتأهيـل مجموعـة انخرطـت في الحرب ضد الحكومة المالية، التي جاءت العملية الفرنسية لحمايتها.

من الجدير ذكره أن قطر، بلسان رئيس وزرائها حمد بن جاسم والشيخ صاحب النفوذ يوسف القرضاوي، انتقدت بشدة العملية الفرنسية في مـالي. فهـي بالنـسبة لحمـد بـن جاسـم «لـن تحـل المـشكلة» ومـن جهتـه، أدان القرضـاوي مـا سـماه «العمليـة المتسرعة» ذات «النتـائج الخطـيرة» أي التـي تعني مزيداً من «القتلى» و «الدمار».

يثـير نـوع آخـر مـن التـدخل القطـري في مـالي، وهـو الأحـدث وغـير المعروف لدى الكثيرين، عدداً من الأسئلة في قيادة الأركان العامة للجيوش

(١) «تـساعد قطـر المتمـردين الإسـلاميين في شـمال مـالي» لوكانارأنـشيني– ٦ حزيـران ٢٠١٢.

الفرنسية. إذ إنّ ضابطاً رفيع المستوى أدلى بدوره بشهادة قال فيها «قمنا بتركيب رادار، في شمال مالي، على مدرج في تومبوكتو، يسمح بتحديد ما نسميه في لغتنا الاصطلاحية «ارتفاع وسرعة الطيران لحماية النشاط الجوي»، أي إننا بفضل هذا الجهاز نستطيع اليوم تحديد من يطير في هذه المنطقة. أجل، فمنذ أن ركبنا هذا الجهاز في ربيع ٢٠١٦، وذلك في إطار تعزيز جهودنا في محاربة الجهاديين، تبين لنا أن طائرات مسجلة لقطر تحلق في سماء شمال مالي».

ماذا تفعل هذه الطائرات هنا أيضاً، حيث لا أحد ينتظر أن يرى طائرات قطرية هنا؟

« أكثر من ذلك، نقول إنّ الطيارين القطريين ليس بإمكانهم الطيران لهكذا مسافات بعيدة عن بلادهم، يلزمهم التزود بالوقود، لأن الطائرات من طراز C-130 لا تمتلك ما يكفي من الاستقلالية، تحتاج لأن تتزود من مكان ما. من هي الجهة التي تزودها إذن؟ تساءل أحد عناصر القوات الخاصة السابقين بالتأكيد ليست مصر فهي عدوة قطر. من الممكن أن تكون ليبيا أو تركيا التي تنوي إنشاء قاعدة عسكرية في قطر»

لنوجز ذلك بالقول، وبعيداً عن العلاقة «اللطيفة» التي يمتدحها جان إيف لودريان، إنَّ هناك ارتباكاً وإرباكاً قد شابا سلوك قطر في إفريقيا .

حلفاؤنا الموالون لنا في مالي ليسوا هم بالضرورة حلفاء قطر الذين من بينهم قسم كبير من الطوارق الذين يطالبون بالاستقلال أو بحكم ذاتي في ليبيا لكن هذا ليس كل شيء. فلنتذكر ملاحظة الجنرال ذي الخمسة نجوم « يتلقى أنصار الدين في مالي دعماً تمويلياً من قطر والسعودية« وقد سبق أن رأينا في الفصل السابق أن قطر قد دفعت لأنصار الدين فدية لتحرير رهينة سويسرية كانت محتجزة لديهم.

لم يقتصر الوضع فقط على مالي، ففي ليبيا أيضاً أغاظ اللعب القطري نيكولا ساركوزي، وذلك عندما دفع بالعملية العسكرية ضد العقيد القذافي الذي يقمع شعبه، خاصة في مدينة بنغازي.

فضّل حليفنا القطري دعم قوات إسلامية ذهبت إليهم معظم الأسلحة التي قدمها الغربيون في إطار دعم الثوار الليبيين. إن حلفاء قطر ليسوا هم بالضرورة حلفاءنا.

يذكر عسكري مطلع « لقد تلقى، مركز التخطيط وقيادة العمليات (CPCO)في تلك الفترة،تعليمات بنقل معدات عسكرية أولاً إلى إيستير ومن ثم إلى طولون لتحط من بعدها طائرات قطرية من طراز ١٧ C لتقوم بتحميل المعدات، ثم وصل زورق سحب إلى مدينة طولون لينقل المعدات العسكرية، وقد جرى كل ذلك لمصلحة قطر التي سلمت كل هذه المعدات لمليشياتها في مصراتة وبنغازي.

وعلى الأرض تم تجنب احتكاكات بين الحلفاء في اللحظة الأخيرة، هذا ما ذكره عسكري فرنسي في الأركان العامة « كاد جنودنا المغاوير أن يشتبكوا مع القوات الخاصة القطرية في ليبيا. وقد اطلعت على تقرير مفرزة قيادة العمليات الخاصة (COS)، وقد ورد فيه:

«عندما يقوم القطريون بتأمين السلاح للإسلاميين، فلا يمكن أن يكونوا معنا في الخندق نفسه».

لكن، من جهة أخرى، إنه الوقت الذي يعتبر فيه وجود قطر ضرورياً، لذلك لاقى دعمها الدبلوماسي لنا كل تقدير « وجدنا أنفسنا وحيدين في ليبيا عند قيامنا بالضربات الأولى، هذا ما أشار إليه الأميرال مارين جيليه[1]، مضيفاً بأن قطر ومن بعدها الإمارات العربية المتحدة هما أول بلدين انضما

---

(١) مقابلة مع أحد المؤلفين. باريس، ٢ كانون الأول ٢٠١٥

إلينا، وبفضلهم استطعنا إقامة تحالف دولي، لا يضم فقط دولاً غربية: أمّنوا لنا ضمانة عربية، وإن لم يفعلوا سوى ذلك فقد وجب علينا شكرهم» .

لم يكن وارداً أبداً إعادة طرح مسألة صوابية هذه الحرب. ولا يرغب قادتنا إطلاقاً سماع أصوات ناشزة بهذا الصدد « ذكر أحد موظفي وزارة الدفاع، بأنه عندما شنت العملية العسكرية في ليبيا، كان لدى بعض المصادر التي تعمل لدى شركات عسكرية خاصة متواجدة على الأرض الليبية. أخبرت، حينذاك، المستشار الاستراتيجي في قصر الاليزيه « هل تعلم أن بنغازي تكتظ بالإسلاميين» أردفت قائلاً له أيضاً «رجلكم الذي تعتمدون عليه عبد الحكيم بلحاج[1] كان قد قاتل في أفغانستان» رد علي بالقول «هذا ليس صحيحاً».

تغرق ليبيا اليوم في فوضى عارمة وشاملة حيث أصبحت بلداً بلا دولة، تنتشر فيها الميليشيات من كل حدب وصوب. وفي كل هذا الخضم تبدو باريس، بين مختلف حلفائنا الخليجيين، مضطربة وفي حيرة من أمرها.

« يدعم الإماراتيون الجنرال حفتر[2]، وفي المقلب الآخر تستمر قطر في تمويل ميليشيات مصراته، هذا ما انتهى إليه مقرب من جان إيف لودريان .

تؤكد إدارة الـ DGSE، أن دولة الإمارات قامت بتسليم الجنرال حفتر خمسمئة سيارة، منها ثلاثمئة مدرعة. إضافة لذلك هناك جسور جوية

---

(١) قاتل بلحاج القوات السوفييتية في أفغانستان في الثمانينيات وهو أمير لمجموعة إسلامية تحارب في ليبيا. شارك في الجهاد بالعراق في سنوات الألفين إلى جانب الدموي أبو مصعب الزرقاوي، رئيس فرع القاعدة في العراق.

(٢) عُيّن اللواء خليفة خفتر، في الثاني من آذار ٢٠١٥، قائداً للجيش الوطني الليبي غير المعترف به من قبل المجتمع الدولي . ليبيا مقسمة إلى قسمين، بين الغرب الواقع تحت هيمنة الإسلاميين المقربين من قطر، والشرق الذي يقوده الجنرال حفتر.

متواترة لطائرات إماراتية من طراز C17 مع مطار بنغازي. وبالمقابل، تدعم قطر ميليشيات مصراته، أي نفس الميليشيات التي دعمتها لحظة سقوط القذافي، والتي قدموا حينها لنا عبد الحكيم بلحاج، خلال اجتماع عقد في لندن حضره بالإضافة للأميركيين والبريطانيين قطر والإمارات. قالت لنا قطر حينذاك: «لدينا في ليبيا نقطة ارتكاز قوية، إنه رجل الساعة» قمنا بإبداء بعض الملاحظات حول ماضيه في أفغانستان. لكن قلل القطريون من أهمية ماضيه الجهادي، وهم مستمرون في تمويله».

تابع هذا الموظف الكبير قوله: «نحن الفرنسيين لم يعد بإمكاننا الفصل بأي شيء، لأننا واقعون بين قطر والإمارات، فأصبح نهجنا السياسي متذبذباً ومتردداً إلى حد كبير. وفي لحظة ما كان على الـDGSE أن تقوم بدعم الجنرال حفتر، انطلاقاً من أولوية دعم جميع من يحارب داعش. ومن ثم طفا على السطح في طرابلس إبراهيم السراج وحكومة الوحدة الوطنية التي يرأسها، فأصبح قوام خطابنا، الآن، وعلينا دعم الحكومة، لكن مع الاحتفاظ بمكان للجنرال حفتر. بالمختصر المفيد علينا أن نوحد بين جميع هذه العناصر».

لنسوق المثال الآتي الذي يوضح مدى الغموض في المواقف: انتشرت القوات الفرنسية الخاصة على جانبي المتحاربين أي بالقرب من قوات الجنرال حفتر ومن حكومة سراج المنافسة على حد سواء .في الوقت الذي تربك به قطر عملنا في مالي، وبشكل أقل من ليبيا، قامت دولة الإمارات العربية المتحدة بدفع فرنسا لتغيير سياستها اتجاه مصر في صيف ٢٠١٣ .أطاح الجيش المصري، في الثالث من تموز ٢٠١٣، بالرئيس الإسلامي، محمد مرسي، الذي تم انتخابه قبل سنة.

أكدت باريس، بعد هذه الهزة العنيفة في مصر، دعمها لمسار سياسي «شامل» يتضمن وجود القوة السياسية الأساسية في مصر، أي الإخوان المسلمين. لم يوفر الدبلوماسيون الفرنسيون، خاصة في الكواليس، انتقادهم ضد الجيش الانقلابي.

دعا وزير الخارجية الفرنسي، لوران فابيوس، إلى معاقبة زعيم مصر الجديد الماريشال عبد الفتاح السيسي بالحدود الدنيا، وذلك خلال اجتماع وزراء خارجية الدول الثمانية والعشرين الأعضاء في الاتحاد الأوروبي، الذي انعقد في الحادي والعشرين من آب ٢٠١٣.

اكتفى الاتحاد الأوروبي، الحريص على ترك الباب مفتوحاً، بإرسال تحذير إلى السلطة الجديدة في مصر التي يهيمن عليها الجيش.

السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا هذا الالتفاف في الموقف الفرنسي، علماً بأن الوضع في مصر قد تدهور على أثر اعتقال آلاف الإسلاميين؟

أعطانا عسكري رفيع المستوى، يعمل في قيادة الأركان العامة، الجواب اليقين: «أبلغ مسؤولون إماراتيون وزير الدفاع جان إيفلودريان الرسالة التالية: احتجتم لنا في حربكم بمالي، ومالي ليست حربنا، ومع ذلك قمنا بمساعدتكم مادياً ومالياً. جاء الآن دور حربنا في ليبيا وفي مصر. نحن بحاجة إليكم، ومع من تقفون؟»

رفعت فرنسا بعد ذلك حظر بيع الأسلحة إلى مصر، وسلمت فرنسا لمصر، بعد أقل من سنتين، أربعاً وعشرين طائرة مقاتلة من طراز رافال. قامت كل من الإمارات العربية المتحدة والسعودية بتسديد الفاتورة.

ينظر العسكريون ورجال الاستخبارات الفرنسية بعين الريبة أيضاً إلى ما يقوم به السعوديون والقطريون على ساحة أخرى من الساحات الإفريقية وهي تشاد. إذ تدعم كل من الدوحة والرياض مجموعات معارضة للرئيس إدريس دبي، وهو حليف باريس، حيث يقيم أحد الأخوين إرديمي اسمه تيمان في قطر، وكذلك سفير تشاد السابق في السعودية، محمد نوري، وعبد الوحيد نوري مكاي. لا بل أكثر من ذلك، «لدينا شك بأن قطر بدأت بتمويل الأعمال العسكرية لمجموعات مناهضة للرئيس دبي، الذي لا ترى فيه قطر مسلماً جيداً». هذا ما نقل إلينا من أوساط وزارة الدفاع الفرنسية.

وتجري تدريبات هذه المجموعات في الخارج،وذلك بحسب ما نقله النائب في المعارضة ناكار اليجيي ورونغار.

يشك الجيش الفرنسي بأن الدوحة تقوم بتمويل مدارس ودُعاة، ولاسيما في أبيشيه في الشمال، وهذا تطور حديث نسبياً.

«يتمدد الآن التأثير باتجاه الجنوب في المناطق التي يقطنها مسيحيون»، بحسب الصحفي ماكليلا ميغبلا»[1].

تمول قطر والسعودية، اللتان تدعمان بالأسلحة والتعريب، بناء الجوامع التي يشيدها التشاديون تحت اسم «الجوامع الخضراء»، اللون الأخضر هو لون الإسلام.

انتشر في أنحاء تشاد الحجاب الكامل للنساء، منذ عشر سنوات، وهذا لم يكن يشكل جزءاً من العادات والتقاليد المحلية سابقاً في هذا البلد.

«تقوم المراكز الثقافية القطرية والسعودية في تشاد بتوزيع الطعام، خلال شهر رمضان، كما يقومون بدس قطع من النقود تبلغ عشرة آلاف فرنك تشادي (أي ما يعادل خمس عشرة يورو) داخل نسخ من القرآن يوزعونها في جوامعهم على المؤمنين، كما لوكان الله يوزع المال على المؤمنين. هذا ما أوضحه ماكاليلا ينغبلا، الذي أضاف، إنه لم يعد بالإمكان افتتاح بارات (محلات بيع مشروبات روحية) بالقرب من الجوامع في الأحياء التي يقطنها مسلمون في العاصمة نجامينا. وبالمقابل، شهدت الأحياء التي يسكنها مسيحيون انتشاراً واسعاً لبناء جوامع جديدة مثل مرسال أودمبي». تمارس قطر والسعودية نشاطهما التبشيري، في تشاد، من خلال المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الذي يديره الدكتور حسن حسين، أحد تلامذة الزعيم السوداني الأسبق حسن الترابي.

(١) لقاء مع أحد المؤلفين. باريس، ١٠ تموز ٢٠١٦.

«يغض الرئيس التشادي إدريس دبي النظر عن هذه النشاطات، لأنه لا يريد إثارة عداوة مع دول الخليج، الذين بإمكانهم تمويل وتسليح المتمردين التشاديين الذين من شأنهم زعزعة استقرار سلطة دبي». هذا ما ذهب إليه جاسوس سابق، سبق أن حذّر الـ DGSF، منذ عدة سنوات، لكن دون أن يلقى تحذيره أي صدى. وللتذكير فقط أرسلت تشاد قواتها إلى اليمن في إطار الحرب التي تقودها السعودية ضد المتمردين الحوثيين المقربين من عدوها الإيراني.

يختتم النائب يورونغار عرضه قائلاً «يشكل المال الخليجي قنبلة موقوتة في الساحل الإفريقي، وهو يخرب الإسلام لصالح الوهابية». لم تلق كل هذه التحذيرات آذاناً صاغية، لا في وزارة الخارجية، ولا في قصر الأليزيه، ولا حتى في وزارة المالية، حيث المراهنة على الاستثمارات القطرية في إفريقيا، هذا ما كشفته مذكرة أرسلتها الإدارة العامة للخزينة للسيد لوران فابيوس، بتاريخ الثلاثين من نيسان عام ٢٠١٥، أي قبل أيام عدة من زيارة فرانسوا هولاند ووزير خارجيته إلى الدوحة من أجل توقيع عقد شراء أربع وعشرين طائرة من طراز رافال[١] «ستكون المحادثات التي ستجري بين فرانسوا هولاند والأمير فرصة سانحة للارتقاء بالاستثمارات المشتركة الفرنسية القطرية». وقد عبرت قطر عن رغبتها بتمويل مشترك لمشاريع في إفريقيا، بالتعاون مع شركات فرنسية. ومن المناسب أن يتم التوجه كأولويّة في هذا المطلب باتجاه مشاريع تطويرية بشروط مالية قليلة الربحية، ولكن بهدف أن تكون رافعة قوية للمصالح الفرنسية « باختصار الأعمال هي الأعمال.

---

(١) مذكرة لعناية الوزير، الإدارة العامة للخزينة – دائرة الأعمال الثنائية وتدويل الشركات (FCP/2015/25930).

الطريق معبدة باتجاه الجهاد في سورية

أصبح تأثير حلفائنا القطريين والسعوديين، منذ عام ٢٠١١، ثقيلاً جداً في سورية. إذ تتشارك باريس، والرياض، والدوحة، ومنذ اللحظات الأولى لبداية الثورة، بنفس الهدف: الإطاحة بالرئيس بشار الأسد، الذي، بحسب رأيهم، يقمع المظاهرات السلمية بالدم. قامت دول الخليج بدعم عسكرة التمرد، التي بدأت بعد بدء الاحتجاجات مباشرة، وتحتضن هذه الدول العديد من المعارضين السوريين، وهم في معظمهم إسلاميون ازداد نفوذهم شيئاً فشيئاً في أوساط التمرد المسلح ضد الأسد.

لقد جرى كل هذا الانحراف للتمرد على مرأى ومسمع المسؤولين الفرنسيين. لم يعترض المسؤولون الفرنسيون على نوايا قطر والسعودية، كيف لا وهم متفقون معهم على الإطاحة ببشار الأسد، كما أنهم حريصون على عدم إزعاج الدبلوماسية الاقتصادية التي ينتهجها لوران فابيوس.

وأخيراً انفكت عقد الألسن،بعد سنوات عدة، حيث قام عدد من الدبلوماسيين بتحذير الوزير لوران فابيوس. وتم نشر عدد من البرقيات بهذا الخصوص في وسائل الإعلام[1]. وقد قبل، في إطار بحثنا هذا، مسؤول رفيع المستوى في وزارة الخارجية، وعنصر سابق في الـ DGSE، أن يبحثا معنا في هذا الموضوع الذي طالما بقي محرماً.

---

(١) «كيف تبيع فرنسا نفسها للملكة العربية السعودية»، صحيفة ماريان، من ١١ إلى ١٧ آذار ٢٠١٦.

لقد نبهت إدارة التنبؤات في وزارة الخارجية السلطات العامة من الخطر المحدق للإسلاميين. وتضم الإدارة بين أعضائها عسكرياً وعنصراً سابق في الـ DGSE، احتفظ بخبرة أثناءَ خدمته السابقة. وقد قامت بنشر عملاء لها في جنوب تركيا، الموضع الذي يستخدم كقاعدة خلفية للمتمردين الذين تم إعدادهم في سورية.

« عبر عناصر الـDGSE، المطلعون عن كثب على كل هذه الأمور، عن قلقهم العميق، وهم يعتقدون، بحسب دبلوماسي، بأننا سنقع في الفخ وستنقلب الأمور ضدنا. بالتأكيد، يحمل مبعوثو وزارة الخارجية بعض الحقائب المملوءة بالمال إلى المتمردين، لكن في الوقت الذي يقدمون لهم مئة، فإن ممولي الخليج يدفعون لهم ألفاً، هذا ما يرويه موظف رفيع المستوى في وزارة الخارجية. كان الممولون الخليجيون يقولون للمتمردين المعتدلين الذين كنا نتعامل معهم «هيا تعالوا معنا، سنزودكم بالسلاح، شريطة أن تعطوا لمجموعاتكم اسماً ذا إيقاع إسلامي، وأن تتركوا ذقونكم طويلة» يسخر المتمردون الذين لا يتعاطون الدين من ذلك، والذي يريدونه فقط هو المال لشراء السلاح. لقد سئم بعض عناصر الـDGSE من هذه اللعبة، وأعربوا عن ذلك علناً إلى العقيد الذي يحاورن».

تعود هذه المعلومات الثمينة، التي وصلت بفضل هذا العريق في المهنة، إلى إدارة التنبؤات في وزارة الخارجية.

لكن لا يبدو أن هذه المعلومات قد وصلت إلى قيادة الأركان العامة في وزارة الدفاع. يذكر ضابط ذو خمس نجوم « أذكر أنني، ذات يوم، طلبت معلومتين من الـ DGSE، الأولى تتعلق بشبكات التهريب التي تقوم بمساعدة داعش في تركيا بتسويق بترولها، إلا أن البطاقات الصفراء التي أعادتها إدارة الـ DGSE بقيت غامضة « ويبدو أن البيسين لا يرغب بوضع ما يملكه من معلومات بتصرف إدارة منافسة له كما هي العادة. كان يجب

انتظار هذه اللحظة، خريف ٢٠١٢، حتى تقوم إدارة التنبؤات بنشر هذه التحذيرات، كتلك التي قامت صحيفة ماريان الأسبوعية بنشرها في آذار ٢٠١٦، والتي كانت تحمل عنوان «المعارضة السورية من الداخل: جاءنا الخطر الإسلامي من الخليج، ونتعرض لخطر الوقوع فيه» إنه عنوان لا يشوبه أي لبس. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، طلب إيرك شوناليير، المسؤول عن المعارضة السورية، من بعض الصحفيين المعارضين للرواية الرسمية الفرنسية، أن يلتزموا الخطّ الرسمي، وذلك كونهم، هم أيضاً، تنبهوا على الانحراف الإسلامي للمتمردين.

حددت الوثائق، التي نشرتها صحيفة ماريان، مجموعات متمردة أصبحت تحت تأثير وتوجيه استخبارات الدول المصدر (السعودية وقطر) راح المسؤولون الكبار في إدارة التنبؤات، الذين قمنا بسؤالهم، إلى أبعد من ذلك بكثير «أدخل الممولون الخاصون في قطر والسعودية عناصر مأجورين ومؤطرين محترفين، وهؤلاء معروفون من قبل إدارة الـ DGSE. كان لوران فابيوس على علم بكل هذا، ولكنه بقي مصراً على متابعة نهجه لا يخالجه في ذلك أدنى شك. علماً أن سلفه آلان جوبيه قد بدأ بالتساؤل، وأبدى بعض الشكوك. حتى إنه في الدوائر الضيقة كان يعلن ذلك. أما فابيوس، فلا، ولم يتوقف عن تكرار: لم نضرب بقسوة، ولم نضرب بالقوة الكافية ضد الأسد. أستطيع التأكيد، وبكل ثقة، أن لا أحد يجرؤ على قول أي شيء أمامه، خوفاً على المستقبل الوظيفي. أكد الدبلوماسي أنه سيأتي اليوم الذي ستكتب فيه أشياء كثيرة حول هذا الالتزام الفرنسي في الصراع السوري.وفي مواجهة هذه الديناميكية «للأسلحة بفضل التمويل الخليجي»، طالبت مديرية التنبؤات في وزارة الخارجية بأن يطرح على بساط البحث هذا الموضوع أثناء المحادثات مع السعودية وقطر.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل تحقق ذلك؟ والجواب قد يكون ذلك ولكن دون أي نتيجة.

استقبل الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند رئيس المخابرات السعودية الأمير بندر بن سلطان، مرتين خلال شهر واحد في صيف ٢٠١٣. جاء بندر يرافع من أجل زيادة الدعم والمساعدة العسكرية للتمرد السوري. إلا أن الرئيس الفرنسي لم يستجب لطلبات بندر الذي أقسم بأن يسقط الأسد «وبكل الوسائل». كان الرئيس هولاند يخشى أن تقع الأسلحة المقدمة للمتمردين السوريين في الجيش الحر بين أيدي الجهاديين،خاصة جبهة النصرة، حيث حصل ذلك لعدة مرات.

صرح الموظف رفيع المستوى أنه من المؤكد أن حصل: «توقيع عقدين أو ثلاثة لتسليح قطر ببعض المعدات، دون أن تتضمن هذه العقود بنوداً تمنع قطر من إعادة تصدير هذه المعدات تضمنت العقود بيع صواريخ من طراز ميلان، وقد تم العثور على بعض هذه الصواريخ بين أيدي المتمردين الجهاديين. أوضح هذا الضابط رفيع المستوى أن العقود لم تتضمن أبداً صواريخ أرض – جو» هذه المخاطر غير مهمة، قياساً للهدف الذي يتمسكون به وهو : إسقاط الأسد.

وقبل ذلك بسنة، أي في الوقت الذي كان يتدفق فيه الجهاديون إلى سورية، منتهزين تواطؤ حليفنا التركي(١) بالسماح لهم بتجاوز الحدود، استخدم لوران فابيوس مفردات غير لائقة متحدثاً عن الأسد حيث قال: «لا يستحق هذا السيد أن يبق على وجه الأرض» أي إنه تشجيع صريح وواضح لقتاله وقتله.

---

(١) استخدم فرانسوا هولاند كلمات قاسية ضد الرئيس التركي رجب طيب أردوغان. «وصفه بالفاشي وذلك في اجتماع مجلس الدفاع المصّغر» هذا ما أكده موظف رفيع المستوى. كان لوران فابيوس أكثر مجاملة حيث كان مقرباً من زميله أحمد أوغلو، مهندس السياسة السورية في تركيا وذلك حتى إبعاده من مركزه في شهر أيار ٢٠١٦.

علينا الاعتراف بأن حلفاءنا في قطر والسعودية كانوا أكثر صراحة، فهم لا يخفون قط نواياهم. يذكر السفير الفرنسي بالسعودية برتران بوزاتسنو ، أنه قد زار صديقه أمير قطر السابق الشيخ حمد آل ثاني «قلت له إننا متفقون مع قطر في إبعاد بشار الأسد، ونحن نرغب بدعم عناصر معتدلة، وما يقلقنا، أوضحت له، إنكم أنتم تقومون بدعم عناصر متطرفة جداً»[1].

أجابني الأمير « إنهم ليسوا الأقوى على الأرض، مضيفاً، أنه باعتبار أن النظام سيسقط خلال ثلاثة أشهر، سنقوم بعد ذلك بترتيب الأمور، وهذا ليس مشكلة ». باء هذا الرهان بالفشل وكشف عن مخاطر جمة.

أما بالنسبة للأمير بندر بن سلطان، فقد كان هو الآخر مباشراً جداً، هذا ما لاحظه محاوروه الفرنسيون خلال اللقاء الذي جمعهم في شهر شباط ٢٠١٣ بالرياض[2]، أولويته، كما رأينا سابقاً، هي إسقاط بشار «بكل الوسائل»، بما في ذلك زيادة دعم مجموعات جهادية من التمرد « أضمن لكم أنه في حال وصلنا إلى دمشق، لن يرتكب رجالنا أية فظائع مرعبة ضد المواطنين المدنيين. لكنني أريد أن أكون معكم صريحاً: ضمانتي لن تكون أكبر من تلك التي أعطاها الجنرال ديغول عن المقاومة في لحظة التحرير» باختصار عبثاً!

ألح السفير برتران بوزاتسنو، في برقية دبلوماسية تتضمن ما حصل في اللقاء، على فكرة أن بندر بقي غامضاً فيما يتعلق بأمن الأقليات السورية (ضمناً، الأقليات المسيحية، وبخاصة الأقلية العلوية التي ينتمي إليها الرئيس الأسد، وغيرها على أطراف سورية جديدة)، من هنا، جاء حذرُ الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند لدى استقباله لبندر بعد عدة شهور .

(١) حتى المسؤولين السعوديين قد لاموا قطر، في البداية، على دعمها لعناصر متمردة متطرفة جداً.

(٢) ماريان، ١١-١٧ آذار ٢٠١٦

لم تزعج بندر أبداً لعبة مطلق الجن أي (أنه مسبب أحداث يعجز عن إيقافها) فقد تقدم عدد قليل من الضباط من القوات الخاصة، التي تعمل تحت قيادته، باستقالاتهم من مواقعهم. وبعد أن أصبحوا مدنيين، التحقوا بسورية، حيث، بدعم ضمني من إدارة بندر، انضموا لدعم الفرع المحلي للقاعدة، أي جبهة النصرة التي تربطها بالمخابرات السعودية علاقات وثيقة. ومن جهة أخرى، تم تحرير عدد من المساجين اليمنيين في السجون السعودية شريطة الذهاب لمحاربة الأسد في سورية، حيث تمت مواكبتهم ونقلهم بطائرات مروحية عبر الأراضي التركية قبل أن يتسللوا إلى شمال سورية. انتهى الأمر بأن دفع بندر ثمن نزعته المغامرة، وبأن غادر منصبه عام ٢٠١٤ دون أن ينجح في إسقاط الأسد.

وإذا ما أردنا الاختصار فإننا نقول إن المسؤولين الفرنسيين على دراية كاملة أو شبه كاملة باللعبة السعودية القطرية في سورية، لكنها تعتبر هامشية بالقياس إلى هدف إسقاط الأسد « تبقى الأسئلة المطروحة على بساط البحث في مركز التحليل والاستكشاف بوزارة الخارجية حول علاقاتنا مع السعودية وقطر، هذا ما أفاد به أحد العاملين في هذا المركز، وأضاف تبقى المشكلة فيما يسمى الدبلوماسية الاقتصادية الغالية على قلب لوران فابيوس، الذي لم يتوقف عن تكرار عبارة أننا سنكون مع الخليج سوية في إعادة إعمار سورية. سيستقيل أحد كبار موظفي الـ DGSE في عام ٢٠١٤ تعبيراً عن اشمئزازه من هذا العمى: «لا أرغب بأن أكون شريكاً في المسؤولية، إننا نعلم بالتأكيد كل ما يحاك انطلاقاً من جنوب تركيا، ولكن بما أن وزير خارجيتنا يقول علينا التخلص من بشار، لم يبق هناك أي خيار آخر مقبول. ولكن سيكون للتاريخ كلمته بهذا الشأن»[1].

---

(١) مقابلة مع أحد المؤلفين، باريس، حزيران ٢٠١٦.

البدو مصابون بالفصام في بلاد اللّه

تبدو عروش الخليج، لمن يراها من الخارج، عالماً شبيهاً بالصحراء التي تحيط بهم جامداً لا يتزحزح، حيث القاعدة الأساسية هي اللامبالاة السياسية والاجتماعية. لم تهب رياح الربيع العربي فوق شبه الجزيرة العربية، اللهم باستثناء البحرين واليمن. لقد اشترى أمراء الخليج، خلال عقود خلت، السلام الاجتماعي بأموالهم الطائلة من البترودولار والغاز. من الحري القول بأن المجتمعات المحلية في هذه البلدان مؤمنة بدخل مدى الحياة سواء أكان في الإدارات أم في شركات القطاع العام. لذلك يبقى حلم هؤلاء هو المحافظة على كرم الدولة الإلهية، لا الانقلاب عليها.

استجوب وزير الخارجية الفرنسي آلان جوبيه السفير الفرنسي في الرياض برتران بوزاستنو، خلال محاضرة كان هذا الأخير يلقيها في معهد العالم العربي بباريس بشهر نيسان ٢٠١١، متسائلاً: « متى سيحصل الربيع العربي في العربية السعودية؟ » وكان جواب الدبلوماسي: «سيدي الوزير، لماذا تود أن يكون هناك ربيعٌ في بلد صيفها دائم؟». وجد الوزير نفسه مرغماً، بعد سنتين من هذا اللقاء، على الاعتراف بأن السفير كان محقاً.

ما يجعل هذه المجتمعات متماسكة عوامل ثلاثة وهي البترودولار، والعشائر، والإسلام، وتساهم هذه العوامل في تأمين الاستقرار السياسي والاجتماعي.

إن بدو الخليج ممزقون اليوم، في مواجهة العولمة، بين التمسك واحترام عاداتهم وتقاليدهم السرمدية والتطلعات إلى عالم الحداثة. انعكس هذا التمزق على الحياة اليومية وكانت النتيجة صدام ثقافي موجع بانتظار الفصام.

السعودية أو مجمع القلعة المحاصرة

«الدين ليس فقط حاضراً في كل مكان في السعودية، بلد الاستمرارية والأبدية، بل الدين هو كل شيء، هذا ما قاله عيسى مارو، القنصل السابق في جدة وأضاف لا وجود للزمن في المملكة» فمنذ عصور وإيقاع الصلوات الخمس هو الذي تنتظم حياة السعوديين اليومية عليه.

أليس العلم السعودي يأتي ليذكر السعوديين بمهامهم نحو الإسلام الذي يشكل هويتهم الدينية، كيف لا و تزين هذا العلم عبارة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) المدقوقة فوق السيف.

مما يجدر ذكره هو أن السعودية، ومنذ عدة عقود خلت، لم تكن بلداً رجعياً ولا أصولياً على الشكل الذي هي عليه الآن. كانت جدة ومكة تحتضنان دوراً للسينما في سنوات ١٩٥٠-١٩٦٠. وكان يوجد مدارس مختلطة، كما كانت النساء الغربيات تستطيع التجوال في جدة بدون ارتداء العباءة.

حصل الانعطاف عام ١٩٧٩، مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ومع استيلاء الأصوليين السعوديين على الجامع الكبير في مكة الذي يحتجون به على شرعية عائلة آل سعود. اكتشف القادة السعوديون حينئذ، أن أعداءهم الداخليين لا يترددون في ارتكاب الفظائع، بعد استيلائهم على الأماكن الإسلامية المقدسة التي يفترض أن تقوم السلالة السعودية بحمايتها.

انعتق الماردُ الفارسي الشيعي من مكمنه في إيران، وذلك بوصول آية الله الخميني إلى سدة السلطة الإيرانية، والذي وعد بتصدير ثورته إلى كافة أرجاء المنطقة، خاصة إلى جارته السعودية التي تؤوي أقلية شيعية متمركزة في الشرق الذي توجدُ فيه آبار البترول. أُصيبت المملكة الوهابية بالتكزز من جراء تلازم هاتين الحادثتين، مما جعلها تنغلق على ذاتها. وتعتبر نفسها، منذ ذلك الوقت، قلعة محاصرة بين عدوّينخطرين، فمن جهة أعداء الداخل (الجهاديين)، ومن جهة أعداء الخارج (الإيرانيين).

تنظر القيادة السعودية إلى هذين الخطرين على أنهما الخطران الرئيسيان بالنسبة لها. منح الملوك السعوديون أنفسهم لقب «خادم الحرمين الشريفين»، وذلك بهدف ترشيح شرعية دينية هي مثار خلاف. الحرمان الشريفان في الإسلام هما مكة المكرمة والمدينة المنورة التي يحرم دخول غير المسلمين إليهما[1].

إن جميع الأراضي السعودية مقدسة، ويُنظر إليها كجامع ضخم. جميع العبادات الأخرى محظورة في بلاد الله[2]، ولا يسمح بإظهار أية إشارة ترمز لدين غير الإسلام علناً، إلى درجة أن بعض المتدينين ذهبوا إلى حد الاعتراض على رفع أعلام سويسرا والدانمرك فوق سفارتيهما في الحي الدبلوماسي في الرياض لأنهما يحتويان على صليب ... عبثاً[3].

---

(١) لا يوجد أي تبرير ديني لمنع غير المسلمين من دخول مكة والمدينة، هذا ما أكده العالم المختص بالدين الإسلامي غالب بن شيخ.

(٢) بالنسبة لمفتي السعودية الكبير، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله: «يجب تدمير جميع الكنائس في كل المنطقة» وهو يرى أن إزالة هذه الكنائس هي انسجام مع القواعد العريقة التي تقتضي بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجب ممارسته في شبه الجزيرة العربية. لاكروا– ٢٩ أيلول ٢٠١٣

(٣) العربية السعودية – المحتوم، جاك جوسلين بول، دار ريفنوف، ٢٠١٦.

توجد حياة رعوية، في جدة، وفي المناطق الشرقية النفطية، منظمة بشكل لا بأس به مع مراعاة الحدود، هذا ما صرح به النسينور بول هيندر، النائب البابوي في الإمارات، وعمان، واليمن. إلا أن هنا شكوى من قلة الحماية. يقول النائب البابوي: «عندما كنت أدير قداساً دينياً سرياً في الرياض، كان يتوفر شكلٌ من أشكال الخدمة الأمنية بحيث يقتصر دور عنصر الأمن على تنبيهنا عند وصول الشرطة الدينية».

لقد تم انتشار هذه الميليشيا الإسلامية، في ثمانينيات القرن الماضي، لحماية الأصولية الوهابية. وقد انتظمت هذه الميليشيات في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أوكل إلى جنود الإيمان، المطوعين، مهمة احترام مبادئ إسلام متشدد في كل ما يتعلق بالحياة اليومية.

تم توزيعهم على أكثر من أربعمئة وخمسين ثكنة، ويتجاوز عددهم الأربعة آلاف، ينحدرون، في معظم الأحيان، من طبقات فقيرة. يرتدون ثوباً أبيض قصيراً نوعاً ما لسهولة الركض. يمكن التعرف عليهم بسهولة من خلال ذقونهم الطويلة ورؤوسهم المغطاة بكوفيه بدون العقال (العكال) التقليدي. عند الالتقاء بهم وهم يتجولون في المدينة، يظهرون تباهياً وتلوح على وجوههم علامات الشك والعدوانية[1].

يطوف جنود الأمن الأخلاقي، على متن سيارات ٤×٤، في أرجاء المدن، أحياناً يرافقهم عناصر من الشرطة، مسلحين بخيزرانات، لا ينفكون عن دفع المارة للذهاب إلى الجوامع، ويتحققون من أن جميع المطاعم قد أغلقت أبوابها في أوقات الصلاة. المطوعون ليسوا مخولين، نظرياً، بالدخول إلى الحي الدبلوماسي في الرياض، وبهذا الخصوص روى لنا دبلوماسي فرنسي الطرفة التالية: « جلست، ذات يوم وقبل لحظات من بدء الصلاة، على طاولة في مطعم يقع في الحي الدبلوماسي. أخبرني القائمون على الخدمة

(١) تعني حرفياً « أولئك الذين يتطوعون ويطيعون».

في المطعم، والذين سمحوا لي بالدخول، قائلين لي إنهم لا يستطيعون تقديم الطعام لي في الحال، وعلي الانتظار لمدة نصف ساعة، ثم أطفؤوا الأنوار وأغلقوا باب المطبخ. اعتذروا عن هذا الإجراء شارحين أنه في مرة سابقة أدخلوا زبائن إلى المطعم في وقت الصلاة وما هي إلا لحظات حتى هبط رجال الشرطة الدينية فجأة في المطعم!».

تمارس ميليشيا الله أيضاً الرقابة على الكتب والصحافة. فكان مثلاً على معهد الأليانس فرانسيز، الذي يقع في الحي الدبلوماسي في الرياض، اتخاذ تدابير احترازية في المكتبة لتجنب المشاكل. فبعض الكتب، مثل كتاب (الجنس الآخر) لمؤلفته سيمون دو بوفوار، لا يمكن عرضها للبيع. ومن يرغب باستعارة مثل هكذا كتب عليه أن يستخدم شيئاً من التملق.يلقى أيضاً على عاتق هؤلاء المتحمسين مسؤولية التطبيق الصارم للفصل الجنسي في الأماكن العامة. إنهم يقومون بمسح المراكز التجارية مسحاً كاملاً، لذلك قلما تجد مكاناً يستطيع فيه الشبان والشابات الالتقاء، وربما يقتنصون فرصة لتبادل أرقام الهواتف المحمولة ليس أكثر. فلدى عناصر هذه الشرطة الصلاحية بالدخول حتى إلى دور خاصة إذا ما كان لديهم شك بوجود اختلاط «مناف للأخلاق»، أو وجود مشروبات كحولية، أو حتى عزف على الموسيقا.

عيون المطوعين أيضاً لا تغفل عن عالم العمل. ويشرح مغترب فرنسي يعمل في السعودية: «يوجد بين موظفينا في المكتب لبنانية تعمل مع مواطن مصري في المحاسبة، الأمر الذي يعتبر من حيث المبدأ ممنوعاً. اقترحنا حلاً إسعافياً وقائياً في حال مباغتة الشرطة الدينية. أحدثنا مكتباً لا يعمل به إلا نساءٌ، وفي لحظة المباغتة تنضم المحاسبة اللبنانية إليه بسرعة فائقة لكي تسير الأمور سيراً طبيعياً ريثما تغادر الدورية.

تعتبر النساء أهدافاً مميزة للبوليس الديني شديد التمسك بالقواعد والحريص على الشكليات خاصة فيما يتعلق بالمظهر الخارجي للنساء. يمكن

لامرأة لا تضع الحجاب بشكل تام، أو ترتدي ثياباً تراها الشرطة الدينية غير محتشمة أن تقع ضحية صراخ حقود من قبل المطوعين، دون التمييز بأن تكون هذه المرأة سعودية أو غير سعودية. لكن تم وضع حد لكل التجاوزات، في عهد الملك عبد الله (مابين ١٩٩٥ و ٢٠١٥)، فقد تم توجيه تحذيرات شديدة القسوة للمطوعين وكبح جماحهم وعلق تجنيد متطوعين جدد.

ومع بداية عهد سلمان، أراد المطوعون اختبار العاهل الجديد، الذي، بدوره، أعاد ضبط تحركاتهم. تم تصوير بعض التجاوزات التي قاموا بها، وانتشرت على مواقع الانترنيت. ففي شباط عام ٢٠١٦، انتشر فيديو يظهر عنصرين من الشرطة الدينية يطاردان فتاتين، قبل أن يوسعا إحداهما ضرباً ولكماً، والذي أثار موجة عارمة من الاستنكار على شبكات التواصل الاجتماعي. تمت إقالة رئيس المطوعين في الرياض على إثر ذلك، بعد أسبوع من نشر الفيديو، وأصدر القصر الملكي أمراً يقضي بمنع شن غارات على الأماكن الخاصة، كما لم يعد بإمكان المطوعين التحقيق مع مشتبهين، أو القيام بالتحقق من الهوية. قام نائب ولي العهد، محمد بن سلمان، بدفع مبالغ كبيرة إلى الشرطة الدينية من أجل تهدئة خواطر جماعاتهم.

لا تملك السعودية قانون جزاء. تقرر الأحكام بحد السيف، وذلك طبقاً لترجمة حرفية للشريعة. وتحتل السعودية المرتبة الثالثة، بعد الصين وإيران، من حيث عدد المحكومين بالإعدام بالعالم، ومن الجدير بالذكر أن معظم أحكام الإعدام تنفذ بقطع الرؤوس[1]. تم تحطيم الرقم القياسي، عام ٢٠١٥، حيث ارتفع عدد أحكام الإعدام إلى مئة وثلاثة وخمسين حكماً، وهذا لم يحصل منذ عشرين عاماً.

---

(١) تستخدم المملكة العربية السعودية أيضاً فصائل تنفيذ الإعدام، وهذا ما حصل في الثاني من كانون الثاني عام ٢٠١٧، عندما تم إعدام سبع وأربعين متهماً، ومن بينهم الشيخ الشيعي السعودي نمر باقر النمر.

لجأت السلطات السعودية إلى الإعلانات الصغيرة من أجل تجنيد ثمانية جلادين، وذلك بعد أن فقد الجلاد الأصلي ذراعيه ولم يعد بإمكانه تنفيذ هذه المهمة المرعبة[1].

الجرائم التي تستحق الإعدام هي الإرهاب، والقتل، والاغتصاب، والسرقة باستخدام السلاح، كما يحكم بالإعدام على المرتدين، وعلى المشعوذين، وعلى من يرتكبون الزنا. تجرى المحاكمات، في معظم الأحيان، بشكل سري كامل. وقلما يتاح للمتهمين الاستعانة بمحامي، أو بمترجم في حال كان المتهم أجنبياً. تستغل السلطات السعودية هذه المحاكمات المغلقة لتصفية معارضيها جسدياً[2]. يتم قطع اليد اليمنى، في حالات السرقات الصغيرة، ولكن يمكن للقاضي أن يأمر «ببتر متصالب» اليد اليمنى مع القدم اليسرى.

تجرى عمليات قطع الرؤوس في اجتماعات عامة، وذلك بهدف استخدامها كعامل مؤثر على العقول، من أجل ردع مجرمين محتملين في المستقبل. يتم، بشكل عام، إخبار الأسر بموت أحد أقربائهم عن طريق الصحف بعد تنفيذ الأحكام[3]. يمارس الجلادون السعوديون أيضاً حكم الإعدام عن طريق الصلب، ولكن على نحو قليل. تجري الأمور بقطع رأس المحكوم، ويوضع الرأس في كيس بلاستيك، ثم يوضع فوق جسده المربوط فوق عامود على مرأى الجميع، ويستمر عرضه لعدة أيام، حتى تتفسخ

---

(١) أعلنت السعودية في وسائل الإعلام حاجتها لثمانية جلادين جدد – لاغارديان – ١٨ أيار ٢٠١٥.

(٢) تمت تصفية عشرين شخصاً على الأقل من بين أولئك الذين شاركوا في مظاهرات بالمنطقة الشرقية عام ٢٠١١. هذا ما أوردته منظمة العفو الدولية

(٣) ذبح باسم العدالة، تقرير منظمة العفو الدولية حول حكم الإعدام في المملكة العربية السعودية، آب ٢٠١٥

الجثة. « لقد حضرت مشهداً من هذا العذاب العظيم، يقول أحد المغتربين الفرنسيين. كان ذلك في عام ٢٠٠٤، وهو مشهد لمراهق كان قد قتل أمه وسلبها مجوهراتها. قُطع رأسه وتم صلبه في الساحة العامة للقرية. كان ذلك في شهر آب اللهاب، وبقيت جثته معروضةً لمدة أسبوع حيث كان الجو حاراً جداً ».

تضم ترسانة العدالة السعودية القمعية أيضاً حفلات الجلد، التي تمنع استعمالها الاتفاقيات الدولية. تم تخفيف حكم المدون رائف بدوي، الذي صدر بحقه حكمٌ بالإعدام بتهمة الردة عام ٢٠١٤، إلى عشر سنوات بالسجن وألف جلدة ومليون ريال غرامة (حوالي مئتين وخمسين ألف يورو) ما هي جريمته؟ إنها محاولة، بحسب ما كتب، «لهدم جدران الجهل، ولتفتيت حرمة رجال الدين، ومحاولة زرع نواة للمعارضة، واحترام حرية التعبير، وحقوق المرأة، وحقوق الأقليات والمقيمين في السعودية»[1].

وقد تلقى رائف بدوي، الذي أثارت حالته سخطاً دولياً، خمسين جلدة في ساحة عامة بمدينة جدة.

---

(١) سأجلد ألف جلدة لأنني تجرأت على القول بحرية، رائف بدوي، دار طباعة كيرو، ٢٠١٥.

في بلاط آل سعود

السعودية إذن هي إقطاعة لعائلة آل سعود، التي تعيش في قصور فارهة.

عمل رفيق الحريري، رجل الأعمال اللبناني السعودي الذي اغتيل عام ٢٠٠٥ في بيروت، كبير مهندسي ملوك وأمراء السعودية لفترة طويلة من الزمن. تعود بداية مسيرة الحريري وثروته إلى عام ١٩٧٧، حينما طلب منه الملك خالد بناء قصر في الطائف، حيث أنجزه بأقل من ستة أشهر، وهو رقم قياسي، مما أكسبه ثقة وعرفان البلاط السعودي. ضاعف رفيق الحريري، عبر شركته سعودي أوجيه، مشاريعه في المملكة. استطاع الحريري، بعد احتلال الكويت من قبل جيش صدام حسين عام ١٩٩٠، إقناع الملك فهد بضرورة بناء قصور تحت الأرض درءاً لخطر اجتياح قد يقوم به ديكتاتور العراق. «قمنا ببناء ثلاثة قصور تحت الأرض وهي عبارة عن ثلاثة أبنية متداخلة، هذا ما كشفه المدير السابق للمشاريع في شركة سعودي أوجيه، برنارد تويليه، الذي أوضح أن القصر الأول مقاوم لهجمات نووية، في حين أن القصر الثاني مقاوم لهجوم بكتيري، والثالث مقاوم للغازات الكيميائية. إن جميع هذه القصور مطمورة على عمق خمسة عشر متراً تحت الأرض في محيط الرياض وبمساحة تقدر بستة آلاف متر مربع لكل قصر. تمت تغطية جميع تلك القصور ببلاط من الإسمنت مغطى بدوره بالعشب بشكل لا يستطيع أحد من الخارج تمييز أي شيء». استغرق بناء هذه القصور مدة عامين،

شارك في إنجاز هذا العمل أكثر من ألف عامل. «تمت زخرفة القصور ببذخ لا يصدق، أسقف مطلية بالذهب الصافي، أوضح برنارد تويليه. طلب الملك فهد أن يكون الأثاث موديل لويس السادس عشر، والبورسلان من ليموج، والكريستال من بكارا . لا أحد يعلم ما هي كلفة هذا النوع من القصور، وذلك بسبب الأعمال الإضافية التي لم تكن ملحوظة في البداية. فكانت مبالغ الكشوف تضرب بثلاثة أو أربعة أمثال. فكانت الهوامش واسعة بشكل لا مثيل له في العالم! والنتيجة كانت، أن القدر لم يُتِح للملك فهد قضاء ولو ليلة واحدة في هذه القصور. يا لها من ورطة جسيمة!».

إن المكان الأكثر أهمية استراتيجية في البلاط السعودي هو مكتب الديوان الملكي، أي المكتب الخاص للملك. يعتبر مدير هذا المكتب واحداً من أقوى الشخصيات في المملكة. إنه الوزير الكبير في العصور الحديثة، هو الذي ينتقي ويراقب الدخول إلى الملك، وهو الذي يدير مواعيده. يشكل البلاط السعودي كوناً سرياً محكوماً بتقاليد سرمدية.

تخضع أساليب إلقاء التحية إلى نظام محدود ودقيق. تعكس احتفالية العناق رمزياً تدرج المراتب بين الأمراء في المناسبات البروتوكولية: تقبيل جوف الكتف يعني الخضوع، التقبيل على الأنف ثلاث مرات يعني علاقة قربى ومساواة في المرتبة، في حين أن تقبيل الجبهة يعني الاحترام للأكبر سناً.

يبلغ عدد المنحدرين من سلالة الملك عبد العزيز بن سعود اليوم سبعمئة وتسعة وستين أميراً، وسبعمئة وثماني وثلاثين أميرة(١). لكن العائلة المالكة لا تتحدد فقط بهذه النواة الأنقى من السلالة. فعندما نتوسع إلى فروع وأفخاذ أخرى، سنصل إلى الرقم أربعة آلاف أمير وأميرة، حتى إنَّ بعض المختصين يقدمون رقماً إجمالياً يتجاوز العشرين ألف سليل من العائلة المالكة.

---

(١) المملكة العربية السعودية – المحتوم، جاك جوسلين بول، ريفنوف، ٢٠١٦.

عندما يرى النور رضيعٌ من آل سعود، هو بالضرورة لا يخضع لما يخضع له عامة الشعب، فهو لن يفتأ طوال حياته من تكديس الامتيازات. لأن كل فرد من العائلة المالكة يقبض منحة شهرية، تشرف على توزيعها إدارة المقررات و القواعد في وزارة المالية. يختلف مبلغ المنحة تبعاً للمرتبة ولعمر الأمير. وإذا ما قمنا بعملية حسابية يمكننا القول إن معدل دخل الفرد الواحد من الأسرة المالكة وسطياً في السنة يبلغ حوالي مئة ألف دولار، يمكن أن يرتفع، في بعض الحالات، إلى مئتين وسبعين ألف دولار للأفراد الأكثر أهمية، في حين يصل المبلغ الذي يتقاضاه أفراد الفروع البعيدة إلى أقل من ألف دولار.

كشفت برقية دبلوماسية من السفارة الأمريكية في الرياض بتاريخ ١٩٩٦، نشرت من قبل ويكيليكس، أن المنح المخصصة للأمراء تمثل ٥% من ميزانية الدولة السعودية، أي ما يعادل مبلغ أربعة مليارات دولار. ولكن ومنذ وصول الملك سلمان إلى العرش عام ٢٠١٥، شهدت هذه المنح تخفيضاً، ومما لا شك فيه أن هبوط أسعار البترول لعب دوراً في اتخاذ هذه الإجراءات.

إن الهدف الوحيد للأمراء في حياتهم هو أن ينجبوا أكبر عدد ممكن من الأبناء، وذلك كي يكسبوا الحد الأعلى من المال ولكي تكبر ذريتهم. لذلك يقبض الأمير، عندما يتزوج، «علاوة». ويوضع بتعرفة بطاقة خاصة تسمح له بالمعالجة مجاناً في الخارج. حيث يوجد في كل سفارة سعودية مكتبٌ طبيٌّ يتابع استشفاء أي أمير من الألف إلى الياء ويسدد الفواتير(١).

لا تمثل المنحة الشهرية جزءاً صغيراً مما يقبضونه حقيقة. فهم يعتبرون أنفسهم مالكي المملكة التي تحمل اسمهم، لذلك من الطبيعي، بالنسبة لهم،

---

(١) بلغت الديون المترتبة على المملكة العربية السعودية عام ٢٠١٥ ثلاثة مليارات وسبعمئة مليون يورو لم تُسدد إلى مشافي باريس. لوباريزيان

استغلال مواردها جميعاً. تتربع خمس أو ست شخصيات أكثر أهمية منهم على مداخيل يومية تقدر بمليون برميل نفط خام من أصل تسعة أو عشرة ملايين برميل في اليوم من الإنتاج الوطني. أضف إلى ذلك أنه يتم توزيع أراضٍ على الأمراء ليبيعوها بأسعار من الذهب للمشاريع العقارية.

وفيما يتعلق بالحياة اليومية للأمراء، فهم لا يسددون فواتير الكهرباء، ولا فواتير المياه، ولا فواتير الهواتف. بطاقات الطائرة لتنقلاتهم ورحلاتهم مجانية، ويتحمل القصر الملكي ليس فقط بطاقات الطائرة، بل أيضاً يقوم بحجز غرفهم في الفنادق الفارهة في جميع أنحاء العالم. لا يعرف الأمراء السعوديون الأرباح الصغيرة، وذلك باعتبارهم يقبضون على كل عملية مئة دولار تدخل إلى جيوب الأمير، ويجب مضاعفة هذا المبلغ بآلاف المرات فاحسب رعاك الله. يقوم الأمراء أيضاً، في دواوينهم، بعقد صفقات تجارية مستغلين نفوذهم بالإسراع وتسهيل توقيع عقود. ويتقاطر رجال الأعمال على أبواب الأمراء ليحظوا بمقابلة أحد أمراء الصف الأول أصحاب القرار في العائلة المالكة. حتى إنّ بعض هؤلاء الأمراء بلغوا شأنا كبيراً مثل الأمير وليد بن طلال الذي دخل عداد ملوك المال في العالم.

يستقبل الأمير وليد، كل مساء خميس، زواره مرتدياً بنطال جينز في مزرعته التي تقع على بعد خمسين كيلو متر جنوب الرياض. يحب رياضة المشي محاطاً بثلاثة حراس شخصيين لا تفارق عيناه شاشة هاتفه المحمول التي يتابع من عليها تطورات البورصة. وبينما كان، ذات مساء، برفقة أحد مؤلفي هذا الكتاب في نزهته الليلية، اغتاظ الأمير وليد ابن طلال لأنه علم أن ترتيبه بين أثرياء العالم انخفض من المرتبة السادسة عشرة إلى المرتبة السادسة والعشرين، بحسب التصنيف الذي أوردته مجلة فوبيس. يحتوي مقر إقامته الصحراوي على عشرات الشاشات التلفزيونية موصولة على قناة CNBC، وهي القناة المختصة بشؤون البورصة . بدأ البدو بالتوافد إلى دارة

الوليد، عند نهاية السهرة، أسراباً أسراباً لتقديم التحية والولاء عبر معانقته على كتفه اليمنى وهي إشارة ترمز للخضوع. مقابل ذلك يقوم الأمير بدس قطعة من النقود بيد المعانق. يأتي هؤلاء الرجال إما طلباً للمساعدة لمريض قريب في الدخول إلى مشفى وعلاجه، وإما طلباً لنصيحة في مجال الأعمال، وإما طلباً لدعم من أجل الحصول على وظيفة في الإدارة.

ومن جهة أخرى، ينشط جيش من الملحقات الصحفيات، العاملات في مكاتبه، بالبرج الملكي (كينغ دوم تور)، وهو البرج الأعلى في الرياض، في نشر أخبار الوليد، وتلميع صورته في الإعلام، وهذا ما يحبه الأمير وليد بالإضافة لحبه للمال ، هذا ما دونه في تقرير أحد السفراء الغربيين في الرياض.

يعشق الأمير وليد أن يتوج بميداليات وأن يُكرّم. تحولت، مثلاً، بنغلاديش غداة تكريم له إلى بلد محبوب. يروق له ذلك كثيراً، وهذا ما يدعو للابتسامة في المملكة.

مجرمو الصحراء
(الكابونيو الصحراء - نسبة إلى زعيم العصابة الأميركي الفونس آل كابوني)

يا له من رياء، قول أنت تملكنا! يقوم بعض الأمراء بعمليات تهريب الكحول ويسيطرون على السوق السوداء في المملكة، وذلك من أجل المحافظة على مستوى من الحياة الباذخة والمترفة، يستخدم الكابونيو (مجرمو) الصحراء طائراتهم النفاثة الخاصة المجهزة بحوضين أرضيين. يخصص للأمراء في مطارات المملكة، قاعات شرف VIP خاصة بهم، ولا يتجرأ أي عنصر من عناصر الجمارك على تفتيش أمتعة الأمراء عند عودتهم من الخارج.

«تحط الطائرات الخاصة التي تقل على متنها الأثرياء أو الأمراء السعوديين في مطار بورجيه، حيث يكون بانتظارهم سيارة ليموزين لتقلهم إلى الفندق، هذا ما أكده مدير أحد الفنادق الفخمة في باريس، مضيفاً، وفور وصولهم يقومون بطلب صناديق من النبيذ والويسكي لأخذها معهم عند عودتهم إلى السعودية».

إن تهريب الكحول تجارة مربحة جداً. تُباع زجاجة الويسكي في السعودية بعشرة أضعاف ثمنها: فمثلاً ثمن زجاجة الويسكي عند شرائها يكون ثلاثين يورو، تباع في المملكة بثلاثمئة يورو. تنفق زجاجة البلاك ليبل بألف وخمسمئة ريال سعودي، أي ما يعادل ثلاثمئة وخمسة وسبعين يورو. وذلك مع أن القرآن الكريم لا يمنع بيع الكحول إنما يمنع الثمالة، لأنه في عهد الرسول محمد صلى الله

عليه وسلم، كان يُصنع الخمر من النخيل في مكة، لكن التفسير الوهابي هو الذي منع اقتناء واستهلاك الخمر[1].

المسافة شاسعة جداً بين الأخلاق الدينية المفروضة على عامة الشعب في المملكة، وبين سلوك الأمراء.

يتدفق الخمر في السهرات المجتمعية بالسعودية، وذلك على الرغم من الصورة الدينية المعلنة عن السلطة. «يحرص الأمراء على عدم تناول الخمر في العلن، هذا ما يؤكده دبلوماسي فرنسي أوضح أن الأمراء الذين يحضرون حفلات عشاء القنصلية الفرنسية في جدة لا يتناولون إطلاقاً الكحول». يقول جميع المغتربين الأجانب في السعودية إن جدة والرياض تزخران بأكبر المخازن (الكهوف) المملوءة بالأنواع الفخمة من نبيذ بوردو ومن الويسكي. «أمضيت سهرة عيد رأس السنة بضيافة خالد التويجري، المدير السابق لمكتب الملك عبد الله، لقد صُعقت، يروي رجل أعمال فرنسي وهو منذهل، عندما رأيت حائطاً مغطى بشكل كامل بما لذ وطاب من أنواع الويسكي».

يطلق الأمراء العنان لأنفسهم في فناءات قصورهم بشتى أنواع الاحتفالات، حتى إنهم ينظمون احتفالات بعيد القديسين (Halloween sashes)، هذا ما كشفته برقية دبلوماسية أمريكية تم نشرها من قبل ويكيليكس. ويصف القنصل الأمريكي، إحدى تلك الليالي الملاح التي حضرها في جدة، بأنها ليلة من الليالي الحمراء التي يتخللها «الجنس والمخدرات والروك أندرول»، حيث يتمايل على حلبة الرقص أكثر من مئة شاب وشابة وهم يتخلوعون برقص مثير تحت تأثير الكحول والمخدرات. إضافة إلى ذلك فقد تم إحضار عدد من فتيات الليل (عاهرات) لإضفاء البهجة على السهرة.

---

(١) قام الجيش الفرنسي، خلال تواجده على الأراضي السعودية أثناء حرب الخليج الأولى ١٩٩٠، بإعادة تأهيل عبوات الشامبو لتعبئتها بالفودكا و الويسكي.

توضح سجلات الجمارك في المطارات السعودية أن عقوبة أي شخص يُضبط معه مخدرات هي الإعدام. لكن لم تمنع هذه التحذيرات بعض أمراء المملكة من أن يكونوا مهربين! فقد أُوقف أحد هؤلاء الأمراء، نهاية تشرين الأول ٢٠١٥، في مطار بيروت وهو يُحمّل على متن طائرته الخاصة ألفي كيلو غرام من حبات الكبتاغون، وهو أحد أنواع المخدرات التي يستخدمها الجهاديون عندما يقومون بعمليات انتحارية. كانت الحبات مخبأة في أربعين حقيبة، وتعتبر هذه العملية أكبر عملية مصادرة مخدرات تحصل في لبنان.

لا يوجد، بالنسبة للأمراء الشباب، أي مُحرّم على الصعيد الأخلاقي، ويحكم المبالغة في سلوكهم شعور الإفلات من العقاب. تعود، مثلاً، الأمير محمد بن فهد، وهو أحد الأبناء العديدين للراحل الملك فهد، أن يتجول في جادة الشانزيليزيه بباريس، وهو يحمل على متن سيارته سلاحاً من عيار ثقيل، وعندما اكتشف أحد رجال الشرطة الباريسية وجود سلاح هجومي في السيارة، قام بإعلام رؤسائه في وزارة الداخلية الذين أجابوه: «كُفّ عن الاهتمام به». تم توجيه اتهام باعتداء جنسي إلى أمير شاب آخر، وهو ابن الملك الراحل عبد الله، في قصره الكائن بيفرلي هيلس[١]، كما بقيت وفاة الشيخ راشد، الابن الأكبر لأمير دبي، في شهر أيلول ٢٠١٥ أحد رموز الإسراف والتبذير. أُعلنت وفاة الشيخ راشد، البالغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة، رسمياً أنها جاءت إثر نوبة قلبية. لكن من المعروف عن الشيخ راشد ولعه بالخيول، والنساء الفاتنات والسيارات الفخمة[٢].

---

(١) القبض على أمير سعودي بتهمة جريمة جنسية، لوس انجلوس تيمز، ٢٤ أيلول ٢٠١٥.

(١) «يخفي موت الابن الأكبر لأمير دبي أسرار عالم الانحراف والعنف لدى أمراء الخليج« موقع أتلنتيكو، ٢٩ أيلول ٢٠١٥.

تغمض الحكومات الخليجية عيونها عن الفساد الخلقي لأمرائها. في حين أنه داخل المملكة العربية السعودية إذا ما ضُبط فيها أي مقيم أجنبي يحمل في صندوق سيارته مشروبات كحولية، يُعامل بلا رحمة وبدون هوادة! فبحسب القانون السعودي يُحكم بالسجن، من خمس سنوات إلى عشر سنوات، على كل من يُضبط معه أكثر من أربع وعشرين زجاجة خمر (مفهوم الترتيب)، ومن سنة إلى ثلاث سنوات لأقل من أربع وعشرين زجاجة (مفهوم الاستهلاك).

تم اعتقال كارل أندري، وهو بريطاني يبلغ من العمر أربعة وسبعين عاماً، في شهر آب ٢٠١٤ بمدينة جدة، لأنه كان ينقل على متن سيارته زجاجات خمر، وحُكم على هذا السبعيني بثلاثمئة وخمسين جلدة لحيازته على كحول من صنع يدوي. مارست لندن ضغوطاً لكي ينجو السبعيني من هذا العقاب «لأسباب صحية».

السعودية هي بلد الإحباطات والممنوعات، يسود فيها الرياء، وتجري فيها الأمور بالخفاء خوفاً من الأغلال الوهابية. لذلك، يرّوح السعوديون عن أنفسهم، يخرجون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في دبي أو في المنامة، حيث يسمح في هاتين المدينتين بتناول الكحول في المطاعم، والبارات، والفنادق، ومن أجل ذلك يجتازون الجسر الذي يربط المملكة بالبحرين، والمعروف باسم جسر جوني ويكر بريدج. وبحسب السفارة السعودية في المنامة، يلقى خمسة وثلاثون سعودياً، وسطياً، في كل أسبوع حتفهم بحالة السكر المميت.

إجـــازات الأمــراء

كما هـو الحال عنـد أمـراء الملكيـات الأوربيـة، يـشكل الـصيد التسلية المفضلة عند أمراء الخليج. يتمـون، تمـيم أمـير قطـر، بالبنـادق مـن عنـد بـائع الأسلحة البريطاني الشهير هولاند آند هولانـد. يبلـغ ثمـن بندقيـة القربينيـه، بدون أية إضافات، مئة ألف يورو، يلتهب السعر كلما حصلت إضافات مثل ترصيع الأخمص (بالذهب، بالألماس، بالأحجار الثمينة وغيرها). يقوم تميم باسـتئجار طـائرات خاصــة للــذهاب إلى الــصيد في شــتى أنحــاء العــالم: في إســكتلندا، في أفريقيــا بالإضــافة إلى ملكيتــه الخاصــة التــي اشــتراها في منطقة السين والمارن في أرمينفيليه، التي تبلغ مساحتها ألـف هكتـار، وذلـك لإشباع نزوته.

لقـد أهـدى الـرئيس التونـسي الأسـبق ابـن عـلي، وهـو في أوج زهـوه، لمحمد بن نـايف، الـذي يـشغل اليـوم منصب ولي العهـد في المملكـة العربيـة الـسعودية، مـساحات شاسـعة مـن أراضي الـصيد في جنـوب الـبلاد لـصيد الحبارى، وهو نوع من الطيور البرية. «ركب محمد بن نايف، في أحد مقرات إقامته الخاصة بالصيد، جهاز كمبيوتر يصله بوزارة الداخلية التي يرأسها في المملكـة العربيـة الـسعودية، لمتابعـة محاربـة الإرهـاب». هـذا مـا أفـشى بـه دبلوماسي تونسي. لقد فرض محمد بن نايف أن تنعقد جميع اجتماعات وزراء الداخلية العرب في تونس، وذلك تعبيراً عن شكره لهدية الـرئيس ابـن عـلي. وهكـذا لم يكـن مـستغرباً أن تمـنح الـسعودية اللجـوء للـديكتاتور التونـسي الأسبق والذي لازال مقيماً على الأراضي السعودية في جدة.

يُفضل شقيق الملك سلمان، أحمد بن عبد العزيز، الصيد في كازاخستان. ومن أجل ذلك، لا يتردد في استئجار طائرات روسية من طراز أنتونوف ليحمّل على متنها سيارته الفخمة ٤×٤، ومعداته اللازمة لتأمين إقامته. وبحسب برقية دبلوماسية أرسلت من السفارة الباريسية عام ٢٠١٠، يعتبر جنوب العراق أيضاً أحد مواقع الصيد التي تجذب الأمراء: «تعشق العائلات المالكة في الخليج الصيد في الصحراء العراقية، لكنها تتعرض أحياناً لعوائق. يقصد أمراء الخليج صحراء العراق بغية صيد الغزلان، والحبارى، والحجل. حيث يمارس الصيد في هذه الصحراء الممتدة على طول الحدود مع سورية، والأردن، والسعودية. إن هذه الحدود غير مضبوطة تماماً، وهذا ما أتاح للإرهابيين التسلل والقيام بأعمال خطف، إذ قاموا باختطاف ثلاثة رؤساء عشائر إماراتية، ومرافقهم العراقي وولده في صحراء الأنبار بالقرب من الموصل، وذلك خلال رحلة صيد بحثاً عن الصقر. وكان الإماراتيون قد دخلوا العراق دخولاً غير شرعي. وبحسب الإشاعات التي سرت قد تكون القاعدة وراء عملية خطف الإماراتيين الثلاثة الذين تم تحريرهم بعد دفع فدية ضخمة. واجه ستة وعشرون صياداً قطرياً، ومن بينهم أفراد من العائلة الملكية آل ثاني، المصير نفسه، لكن في جنوب العراق هذه المرة، علماً بأنهم قد دخلوا العراق بموافقة رسمية من بغداد. إلا أن هذه العملية أخذت منحى سياسياً، وليس طلباً لفدية: فقد طلب الخاطفون الشيعيون، إطلاق سراح عدد من كوادر حزب الله اللبناني المحتجزين من قبل داعش وجبهة النصرة، الفرع السوري للقاعدة. تم تحرير أحد الأمراء، بينما لا يزال آخر رهينة عندهم، ولذا فإنه قد يصبح ضحية إضافية للتوتر القائم بين السنة والشيعة الذي يلقى بظلاله على المنطقة.

يحط فصل الصيف رحاله، بعد انتهاء فصل الصيد، ويبدأ أمراؤنا بالبحث عن منتجعات، هرباً من الحرّ في الخليج الذي يتجاوز الخمسين

درجة في الظل، فيتوجهون نحو سماوات أوربا وأمريكا الأكثر اعتدالاً. يستأجر الأمراء طائرات شحن خاصة لنقل سيارات البورش، والفيراري، وسيارات الماسيراتي الأخرى، وجميع الأمراء يملكون عقارات خاصة بهم في لندن، وفي باريس، وفي جنيف، وعلى الشاطئ اللازوردي في جنوب فرنسا (كوت دازير)[1].

أثارت المظاهر التي حصلت أثناء قضاء الملك سلمان عطلته في فالوريس صيف ٢٠١٥ استهجاناً كبيراً بوجود ألف شخص مرافق للملك، وسال كثير من الحبر حول إنشاء مدخل من الإسمنت يؤدي إلى شاطئ ميراندول العام، وذلك أمام قصر العاهل السعودي[2]. حاز الملك فهد على هذه الملكية – قصر أورور– عام ١٩٧٩. تنازل خلفه الملك عبد الله عنها لصالح قصره في الدار البيضاء، في المغرب.

رجع الملك السعودي، للمرة الأولى، إلى الكوت دازير بعد غياب لفترة طويلة من الزمن، لكنه عاد أدراجه، ومعه حاشيته، إلى المغرب بعد أيام قليلة مغتاظاً من الهجوم الكلامي الذي شُن عليه، وهذا ما أزعج كثيراً من التجار المحليين. تم تخصيص كل فرد من الحاشية بمبلغ عشرة آلاف دولار يومياً، لقضاء حاجاته ومشترياته: أي مصروف جيبه. اغتاظ الملك سلمان من الاستقبال الذي لاقاه في فرنسة.

يقضي آل ثاني صيفهم على مرتفعات كان. يعشق أمير قطر السابق الشيخ حمد، الذي تنازل عن عرشه لصالح ولده تميم، الإبحار على متن القطرا، وهو يخته الذي يبلغ طوله مئة وأربعة وعشرين متراً، في عباب البحر

(١) يمتلك الملك سلمان شقة في جادة فوش، في باريس وأخرى في لندن.

(٢) أحدث بناء تلة من الإسمنت مصبوبة أمام نزل الملك فهد في خليج جوان جدلاً كبيراً» يينس-ماتان، ١٥ تموز ٢٠١٥

الأبيض المتوسط من جزر الباليار حتى بحر إيجه حيث اشترى هناك ست جزر يونانية، الأشيناد، بمبلغ يتجاوز ثمانية ملايين يورو ونصف المليون[1].

أما العائلة المالكة في الإمارات العربية المتحدة، فهي تفضل الهواء العليل لبحيرة ليمان ولسويسرا[2]. وكان الشيخ زايد قد اشترى ملكية كبيرة في منطقة ماكسيلي سير ليمان، بالقرب من جنيف. يتجمع الأمراء الكويتيون حول ديفون لي بان حيث يملك آل الصباح فيها عقارات خاصة بهم. إن أمراء الخليج مولعون بالحجر الجميل وبسحر البناء القديم. فقد أهدى ملك البحرين حمد بن عيسى آل خليفة نفسه قصر بوربون - كوندي في الدائرة السابعة في باريس. تم ترميم وإعادة تأهيل هذا القصر التاريخي، حيث كلف مبلغ سبعين مليون يورو، هذا في الوقت الذي يعاني فيه معظم أبناء شعبه شظف العيش. لم يكتف ملك البحرين بهذا فقط، بل اشترى أيضاً قصر كريتز – أرمينفيليه بمنطقة السين والمارن، مع حديقته التي تبلغ مساحتها أربعمئة هكتار، وقد كان هذا القصر حتى تاريخه ملكية للعرش الملكي المغربي.

إن كانت لندن تغنم باستثمارات الإماراتيين والكويتيين في مجال العقارات، تبقى باريس الوجهة المفضلة للسعوديين والقطريين. «إنهم لا يطلبون شراء عقار تقل مساحته عن ستمئة مترٍ مربعٍ، هذا ما أكده صاحب مكتب عقاري مختص بالزبائن الخليجيين، إنهم يشترون كثيراً في الدائرة السادسة عشرة». وقد اشترت إحدى كريمات الملك الراحل عبد الله نزلاً تبلغ مساحته ألف متر مربع في جادة ريمون بوان كاريه. تابع صاحب المكتب العقاري المختص بزبائن الخليج قوله، إنه بعد تقلد الملك سلمان مقاليد الحكم في السعودية، وصعود نجم ولده محمد بن سلمان كولي لولي

(١) اشترى أمير قطر ست جزر يونانية بثمن بخس، الغارديان، ٤ آذار ٢٠١٣.

(٢) «يتمركز الشيوخ حول بحيرة ليمان»، لوماتانديمانش.

العهد، « سارع عدد من أعضاء الأسرة المالكة بزيادة مشترياتهم في العاصمة الفرنسية، خوفاً من محمد بن سلمان الذي أبعد الكثير منهم، فأخذوا احتياطاتهم درءاً لأي ضربة محتملة وذلك بتأمين خلفهم ».

يعتري قسماً كبيراً من أفراد العائلة المالكة والشخصيات المهمة في المملكة اضطراب وقلق.

«يقول محامي باريسي مختص بالأعمال، ومستشار لعدد من أمراء الخليج: كانت الأولوية بالنسبة لأمراء الخليج، منذ ثلاث سنوات، تذهب نحو تضخيم ثرواتهم العقارية، لكنهم، في الوقت الحالي، غيروا في توجهاتهم بشكل جذري. فأصبح هاجسهم اليوم هو تأمين وضمان ثرواتهم. يسألونني دائماً، يضيف المحامي، ما هو العمل لحماية مالي؟ ».

يستخدم أمراء الخليج الآليات الأكثر كتماناً لضمان سرية استثماراتهم العقارية.

«يقوم أمراء الخليج، الذين لدى شركائهم ملكية عقارية في باريس، بتأسيس شركة عقارية مدنية باسم شركة لوكسمبرجوازية أو بلجيكية ستقوم بتمويل هذه الحيازة عبر وكيل في جيرسي، ومن ثم تتوارى تحت ثلاثة أو أربعة طوابق من الشركات خارج الشاطئ وذلك للتمويه. إن العملية بمجملها تموّل بقرض مرهون ومحجوز بنفس المبلغ المودع لدى مصرف سويسري» وهكذا يفلت الأمراء من دفع الضرائب على الثروة، ولا أحد رأى، ولا أحد عرف، كما يفلتون من أي حجز على الأملاك العقارية.

يُشكل أمراء الخليج وشخصياته المهمة هدفاً مميزاً للصوص، أثناء إقامتهم في الخارج، ولاسيما أنهم يتجولون وفي جيوبهم رزم من قطع المال، وتتباهى نساؤهم بالحلي والمجوهرات غالية الأثمان. كما أن لهم طقوسهم الخاصة بهم في فنادق النجوم الخمسة في الدائرة الباريسية الثامنة، وهذا ما يسهّل عمل استدلال المجرمين عليهم.

«سجلنا، في شهر تموز ٢٠١٥، عدداً قياسياً من السرقات ضد زبائننا الخليجيين، أكد لنا ذلك موظف كبير في فندق ضخم يقع في جادة الشانزيلزيه. فقد تم تقديم سبع وثلاثين شكوى إلى مركز الشرطة. كما تعرض مسؤول قطري، يزور باريس في إطار اتفاق عسكري، لعملية سرقة محفظة الوثائق التي كانت بحوزته وهو حاضرٌ على منضدة الاستقبال في الفندق. شوهد، عبر كاميرات المراقبة، رجل يقترب من الزبون القطري، وقد سرق له أمتعته».

لجأت مؤخراً سفارات المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، إلى إيصال تعليمات إلى الفنادق الضخمة في باريس، من شأنها اتخاذ احتياطات إضافية بخصوص مواطني بلديهما، وهذا يعني على أرض الواقع، أن تقوم شركات الحماية المؤهلة بتقديم حراسة شخصية (رجال ونساء) وسيارات مصفحة. إن عملية إنجاح إقامة الأمراء الخليجيين هي عمل تجاري يُدر الكثير من المال!

لكن ما يلفت الانتباه، هو أنه في الوقت الذي يلهو فيه أمراء الخليج وشخصياته المهمة في الخارج ويصرفون بدون حساب المال، يغرق الشباب السعودي في الضجر وهم في بلدهم. لقد ضاق الشباب السعودي ذرعاً بكثرة الممنوعات الدينية وبالقواعد الاجتماعية، حيث إنّ فرص المتعة والترفيه نادر في بلاد الله، وإنّ دور السينما والمسرح والرقص لا تزال محظورة.

يقضي الشباب حياتهم وهم يتسكعون في المراكز التجارية، ويقومون بتصرفات محفوفة بالمخاطر. وفي ليلة الجمعة، عطلة نهاية الأسبوع، يتسلون بالقيام بعروض ليلية بسياراتهم أو على الموتورات يجوبون جادة التخلية

وهـي بمثابـة شـانزيليزيه الريـاض. إن تعـاظم هـذه الظـاهرة دفـع العلـماء المسلمين إلى إصـدار فتـوى تـدين هـذه المظـاهرات الليليـة، التـي وصـفوها بالظاهرة السيئة، التي يقوم بها بعض الشباب المنحرفين بـالفكر وبالعمـل[1]. لكن هذه الفتوى لم تعط أية نتيجة.

ابتكر الشباب السعودي المحبط اجتماعيـاً وثقافيـاً، ألعابـاً آثمـة وذلـك مـن أجـل الهـروب مـن حالـة الـروتين، مثـل لعبـة «القـذف عاليـاً بـسياراتهم الفخمـة، عـلى الطريـق العـام الرئيـسي، فهـم يـسيرون بـسرعة عاليـة وهـم يتعلقون بأبواب السيارات تاركين المركبة تنزلـق عـلى الزفـت، كـما لـو كـانوا يقومون بألعاب رياضية مائية. و يقومون بتفريغ محتويات سياراتهم تـاركين فقط كرسياً واحداً في حجرة السائق. أما في الصحراء، فتشمل اللعبـة تـسلق كثبان من الرمل بسياراتهم المخففة إلى أعلى قمة ممكنة دون أن تنقلب! وكـان يقع، في كل عطلة نهاية أسبوع، جرحى وأحياناً قتلى من جراء هذه اللعبة .

إن العالم الذهني للسعوديين مصاب بالانفصام. يتغنى وزيـر خارجيـة السعودية عادل الجبير قائلاً: «يعتبر شـعبنا، بـدون أدنـى شـك، الأكثـر ربطـاً بالإنترنيـت في العـالم، إذ يـستخدم التـويتر[2] نـصف الـشعب الـسعودي». ويرتفع عدد مـشاهدات اليوتيـوب يوميـاً إلى مئـة وتـسعين مليـون مـشاهدة. يستفحل، في عصر العولمة، التوتر بين الحداثة والتراث.

وبحـسب دبلومـاسي فرنـسي خـدم لفـترة طويلـة في المملكـة العربيـة السعودية «إن التناقض بـين الانفتـاح والانغـلاق موجـود في الـسعودية منـذ

---

(١) مملكـة الإسـفلت – الـشباب الـسعودي يتمـرد، باسـكال مينوريـه، دار الطباعـة لاديكوفيرتويلدبروجكت، ٢٠١٦.

(٢) لقاء مع أحد المؤلفين، باريس، ١٠ أيار ٢٠١٦.

الأزل. فهو ليس بجديد، وإنما يأخذ اليوم شكلاً أكثر حدة نظراً لتعاظم التحديات الواجب التصدي لها».

إن إولى التحديات، التي كانت ولا زالت، تعود إلى معاهدة عام ١٩٤٤، التي سمحت للمؤسسة الدينية بممارسة هيمنتها على المجتمع السعودي. وبحسب معظم المختصين بشؤون المملكة، فإن الأمور ليست على مقربة من التغيير.

يتعلق التحدي الآخر بحكم الشيوخ (المسنين) الذين يمسكون بمقاليد الحكم في المملكة العربية السعودية. والسؤال الذي يتردد على ألسنة السعوديين جميعهم: من سيخلف الملك سلمان البالغ من العمر ثمانين حولاً؟

السعودية الجديدة

«أنا خوان كارلوس على الهاتف، هل استطيع التحدث مع الملك سلمان؟».

هكذا تحدث العاهل الإسباني السابق عندما اتصل بنظيره العاهل السعودي على هاتفه الجوال، وقد تفاجأ بعدم التعرف على صوته، حيث كان على الطرف الآخر من الهاتف صوت شاب يجيب: «أجل خوان كارلوس ملك إسبانيا، إن الملك سلمان منهمك في عمل لا يستطيع التحدث!»، كان هذا الصوت لابن سلمان الذي أبعده عن الساحة، إنه محمد بن سلمان، النجم الصاعد في المملكة منذ تولي والده عرش الحكم إثر رحيل عبد الله في كانون الثاني[1] ٢٠١٥.

تعيش السعودية، منذ ذلك التاريخ، مخاض ثورة مصغرة، حتى لو كانت هذه المفردة مكروهة في هذا البلد الذي يكره التسارعات القاسية في التاريخ. فالسعودية هي أكثر من مملكة، هي أوليغارشية (حكم القلة) أميرية كانت ولا زالت حتى الآن.

يحيك العديد من الأمراء، أصحاب الدم الملكي، المكائد في الخفاء بانتظار خلافة الملك عبد الله، الذي أنهكه المرض منذ سنوات عدة. من بين الطامعين بالعرش يتصدر ابن عبد الله الأمير متعب، وخالد بن سلطان، ابن

(١) روى السفير الإسباني في الرياض هذه الطرفة.

الأمير سلطان، الأخ غير الشقيق للملك عبد الله، وأخيراً محمد بن نايف، ابن الأمير نايف هو الآخر أخ غير شقيق للملك عبد الله.

من المعروف أنه في السعودية يوجد معادلة السلطة تساوي المال، فكل واحد، من هؤلاء الطامحين للوصول إلى العرش، أسس لبناء إمبراطورية تحت جناحي رب العائلة الرحيم الكريم المتربع كل منهم على عرش جماعته. فقد أوكل إلى محمد بن نايف عهدة محاربة الإرهاب تحت قيادة وزارة الداخلية التي رأسها والده طيلة أربعين عاماً. عُهد إلى خالد بن سلطان قيادة الجيش، الذي رعاه والده سلطان، وتسلم متعب مقاليد قيادة الحرس الوطني، الذي هو شكل من أشكال حرس الطاغية في خدمة الملك عبد الله.

لقد فسحت لعبة التوازن العسكري والقبائلي البارعة المجال لنمو هذه الصراعات الداخلية. أمّن متعب حماية النظام والمؤسسات النفطية، وذلك من خلال الحرس الوطني والعشائر التي يتألف منها. وحمل خالد بن سلطان مسؤولية حماية الحدود، والملف النووي. تصدى محمد بن نايف، من جهته، لحماية العائلة من مخالب القاعدة. لكن في الخفاء، أخرج الأمراء سيوفهم من أغمادها بدءاً من عام ٢٠١٠ مع بداية تدهور الحالة الصحية للملك عبد الله.

نهاية مُضنية لحكم عبد الله

أرسلت السفارة الفرنسية بالرياض برقية دبلوماسية إلى باريس، وذلك قبل قيام رئيس الوزراء الفرنسي فرانسوا فيون بزيارة المملكة في شباط ٢٠١١، تحذر فيها قائلة: «لا تأبهوا لمظاهر محدثيكم، وإلا ستذابون بالرعب! الملك عبد الله متعب جداً، وولي العهد سلطان هو أيضاً سقيم جداً، ووزير الداخلية نايف يمشي بخطى ثقيلة كعجوز أكل الدهر عليه وشرب، أما سعود الفيصل، رئيس الدبلوماسية السعودية، فحاله ليس بأحسن». لم يبق في الميدان سوى الأمير سلمان، حاكم الرياض آنذاك، ويبلغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً، ويبدو أنه في صحة لا بأس بها نسبياً. بالنسبة للآخرين أي «عصابة الأربعة» فهم أيضاً يبدون عجائز عاجزين جداً عن القيام بأي مهام، حيث إنهم جميعاً يتجاوزون الثمانين حولاً. طبعاً، لقد أنجب الملك عبد الله طفلاً، وهو في الثمانين من عمره، من شابة مغربية، مع أن أطباءه الأميركيين طلبوا منه أن لا يكثر من الفياغرا[١].

تخلل السنوات الأخيرة من حكم عبد الله رحيل العديد ممن كانوا يطمعون بالخلافة من بين أبناء عبد العزيز بن سعود الآخرين الذين يبلغ عددهم ثلاثة وخمسين ابناً لمؤسس المملكة العربية السعودية.

رحل وزير الدفاع الأمير سلطان في تشرين الأول ٢٠١١، بعد أن بقي على رأس هذه الوزارة منذ عام ١٩٦٣. جمع الأمير سلطان ثروة طائلة، كان

(١) لقاء مع دبلوماسي، الرياض، نيسان ٢٠١٦، سبقت الإشارة إليها في ويكيلكس.

أساسها عقود التسليح الضخمة التي وقعتها السعودية منذ الثمانينيات مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا.

لقد ترك إرثاً لأولاده يتجاوز مبلغ مئتين وسبعين ملياراً من الدولارات، فاسدة بامتياز. لم تُذرف دموع حقيقية على رحيله، إذ أمضى شهوره الأخيرة غائباً عن المملكة قضاها بين مشفى روشيستر مايو في الولايات المتحدة، وقصره في الأغادير بالمملكة المغربية.

سيحفظ التاريخ للأمير سلطان دوره في تحديث القوات المسلحة، فتضاعف عديدها إلى أن وصل إلى مئة ألف رجل، وكذلك في الحصول على عقود مثمرة لتسليح الجيش إلى أن شرع الملك عبد الله في صياغة نظم جديدة لوضع حد لهذه الصفقات غير الشفافة.

ما إن رحل سلطان، حتى هبَّ الملك عبد الله والمقربين منه لتحطيم جماعة أخيه غير الشقيق. وكان خالد بن سلطان، ابن الأمير سلطان، أول الضحايا في تصفية الحسابات. وشيئاً فشيئاً، بعد رحيل رب العائلة سلطان، اتجه الملك عبد الله لتفضيل الأمير سلمان على خالد بن سلطان في منصب وزير الدفاع، مع العلم أن خالد بن سلطان كان يحتل منصب نائب وزير الدفاع. على كل حال، احتاج أمر التخلص نهائياً من خالد بن سلطان لستة أشهر من حرب الخنادق التي كانت شرسة للغاية. تمت إحالة خالد بن سلطان إلى تقاعد قاس، تم إبلاغ المعني فيه بواسطة بيان من ثلاثة سطور في ربيع عام ٢٠١٢. ولكن وكما هي العادة عند آل سعود تنتصر إرادة عدم إذلال أي عضو من العائلة المالكة، قام ولي العهد، سلمان بالتعويض على خالد بن سلطان من خلال منح شركة الطيران ناس اير، المقربة من خالد عقود جديدة لنقل الحجاج من تشاد والسودان إلى مكة.

خلت الساحة لمتعب ابن الملك عبد الله، بعد استبعاد خالد بن سلطان، وأصبح الملعب حراً من الآن فصاعداً. وبدعم من والده، بدأ

الأمير متعب بالسعي لتقديم نفسه وتلميع صورته كقامة دولية. « جرت العادة أن يأتي الأمير متعب إلى باريس كل ستة أشهر ليحل ضيفاً على نيكولا ساركوزي في قصر الأليزيه»[1]، هذا ما ذكره دبلوماسي.

كان يلتقي بشكل منتظم مع فرانسوا هولاند، منذ عام ٢٠١٢، وكذلك مع جان إيف لودريان، برفقة جورج فانسيولي الذي يدير سيزار انترناسيونال، وهو شخص رزين لكنه مزود أسلحة فرنسية فعّال جداً للحرس الوطني. حضر قائد الحرس الوطني في حزيران ٢٠١٢ صالون بورجيه وهو الموعد السنوي لصناعييّ الطيران، وذلك مع العلم أن الحرس الوطني هو قوة برية فقط.

كان الأمير متعب يسعى لتجهيز «وليده» بطائرات هيلوكوبتر المروحية، وذلك من أجل تدخل سريع في حال تعرض العائلة المالكة لأية عوارض.

جاء دور الأمير نايف، في حزيران ٢٠١٢، في الرحيل عن عالمنا، لم يتضايق الملك عبد الله كثيراً على رحيل أخيه غير الشقيق، الذي كان محافظاً ومقرباً من المتديّنين، كما كان مناهضاً للإصلاحات التي شرع بتنفيذها الملك عبد الله. وفي ظل التمزق الحاصل في العائلة المالكة، تم توقيع عهد بين الأخوة غير الأشقاء لوقف هذا التدهور الحاصل في العائلة. تُرك للملك عبد الله، بموجب هذا العهد، حرية إجراء الإصلاحات التي يراها مناسبة، كما تُرك لنايف الاهتمام بالشريحة المحافظة من المجتمع السعودي وطمأنتها. لكن الملك عبد الله تصرّف، كبدوي مكّار، تسكنه إرادة تمتين العهد بحيث تبقى الإصلاحات التي يقوم بها إلى ما بعد رحيله. لذلك حيكت تحالفات دم حوله، من خلال تزويج عدد من كريماته إلى أبناء أخيه غير الشقيق

(١) قام الأمير متعب بعمليات استثمار في باريس، منها شراء الفندق الفخم كريون.

نايف. المحافظة على السلطة لها مقتضياتها. تمت ترقية محمد بن نايف لتسلم مقاليد وزارة الداخلية، بعد رحيل والده، خاصة أنه أثبت براعة في قيادة عمليات محاربة الإرهاب.

تم إرساء سلام مسلح بين جماعة عبد الله ومحمد بن نايف، فالملك عبد الله بحاجة خبرة محمد بن نايف في محاربة الإرهاب. وكان الملك عبد الله قد أرسل وزير الداخلية، قبل وفاة نايف الأب بشهور عدة، لإعادة الهدوء إلى منطقة الشيعة المضطربة في شرق البلاد، وهي المنطقة التي تحوي المخزون الاحتياطي من البترول. لم يحصل محمد بن نايف فقط على رأس حاكم هذه المنطقة، محمد بن فهد، أحد أبناء الملك السابق فهد الذي كان يدير هذه المنطقة الاستراتيجية منذ عام ١٩٨٥، إنما وضع، خلفاً له على رأس هذه المنطقة، أخاه الأكبر سعود بن نايف، والذي كان حتى ٢٠١٠ سفيراً للسعودية في إسبانيا، وبهذه الصفة قام بهندسة التقارب بين العائلات المالكة، مما سمح للمؤسسات الإسبانية بالحصول على عقود كبيرة في المملكة العربية السعودية.

تبدو جماعة محمد بن نايف أقوى من أية لحظة مضت، وذلك بإمساكها بمقاليد قيادة المنطقة البترولية ووزارة الداخلية.

لقد أدت الصراعات الداخلية بين المجموعات إلى تباطؤ في وتيرة العمل، إذ لم يعد أي وزير يجرؤ على اتخاذ قرارات مهمة، أو توقيع عقود كبيرة خوفاً من إعادة النظر فيها لاحقاً من قبل الملك القادم. لكن بقي الحرص على حماية العائلة المالكة يحتل الأولوية خلال مرحلة نهاية حكم الملك عبد الله. «بقي السؤال الأول الذي كان يطرحه الملك عبد الله، على نفسه، في كل صباح وأثناء حلاقة ذقنه هو: أين ستكون عائلتي بعد خمسين عاماً، هل ستبقى متربعة على عرش المملكة العربية السعودية؟ أو ستكون منفية في واشنطن، أو في قصر بالمغرب. وما هو السبيل لإبقائها؟ هذا ما كشفه دبلوماسي أمريكي أمام زميله الفرنسي».

سلمان، حارس بيت آل سعود

أصبح سلمان ملكاً، وهو الابن الخامس والعشرون لعبد العزيز، وذلك بعد رحيل أخيه غير الشقيق عبد الله في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني ٢٠١٥.

لم يحظ رحيل عبد الله بتكريم كبير من قبل الملك سلمان الذي اكتفى بإغلاق المؤسسات الحكومية لمدة أربع وعشرين ساعة فقط، حتى دون إعلان حداد وطني.

باشر الملك سلمان مباشرة بإبعاد عدد من المقربين من عبد الله: بدأ باثنين من أبناء الراحل الأمير مشعل (حاكم منطقة مكة)، والأمير تركي (حاكم الرياض)، وخاصة خالد التويجري، رئيس مكتب الملك عبد الله والمتنفذ جداً، والذي انتهز فرصة مرض الملك عبد الله لتوسيع سلطاته.

أقال العاهل الجديد ولي العهد مقرن، وذلك في إطار حملته لتنظيف البيت، كونه كان مقرباً من الراحل عبد الله: وهذا الحدث غير مسبوق في تاريخ المملكة. عيّن مكانه ابن شقيقه محمد بن نايف، قام أيضاً بترقية ولده محمد بن سلمان إلى منصب ولي ولي العهد، تحت عنوان تجديد السلطة بتطعيمها بالشباب. انتهت مرحلة تقاسم السلطة بين الأمراء في عهد الملك سلمان، وجاء زمن «الثالوث المقدس» بقيادة مقدرات «السعودية الجديدة«: الملك، والمحمدين، ولي العهد بن نايف، وولي ولي العهد بن سلمان.

تم استبعاد الأمراء الآخرين، بمن فيهم عدد من إخوة الملك عبد الله غير الأشقاء (مقرن وأحمد) وهم مؤهلون للطموح للسلطة. ولكن ولكي تطمئن القلوب، لم يكن استبعاد هؤلاء الأمراء بدون مقابل، لا بل كان الثمن غالياً. «قبض كل واحد من الأحد عشر أميراً، المستبعدين من السباق باتجاه العرش، ما بين مليار ومليارين من الدولارات»، «لقد قبض مقرن وحده مبلغ ملياري دولار»، باح بذلك أحد الدبلوماسيين المطلعين عن كثب على أمور المملكة.

تمحورت توجهات الحكم الجديد حول محورين هما: الاقتصاد، بقيادة محمد بن سلمان، والأمن، تحت قيادة محمد بن نايف. يرأس الملك سلمان اجتماع مجلس الوزراء، صباح كل يوم اثنين، في قصره. وينعقد، من بعد ظهر اليوم نفسه، اجتماع برئاسة محمد بن سلمان، للجنة الشؤون الاقتصادية بحضور الوزراء المعنيين.

وفي اليوم التالي أي الثلاثاء صباحاً، تعقد اللجنة السياسية اجتماعها برئاسة ولي العهد محمد بن نايف، وبمشاركة محمد بن سلمان بصفته وزيراً للدفاع. احتفظ محمد بن نايف، إضافة لمنصبه كولي للعهد، بقيادة عملية محاربة الإرهاب، في حين يشرف محمد بن سلمان على الدفاع والشؤون الخارجية، عبر مقرب منه هو وزير الخارجية عادل الجبير، الذي كان سفيراً سابقاً للسعودية في الولايات المتحدة الأميركية. ها هي المرة الأولى التي يتبوأ فيها شخص من عامة الشعب منصب رئيس الدبلوماسية في المملكة.

غاب الأمراء عن الحكومة، إلا أن هناك أفراداً من العائلة المالكة لا يزالون حكاماً لبعض الأقاليم، وهذا من شأنه الحفاظ على توازن بين الأفخاذ المختلفة لآل سعود. أما فيما يتعلق بالوزراء فمعظمهم ينتمون إلى طبقة التكنوقراطيين تم اختيارهم على أساس الكفاءة، وأحياناً هم رجال أعمال.

إذا ما كان الملك عبد الله إصلاحياً، فإن سلمان هو أكثر انتهازية، خاصة على الصعيد الاجتماعي. «إنه حاكم الرياض الفعلي، وممثل أهل نجد، مهد عائلة آل سعود، وإداري يبدأ دوامه في السابعة والنصف صباحاً لمتابعة شؤون العباد والبلاد». هذا ما كشفه السفير الفرنسي في السعودية برتراند بوزانيسيو.

بلا كلل ولا ملل، استمر سلمان، خلال خمس وخمسين سنة، في منصبه كحاكم للرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، هذا المنصب الذي يعتبر مرصداً[1] أتاح له فرصة نسج علاقات قوية مع العديد من العشائر التي استقرت في مدينة ضخمة يقطنها اليوم خمسة ملايين إنسان.

كانت تصرفاته الأولى مدروسة بشكل دقيق، وذلك بناءً على ما عُرف عنه بأنه شخص محافظ ومتشدد. فقد قام، بسرعة كبيرة، بتسمية مستشار له هو إمام جامع متشدد كان الملك عبد الله قد أبعده، أثار هذا الإجراء ضجة حول إعادة تمركز السلطة لصالح المتدينين.

«كانت شوارع جدة، في الأيام الأولى لحكم الملك سلمان، خالية من المارة، بحسب ما رواه مغترب أجنبي، لا أحد يرغب في الخروج من بيته، خوفاً من الشرطة الدينية» كان الارتباك سيد الموقف، والخوف كبير من أن يستند الملك الجديد على علماء الدين لتمكين سلطته.

عندما اقترب موعد الانتخابات البلدية، والتي فُتح فيها الباب لمشاركة المرأة، حضر إلى ديوان الملك مجموعة من رجال الدين يعربون عن معارضتهم لهذه المشاركة. إلا أن هذا القرار، الذي اُتخذ في عهد الملك عبد الله، يشكل جزءاً من المواضيع غير القابلة لإعادة النظر فيها من قبل المؤسسة

---

(١) لم يكن المسؤولون الفرنسيون، باستثناء جاك شيراك، يقومون بإجراء لقاءات مع سلمان عندما كان حاكماً للرياض.

الدينية. وما كان بإمكان السلطة مناقشة موضوع الفصل بين الجنسين مع العلماء في مكاتب الاقتراع، وكذلك تنظيم المجالس البلدية من حيث أماكن جلوس السيدات المنتخبات في المجلس. خطوتان إلى الأمام، وواحدة إلى الوراء.

قام الملك سلمان، في الأشهر الأولى من حكمه، بمراقبة كل ما يجري عن كثب، وقد أطلق العنان للشرطة الدينية، لكن ما لبث أن قام بردعهم وبوضع حد لتجاوزاتهم، خاصة بعد فضيحة اغتصاب. لقد شدد الضغط على المطوعين بمنعهم من اعتقال أي فرد. يمكن القول باختصار إنّه لا مبرر لخوف البعض، فسلمان لم يضيق الخناق على المجتمع.

لا زال الملك سلمان، وبعد مضي سنتين على جلوسه على عرش المملكة، يطلق يد ولده محمد بن سلمان في مشوار تحديث الاقتصاد، بخطى مدروسة من الناحية الاجتماعية. «سنمضي بالتحديث إلى الحد الذي يرضاه الشعب، هذا هو المبدأ الذي يوجه سياسة الملك»، هذا ما أكده دبلوماسي، مذكراً بالخلفية المحافظة للمجتمع السعودي.

حدد الملك سلمان، معتمداً بذلك على خبرته الطويلة على رأس مجلس العائلة حيث كان يفصل في الخلافات بين المجموعات، أولويتين هما: الحفاظ على العقد الاجتماعي والإبقاء على الحد الأدنى من الانسجام داخل العائلة المالكة التي أصيبت بهزة إثر العملية الانتقالية. ها هي مرة أخرى، عملية الحفاظ على سلطة آل سعود على المحك. « بمشيئة القدر، سيكون سلمان إذن متحرراً ومحافظاً »، هذا ما ذهب إليه تقدير جاك بورجوا الضليع في شؤون المملكة.

يفك الدبلوماسي العتيق حسن ياسين رموز شخصية الملك السعودي، وهو الذي عاش على مقربة من الحلقة القيادية طيلة أربعين عاماً، قائلاً: « درس أبناء سلمان من زوجته الأولى، سلطانة صديري، في الولايات

المتحدة الأمريكية، أما أولاده من زوجته الثانية فقد تلقوا تعليمهم في المملكة. كان سلمان، قبل أن يتبوأ منصب حاكم الرياض، منفتحاً، كان يسافر كثيراً. لكن ما إن أضحى يميل للاهتمام بالقضايا الأساسية. لا يمكنك وصفه بـ(المحافظ)، فالأهم بالنسبة لسلمان هو أنه استوعب أهمية الحكم والتغيرات، ونقل هذا إلى أصغر أبنائه، ولاسيما المفضل بينهم لديه (محمد بن سلمان).

يروي دبلوماسي آخر يتردد على الديوان الملكي طرفة تبدو معبرة عن رؤية الملك سلمان للعالم العربي: «في الوقت الذي كان فيه سلمان ولياً للعهد إبان الربيع العربي، سألني ذات يوم: هل تعلم لماذا تتهاوى الجمهوريات، ولماذا لم تمس الأنظمة الملكية؟ السبب الرئيسي، كما يقول سلمان، هو أنه عندما قمتم، أنتم الأوربيون فرنسيون وبريطانيون، بمنح الاستقلال إلى البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية، تركتم خلفكم دساتير، وبرلمانات، وانتخابات .. وبكل بساطة، تابع سلمان، لا يوجد، لا في سورية ولا في غيرها، ثقافة ديمقراطية حقيقية. فماذا حصل لاحقاً؟ تساءل سلمان مضيفاً، إن النخب، التي ورثت السلطة، احتكرتها وتأقلمت بشكل ممتاز معها، ثم بدؤوا بالتفكير بتحويل سلطاتهم إلى حكم وراثي، وفي هذا تناقض فاضح بين النص والممارسة. أما نحن في المملكة العربية السعودية، فلا نتحدث إطلاقاً عن الديمقراطية، لكننا نسعى إلى تطوير المجتمع بشكل متزن».

محمد بن نايف، السيد أمن

انطلقت حرب صامتة، منذ وصول سلمان إلى سدة الحكم، بين ولده محمد بن سلمان، وابن شقيقه محمد بن نايف ولي العهد السعودي. تكمن خلفية هذه الحرب بين الرجلين، في الإدارة التي تسكن محمد بن سلمان، وهي رغبته في الاستئثار بالقسم الكبير من السلطات، منتهزاً فرصة وجود والده على رأس السلطة.

إذا ما بقي النظام البرتوكولي الحالي قائماً، فإن محمد بن نايف ذا السبعة وخمسين عاماً، باعتباره ولياً للعهد، هو الذي سيكون الملك القادم. وهو يتمتع بإجماع العائلة المالكة، وله اليد الطولى في نظام الأمن، كما أنه يتمتع بدعم دولي و لاسيما من قبل الولايات المتحدة الأمريكية. يتميز محمد بن نايف بأنه شخص رزين، ويقود محاربة الإرهاب. إن محمد بن نايف هو من حمى، بشكل كلي، العائلة المالكة آل سعود من الهجمات المتكررة للقاعدة إبان سنوات الدم ما بين ٢٠٠٣ و ٢٠٠٦. إذ أرسى دعائم نظام حماية للأمراء ولمؤسساتهم، وذلك إثر محاولة اغتيال وزير الداخلية السعودي عام ٢٠٠٤ التي شكلت إنذاراً بالخطر على العائلة الحاكمة. كان محمد بن نايف نفسه هدفاً لأربع محاولات على الأقل لاغتياله، حصلت محاولة الاغتيال الأكثر دراماتيكية عام ٢٠١٠، حيث تقدم المهاجم باتجاه محمد بن نايف لتقديم التهاني له بمناسبة رمضان، وكان يخفي شحنة متفجرة على شكل تحميلة وضعها في فتحة الشرج. ولحسن الحظ، في اللحظة التي كان الإرهابي

يقترب من محمد بن نايف، فيها تلقى اتصالاً هاتفياً، فابتعد عن الحشد للرد عليها، وهذا الاتصال كان من والده نايف على هاتفه المحمول.

حصل، في عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤، اختراق للشرطة السعودية حيث تسلل إلى صفوفها مناصرون للقاعدة، في نفس الوقت الذي كان يسافر فيه سعوديون إلى العراق لقتال «الاحتلال الأمريكي».

« في كل مرة، كانت السلطات تخطط فيها لعملية ضد الإرهاب، يتم إجهاض معظم هذه العمليات، لأن عملاء القاعدة، الذين تسللوا إلى صفوف الشرطة و الذين تبلغ نسبتهم ١٠%، كانوا يقومون بكشفها للقاعدة». هذا ما ذكره صناعي مقيم في الرياض منذ سنوات عديدة. شرعت جماعة نايف على أثر ذلك، وهي التي تتحكم بمقاليد وزارة الداخلية، بعملية تطهير طالت قوى الأمن، فاستبدلت العناصر الحجازية المخترقة من قبل القاعدة، بعناصر من عائلات نجدية معروفة بوفائها لآل سعود و مراقبة عن كثب بشكل دائم. كانت المنافسة شرسة، وعمليات التنظيف كانت تجري بشكل أسبوعي، اختتم هذا الصناعي قوله.

انطلقت، في الوقت نفسه، حرب أخرى هي «حرب الأفكار» ضد كل أولئك الذين أغرتهم الأفكار الجهادية. فقد تمت صياغة برنامج للوقاية من التطرف، ولإعادة إدماج السعوديين العائدين من العراق أو المرحلين من السجن الأمريكي (غوانتانامو) تلقى الحرس الوطني تعليمات تخوله صلاحية توثيق العلاقات مع العشائر، وذلك بهدف معرفة ما يدور من حياكة للمؤامرات.

إضافة إلى هذا التشبيك العشائري عن طريق المخبرين الذين كانوا يأتون بالأخبار، فقد تم دفع مبالغ من المال للجهاديين السابقين كي يؤمِّنُوا عملاً وسكناً وزواجاً، وتشجيع العائلات على إعادة أبنائهم الضالين إلى الطريق السويّ طريق الإسلام اللاعنفي.

بدأت قوات الأمن، ابتداءً من عام ٢٠٠٥، باستباق الأحداث. لقد توصل الثنائي نايف وولده إلى طرد إرهابييّ القاعدة إلى اليمن المجاور، وإلى إجلاء المنظمات الخيرية التي كانت تمد بالمساعدة شبكة أسامة بن لادن، المقاتل السابق الذي جرّد من الجنسية السعودية من قبل الرياض. اعتمد محمد بن نايف في معركته هذه على مساعدة المخابرات المركزية الأميركية (CIA)، والتي تكن له، منذ ذلك الوقت، التقدير(١).

بدأت الحرب ضد القاعدة تعطي شكلها شيئاً فشيئاً، حتى لو أُصيبت بنكسة في شهر شباط ٢٠٠٧، وذلك عندما تم اغتيال سبعة فرنسيين بوحشية بينما كانوا يقومون بزيارة للموقع الأثري مدائن صالح، على أيدي كوماندوس جهادي.

« أعدكم بأننا سنلقي القبض على القتلة وسأدعوكم إلى حضور قطع رؤوسهم»، هذا ما التزمه محمد بن نايف أمام بيير غوجارد، ملحق الأمن الداخلي في السفارة الفرنسية(٢).

بقي تحدي محاربة القاعدة كبيراً على الرغم من الضربات الموجعة التي تلقتها، هذا ما كان يبوح به محمد بن نايف أمام زواره الأجانب. « يوجد لدينا عشرة آلاف رجل على أهبة الاستعداد لارتكاب عمليات اغتيال، كما يوجد مليون آخر يشكل بيئة حاضنة جاهزة لمساعدتهم، ويتوجب علينا أن نشتغل على هذا المليون ». يكمن هدفنا في أن نمنعهم من أن يتحولوا إلى الجهاد المسلح.

---

(١) لم تكن واشنطن محبة لوالده نايف، المقرب من المتدينين، حيث رفض إيصال نتائج التحقيق، بخصوص تفجيرات أبراج الخبر عام ١٩٩٦ والتي قتل فيها تسعة عشر مواطناً أمريكياً، إلى الشرطة الأميركية **(**FBI**)**.

(٢) تم تنفيذ حكم الإعدام بحق عدد من المجرمين في شهر شباط ٢٠١٦، وذلك عندما أُعدم سبعة وأربعون شخصاً رمياً بالرصاص.

هذا ما كان عليه الحال منذ عشر سنوات، فأين نحن اليوم من داعش، التهديد الإرهابي الجديد[1]؟

«كان يقول لي عدد من أفراد عائلة آل سعود عام ٢٠٠٣، لدينا ما بين ١٢ و ١٥% من مجتمعنا متعاطفون مع القاعدة، هذا ما كشفه مختص أوربي في الرياض. والآن يقولون لي إن هذه النسبة ما بين ٢٠ و ٣٠%. آل سعود قلقون، لكن ما هو الدليل على ذلك؟ تقيم السعودية علاقات تحالف مع تركيا المدافعة عن الإخوان المسلمين، في الوقت الذي صنفت فيه السعودية الإخوان المسلمين كحركة إرهابية، هذا دليل على خوف السعوديين. إنهم يترددون».

وفي الأثناء، من هنا مرت الحرب في سورية. لقد لعب السعوديون بالنار مع عدوهم الأسد، بينما هم في الداخل متشددون في اجتثاث القاعدة.

تم سحب الملف السوري في ربيع ٢٠١٤، من يد بندر بن سلطان، مدير المخابرات السعودية. ليتم تسليمه إلى محمد بن نايف، الذي جسد مباشرة قطيعة مع بندر. استصدر وزير الداخلية فوراً مرسوماً من الديوان الملكي يقضي بمنع السعوديين من الانضمام إلى صفوف منظمة «متطرفة» في الخارج، أي في سورية والعراق.

لقد طوت الرياض صفحة بندر. لقد أعطى «الصقر» بندر وعداً للملك عبد الله الواهن، والذي أوكل إليه مهمة إسقاط الرئيس بشار الأسد، بأن ينتهي من إسقاط الرئيس السوري خلال ستة أشهر، وبأنه سيشمر عن ساقيه تأهباً للعمل مهما كان.

«لدى الشروع بأي حرب، يجب الذهاب إليها بدون أوهام، وكذا يجب مضاعفة الإمكانيات لإنجازها بأقصر وقت ممكن، هذا ما أكده بندر

(١) ارتكبت داعش خمساً وعشرين عملية اغتيال، خلال ثمانية عشر شهراً، في المملكة العربية السعودية وذلك حسب مصادر وزارة الداخلية.

خلال لقاء مع وفد فرنسي(١) حضر لاستكشاف نواياه. تمنيت لو وضع تحت تصرفي اثنا عشر مليون دولار شهرياً لتمويل مجموع المحاربين» يؤكد بندر «جميع المحاربين»، وهذا يستلزم افتراض أن يذهب المال السعودي إلى مجموعات متطرفة إسلامية.

أكد بندر، وهو واثق بالنفس، أنه يسيطر على « ثمانين بالمئة من المقاتلين على الأرض ». معترفاً، مع ذلك، أن المجموعات المسلحة تحتفظ لنفسها بهامش من الاستقلالية. لم يصعب على المخابرات الفرنسية اكتشاف تناقض في الأقوال. ولكي يبرر بندر سياسته المغامرة يقول: « إذا ما ذهبت إلى الأرض وقلت لهم: هيا أصغوا أيها الرجال، هاكم مئة مليون، ألقوا سلاحكم، لقد توصلنا إلى وقف لإطلاق النار. سيأخذون المئة مليون وسيتابعون القتال ». وصل التلاعب بالمقاتلين، طريقة بندر الغالية على قلبه، إلى حدود مسدودة. فنتيجة لنقص المدربين على الأرض، لم تعد المخابرات السرية السعودية تسيطر وبشكل محدود إلا على المجموعات التي تمولها. أي، وبمعنى آخر، لم يعد بندر يسيطر إلا على القليل، خاصة بعد أن تم توزيع المال في سورية. مارست الإدارة الأمريكية ضغطاً على الرياض لاستبعاد بندر، وذلك بسبب قلقها من أن تقع الأسلحة بأيدي سيئة. وعلى أثر ذلك تم إيقاف كل نشاطاته، بينما أطلقت يد وزير الداخلية – السيد أمن – محمد بن نايف الذي انهمك في إيقاف سفر السعوديين إلى سورية.

استقبل باراك أوباما في البيت الأبيض مهندس تغيير الاستراتيجية في سورية، محمد بن نايف، كما استقبله في لانكلي، مقر المخابرات المركزية

(١) يتألف الوفد من إيمانويل بون، مستشار الرئيس فرانسوا هولاند، بقصر الأليزيه، واريك شوفاليه السفير لدى المعارضة السورية، والعقيد باكسيريلو، عضو في الأركان العامة لرئيس الجمهورية. نشرت مجلة أريان مقتطفات من محضر الاجتماع.

الأميركية (CIA) التي يديرها جون برنان، رئيس محطة الرياض سابقاً وأحد مناصري محمد بن نايف في الإدارة الأمريكية.

لم تقم فرنسا علاقات حسنة مع محمد بن نايف، بعكس الأميريكيين، فقد راهن قصر الأليزيه على نجاح الأمراء السابقين الطامعين بالعرش، مثل متعب وخالد بن سلطان. لذلك ولهذا السبب نفسه، اقترحت السفارة الفرنسية في الرياض تقليد محمد بن نايف وسام جوقة الشرف بمناسبة زيارته إلى باريس في بداية عام ٢٠١٦. إنها عملية استدراك باءت بالفشل، وذلك عندما كشفت الصحافة عن الحدث وهذا سبب حرجاً لقصر الأليزيه الذي لم يكن يرغب بالقيام بهذا التكريم. وكانت النتيجة أن انزعج محمد بن نايف من السفير الفرنسي برتراند بوزاتسنوا الذي اقترح له هذا الزر الوردي.

إذا ما أصبح محمد بن نايف، ذات يوم، ملكاً للمملكة العربية السعودية، فلن تؤول الملكية إلى خلفه مباشرةً وذلك نظراً لعدم وجود أبناء ذكور له. إن هذا الواقع يثلج صدر ابن عمه ويشكل مصدر سعادة لمحمد ابن سلمان.

محمد بن سلمان، الأمير الشاب الذي يُذهل

من يكون محمد بن سلمان؟ أليس هو أمير شاب عصبي المزاج، يرد بجواب فظ على اتصال من ملك إسبانيا؟ أم هو على العكس من ذلك أميرٌ حالمٌ متروٍّ؟ قد يكون الاثنين معاً. إنه الابن السادس من أصل عشرة أبناء للملك سلمان. متزوج من امرأتين له منهما أربعة أبناء، ولدين هما سلمان ومشهور، وبنتان هما فداء ونور.

« مقرب جداً من والده. وعندما يراه الأخير حاكماً للرياض، كان محمد يستيقظ قبل والده وينام بعده، هذا ما أكده صديق طفولته مازن سديري، الذي درس معه ويعمل حالياً في مجال المصارف. يقيم محمد بن سلمان علاقات وثيقة مع الأوساط المصرفية. هو محافظ لكنه ليس متزمتاً، لا يملك تجربة كبيرة، ولم يتابع أية دراسة في الخارج. يحيط به عدد كبير من الحاسدين الذين يغارون منه. لكن لا يملك الأمراء الآخرون كفاءات ».

البديهية الأولى: استفاد هذا الشاب الجسور، والذي بقي لفترة طويلة يتعتع في الكلام، من قربه من والده، الذي منحه رعاية خاصة قبل تبوئه كرسي العرش. « لقد بقي محمد ابن سلمان ساكناً في دار والده، في حين أن إخوته غير الأشقاء شقوا طريقهم في الحياة خارج منزل الأب، وهذا ما أكسبه خبرة من خلال الاحتكاك الدائم مع والده والاعتناء به.

لقد أراد الملك سلمان أن يتيح لابنه محمد فرصة القيام بشيء ما، لأن محمد بن سلمان لديه أفكار ». هذا ما أشار إليه سفير فرنسا في الرياض بوزانسنو.

شغل محمد بن سلمان عدة وظائف، وذلك في السنوات التي سبقت تسلم والده مقاليد العرش في السعودية، من بين هذه الوظائف: أنه اشتغل مستشاراً خاصاً لوالده، ووزيراً للدفاع عام ٢٠١١ – برتبة وزير دولة – ثم عُيّن، عام ٢٠١٢، مستشاراً خاصاً لسلمان عندما أصبح ولياً للعهد. ولدى تشكيل أول حكومة في عهد والده، أصبح محمد بن سلمان يشغل، في الوقت نفسه، منصب وزير الدفاع، ومدير الديوان الملكي، ورئيس لجنة الشؤون الاقتصادية والتطوير. إضافة لكل ذلك، فقد عُيّن محمد بن سلمان، في التاسع والعشرين من شهر نيسان ٢٠١٥، وليَ ولي العهد، ورئيساً للمجلس الأعلى لأرامكو.

لقد جمع محمد بن سلمان ثروة طائلة في مجال العقارات بالرياض، وهذا الأمر غير معروف لدى جمهور عريض من السعوديين، وذلك بعد أن دخل في شركة هي التي تتسلم الأراضي من والده، حاكم الرياض.

لا يجيد محمد بن سلمان اللغةَ الإنكليزيةَ، وتقول الألسن السيئة عنه، إنه قد اشترى شهادته البكالوريوس في الحقوق من جامعة الملك سعود في الرياض. يتحلّقُ حوله عدد من المستشارين الناطقين بالفرنسية، من بينهم الجنرال أحمد العسيري الضابط الذي تخرج من المدرسة الحربية سان سير في فرنسا.

إذا ما كان بإمكان محمد بن سلمان الاعتماد على أخيه غير الشقيق تركي، في داخل أسرته، الذي قدمه لأوساط رجال الأعمال، فإن هناك آخرين يمتعضون من تبجحه. أصبح وحيداً.

« إن أخاه غير الشقيق سلطان، مثلاً، والذي أنجبه سلمان من زوجته الأولى، لا يتفاهم بشكل جيد مع محمد بن سلمان، هذا ما كشفه مصرفي يتردد كثيراً إلى السعودية. ومن الجدير بالذكر أن سلطان هو شخص شاذ، إنه مولع بالفن والثقافة، وهو يرأس قسم السياحة والمتاحف. يوجد أيضاً

إخوة غير أشقاء لمحمد بن سلمان يعتريهم شعور بأنهم مهمشون من قبل محمد، إذ يتوجب عليهم المرور عبره للتحدث مع الملك».

يعود إلى محمد بن سلمان اتخاذ جميع القرارات المهمة، وذلك باعتباره رئيساً للجنة الشؤون الاقتصادية ولأرامكو «يجب أن يصادق محمد بن سلمان ومكتب الملك على جميع العقود التي تتجاوز مبلغ مئة مليون ريال (خمسة وعشرين مليون يورو). وواقع الحال هو أن مبلغ خمسة وعشرين مليون يورو هو فعلاً الحد الأدنى» هذا ما أبداه المصرفي من ملاحظة أن محمد بن سلمان يستأثر بكل مفاصل الاقتصاد في البلاد.

يستند محمد بن سلمان في عمله إلى ثلة من أفراد الطبقة المتوسطة، والتكنوقراطيين، وإلى كوكبة من الشباب، الذين ينتظرون نتائج حكمه. يحيط به شخصيات موثوقة: مثل عادل الطريفي، وزير الإعلام، وخالد الفالح، مدير الصندوق السيادي والوزير الجديد للطاقة الذي فتح له أبواب واشنطن، وفي البلاط الملكي أحمد الخطيب.

بعد أن نجح محمد بن سلمان بإزالة مجموعات مثل مجموعة ابن لادن وأوجيه السعودية، عمل على خلق وإبراز مجموعات أخرى مثل مجموعة زاميل ومجموعة نسمة في جدة التي يرأسها أحد مقربيه.

قرر محمد بن سلمان، بعد تسلمه مهامه مباشرة شن هجوم عسكري ضد المتمردين الحوثيين في اليمن، المدعومين من العدو الإيراني، حتى إنه كان مستعداً لإرسال قوات برية إلى اليمن: وهذا الحدث هو الأول من نوعه في السعودية المعروفة بحذرها وبحساباتها الدقيقة. علماً بأن ولي العهد محمد بن نايف، الذي كان يدير الملف اليمني منذ رحيل سلطان عارض القيام بهذه المغامرة الخطيرة عند الجار الجنوبي المضطرب أصلاً.

لقد تم شن الهجوم، الذي قاده تحالف بلدان عربية، بشكل متسرع، فلا حلفاء الرياض الباكستانيين ولا المصريين وافقوا على إرسال جنود.

وبعد انقضاء عام، وأمام خطر الانـزلاق في حـرب باهظـة الـثمن، قـدم، بـلا قصد، مساعدة للقاعدة ولداعش، قبلت أخيراً الريـاض بـإجراء مفاوضـات مع المتمردين. حتى باراك أوباما لم يطلع على السر. وهذا يـدل عـلى أن محمـد بـن سـلمان أراد، بـدون أدنـى شـك، الانتقـام مـن الأميركيـين الـذين رفـضوا ضرب الأسـد عـام ٢٠١٣. لكـن وعـلى الـرغم مـن كـل التحفظـات يـدعم الأمريكيون، شأنهم في ذلك شأن الفرنسيين والبريطانيين، الهجوم السعودي .. إذ تبقى السعودية أكبر شارٍ للسلاح في العالم.

يجب عدم الذهاب بعيداً في دغدغة محمد بن سلمان في حربه بـاليمن[١]. أبـدى وزيـر الـدفاع الفرنـسي جـان إيـف لودريـان هـذه الملاحظـة خـلال المحادثـات التـي أجراهـا معـه حينـما تجرأ عـلى إعـلان أن «الوضـع في الـيمن صعب».

« زار حينها محمد بن سلمان وأجاب حرفياً: « لـن تـستمر الأمـور عـلى هذا الشكل، سأدفع للسود كي يأتوا، وسنرى ». وبالفعل فقد قاموا بتجنيـد سـنغاليين، وموريتـانيين وسـودانيين بالإضـافة إلى تـشاديين[٢] .. باختـصار شـديد، يقـوم الأمـير الـشاب أحيانـاً بـردات فعـل غـير مـضبوطة ولا يمكـن السيطرة عليها.

أعلن محمد بن سلمان، في شهر كانون الثـاني عـام ٢٠١٦، عـن انتـشار تحالف إسلامي كبير ضد داعش يجمـع أربعـاً وثلاثـين دولـة. هـذا الائـتلاف هو، في الحقيقة، ائتلاف سني موجه ضد إيران. وهـا هـي مـرة أخـرى تجـري

---

(١) «تلقى محمـد بـن سـلمان توبيخـاً مـن والـده بـسبب فـشله في الـيمن، هـذا مـا كـشفه دبلوماسي فرنسي مضيفاً أن محمد بن سلمان انزوى لمدة أسبوع في يخته بداية صـيف عام ٢٠١٦» .

(٢) لقاء مع ضابط رفيع المستوى في الأركان العامة - باريس، ٢٢ نيسان ٢٠١٦.

الأمور بدون تحضير جيد. وها هي دول إسلامية مثل ماليزيا، وأندونيسيا ودول إسلامية أخرى لم تُستشر ولم تطلع على التفاصيل العملاتية لهذا التحالف، ولم يُعرف أي شيء عن مخططاته العسكرية وقد انقضت ستة أشهر على انتشار التحالف. هل المقصود إرسال قوات إلى سورية؟ « هذا غير ممكن بدون التزام من الجانب الأمريكي» أوضح ذلك لاحقاً عادل الجبير، وزير خارجية المملكة العربية السعودية. والحال هذا معروف من قبل الجميع بأن الولايات المتحدة الأميركية لن ترسل إلى سورية آلاف الجنود طبقاً لآمال السعوديين. يمكن القول باختصار إن وعد محمد بن سلمان لا يلزم إلا من يريد تصديقه.. بمعنى آخر لا يلزم أحداً.

وفيما وراء الأزمة السورية، تغيّر كل الوضع الخارجي للمملكة العربية السعودية في غضون أشهر قليلة.

« يطرح محمد بن سلمان الأسئلة الجديدة، يوجز أحد المغتربين المقيم في الرياض. يقول محمد بن سلمان، نمتلك الإمكانيات المادية والتجهيزات العسكرية،فلماذا نحن نائمون؟ فلو لم ننتفِض، لكانت السعودية قد دخلت في رقاد وربما في غرق ».

خلافات محمد بن سلمان ومحمد بن نايف

تغيب ولي العهد، بداية عام ٢٠١٦، عن السعودية لعدة أسابيع. رسمياً، ذهب محمد بن نايف لصيد الحبارى في الجزائر، حيث تعود الذهاب إليها بشكل منتظم. لكن الحقيقة هي غير ذلك، غيابه هو حرد. ما هي الأسباب الكامنة وراء هذا الحرد؟ الجواب هو ربما بسبب خلاف جديد مع ابن عمه محمد بن سلمان.

ألهبت وقائع خلافاتهم العابرة لغطاً في الأوساط الدبلوماسية في الرياض، إلى درجة أن البعض أراد القول إن الأميرين لا ينظران بوجه بعضهما أثناء المصافحة.

أين نحن من الحقيقة؟ يصعب تكوين فكرة صحيحة عما يحاك داخل العائلة الحاكمة، وذلك نظراً للكتمان الشديد الذي يحيط بكل ما يتعلق بشؤونها. لكن لا يوجد دخان بدون نار، فشهية السلطة عند محمد بن سلمان تزعج ابن عمه الأكبر محمد بن نايف.

« الخلافات دائماً موجودة بين الأمراء، لكن، هذه المرة، بلغت درجة عالية جداً من العداوة، هذا ما أكده دبلوماسي فرنسي عائد للتو من السعودية. استأثر معسكر سلمان بالسلطة، عبر إضعاف بقية الأسرة المالكة. إن هذا يشكل بالضرورة خطراً»، أضاف الدبلوماسي.

تحدى محمد بن سلمان، بعد فترة قصيرة من تعيينه، محمد بن نايف من خلال استبعاد مستشاره السياسي الوفي، أحمد الجبري. في قطيعة مع التقاليد

المتبعة في المملكة التي تقضي بأن يكون على رأس أرامكو اختصاصيّ في البترول، وأن لا يكون فرداً من أعضاء الأسرة الحاكمة، وضع محمد بن سلمان يده على الشركة البترولية العملاقة، مستصدراً مرسوماً ملكياً بتاريخ ٢٩ نيسان ٢٠١٥، بتسميته رئيساً جديداً للمجلس الأعلى للشركة. بقي الأخ غير الشقيق لمحمد بن سلمان، عبد العزيز، في منصبه كنائب لوزير النفط، وذلك من أجل تعزيز هيمنة جماعة سلمان على قطاع النفط. « هو واحد من أفضل الأدلاء السعوديين بما يتعلق بالمطاعم الباريسية، لكن معرفته بشؤون النفط قليلة » هكذا وصفه مختص بالشؤون الاقتصادية، ومقيم بالسعودية لأكثر من عشر سنوات.

لم يكن هناك حاجة لوقت طويل حتى تطفو على السطح الخلافات الدائرة داخل الأسرة المالكة، وهذا الأمر نادر جداً. فبعد تسعة شهور من جلوسه على العرش، دعا أحد الأمراء الملك سلمان إلى التخلي عن العرش مبرراً دعوته بإصابة الملك بمرض الزهايمر الذي يعاني منه. وقد وجه، أيضاً، حفيد عبد العزيز، في رسالتين نشرتهما الصحافة، نقداً لاذعاً لمحمد بن سلمان الذي يحكم المملكة. « الملك ليس في وضع مستقر، وفي الواقع فإن ابنه هو الذي يدير شؤون المملكة. سيلتقي مع أربعة أوخمسة من أعمامي على جناح السرعة، وسيعملون على صياغة مخطط، بالتعاون مع عدد من أبناء العمومة، يفتح الباب للتغيير، فهناك العديد من أبناء الجيل الثاني يعتريهم القلق الشديد من الوضع السائد في المملكة ». تضيف الرسالة التي وجهت دعوة إلى الثلاثة عشر ابناً الباقين على قيد الحياة للملك ابن سعود للاجتماع بهدف الإطاحة بسلمان، واختيار حكومة جديدة من داخل العائلة الحاكمة. يطلب صاحب الرسالة من الأميرين بندر و مقرن أن يقوما بالدعوة إلى اجتماع طارئ لإنقاذ البلاد. من الجدير بالذكر أن هكذا مبادرة لم تحصل في السعودية منذ الانقلاب على الملك سعود عام ١٩٦٤، الذي قاده فيصل.

وقد ادعى صاحب الرسالة بأن مبادرته تلقى دعماً كبيراً داخل العائلة. لكن أميراً واحداً التزم في الواقع بهذه المبادرة.

استفاد المحتجون من التقويم مستغلين الإدارة السيئة جداً لمأساة مكة، التي ذهب ضحيتها آلاف من الحجاج أثناء التدافع المرعب[1] الذي حصل. لقد كانت هذه المأساة فرصة سانحة لتصفية حسابات بين الأمراء. في هذا الوقت أيضاً، بدأت تلوح في الأفق ملامح توتر جديد داخل العائلة: تمثل ذلك في الإصلاح الذي يتم التحضير له وهو فرض ضرائب على الأراضي الخالية. ومن المعروف أن جزءاً كبيراً من مداخيل الأمراء يأتي بالتحديد من الأراضي غير المستقلة التي تعود لهم ملكيتها.

«أحدث هذا الإصلاح أثراً مذهلاً بين أفراد العائلة المالكة، ذكر ذلك دبلوماسي أوربي في الرياض، موضحاً بأن الأمراء يكتفون بانتظار ارتفاع أسعار هذه الأراضي، وفجأة يُطلب منهم أن يقوموا باستثمار هذه الممتلكات أو أن يدفعوا ضرائب عليها. وهذه الضرائب هي نوع من الضرائب التي تفرض على الثروات وعلى الأمراء تسديدها». وهكذا يمكننا أن نفهم أن هذا الأمير الشاب صنع له، خلال فترة وجيزة جداً، كثيراً من الأعداء، خاصة إذا ما أضفنا إلى ذلك رغبة محمد بن سلمان في قصقصة أجنحة بعض المجموعات الصناعية المعروفة بقربها من الملك عبد الله.

وبحسب بعض المصادر، قد يكون محمد بن سلمان اكتشف أن من دبر الحملة الدعائية حول مرض والده بالزهايمر هو رئيس الديوان الملكي السابق خالد تويجري والأمير متعب. فقد تم وضع اليد على تسجيلات لمحادثات، تبرهن على شراء بعض الصحفيين لتلويث سمعة العاهل السعودي.

---

(١) أدى التدافع الذي حصل إلى وفاة ألفين وثلاثمئة شخص على الأقل، منهم أربعمئة وخمسون إيرانياً، وذلك في الحادي عشر من شهر أيلول ٢٠١٥.

وفيما وراء ذلك، هناك سؤال يطرح نفسه: ما هي قدرة الإيذاء التي يمتلكها هؤلاء الخاسرون جميعاً؟ وهل لديهم الإمكانيات لأخذ الثأر من أمير شاب مفعم بالطموح؟

هل يستطيع المدير السابق للاستخبارات السعودية حتى عام ٢٠١٤، بندر القيام بذلك؟ الجواب هو أن بندراً لم يعد في السعودية، هو مقيم في المغرب. ويتلقى معالجة لمرض في الكبد.

هل يقوم متعب، القائد السابق للحرس الوطني، بذلك؟

« متعب هو رجل ذكي. فهم أن عليه أن يصمت ويحيد كي يحمي نفسه، هذا ما لاحظه عسكري أوربي في الرياض. تحتاج السعودية إلى الحرس الوطني. لقد رأينا سابقاً كيف أن الحرس الوطني هو من قام بالعمل عندما حصلت مشاكل في اليمن. وتربط الأمير متعب علاقات جيدة مع ولي العهد محمد بن نايف ».

هل يكون مقرن، ولي العهد السابق الذي تم استبعاده عند وصول سلمان؟

« كان الملك السابق عبد الله يرغب، حقيقة، أن يجعل من مقرن خلفاً له، يضيف العسكري. غير أن مقرناً لم يكن، هو نفسه، يرغب في الحكم، وكان يدرك جيداً أنه سيرفَض من قبل العائلة المالكة لأنه من أم كانت عبدة». وهذا ما يمنع وصوله إلى العرش، وذلك طبقاً لقواعد الخلافة.

أما فيما يتعلق بالأمير أحمد، فقد تم الاستغناء عنه، كما رأينا سابقاً، وكوفئ بسخاء. أخيراً الأمير طلال، المنفي إلى القاهرة، وولده الوليد بن طلال أدركا الحدود التي يجب عدم تجاوزها. عرض الوليد بن طلال تقديم السيارة الفخمة (بينتلي) لكل طيار حربي سعودي التزم الحرب ضد المتمردين الحوثيين.

«اتصل به محمد بن نايف ليبلغه أن العرض غير مقبول، وأن الطيارين هم جنود في جيش المملكة، وليسوا مرتزقة». هذا ما كشفه موظف سعودي عالي المستوى.

قلة من الخبراء ترى في ذلك انقلاباً، وأقل منهم يرى ثورة قصر. ولكي لا يتحول هؤلاء الأمراء إلى أعداء، كان يتم، بين الفينة والأخرى، إعادة الأمراء الخائبين إلى الحضن العائلي.

من المؤكد أن محمد بن سلمان يرنو إلى تعزيز دوره كولي لولي العهد، لأنه حتى اليوم يستمد شرعيته الوحيدة من والده. وليس لديه إلا قليلٌ من الوقت ليضع لنفسه شرعية خاصة به، أي إنه طالما والده، البالغ من العمر ثمانين عاماً، على كرسي العرش الملكي: لمدة سنتين، أو خمس سنوات، أو عشر سنوات كحد أعلى.

« يدرك محمد بن سلمان أن لا مصلحة له في الذهاب بعيداً في مكاسرة محمد بن نايف. وإذا ما حصل وسألنا أفراد العائلة المالكة الأعضاء في مجلس الولاء، فلن نجد شخصاً واحداً يصوّت لمصلحة محمد بن سلمان ». هذا ما أكده سفير غربي في الرياض في غياب التفاهم بينهما، سيتقاسم المحمدان المهام تحت نظر الملك سلمان. أضاف السفير الغربي، بأن الملك سلمان يعرف أن عدداً من الأمراء احتجوا ضد ولده. أجل هناك الكثير من الغيرة من محمد بن سلمان، الذي عزل والده عن بقية أفراد العائلة الحاكمة. يجب أن لا يغيب عن بالنا، بأننا في بلد ملكي يحب شخصية الزعيم الرئيس القوي. يدرك الشعب، بالنسبة للوقت الحاضر، بأن البلد ممسوكٌ على الصعيد الأمني، وأن العائلة تقف مجتمعة إلى جانب محمد بن نايف. والسؤال الآن هل سينجح محمد بن سلمان أم لا في فرض نفسه وإثبات وجوده؟

في حال بلغ ذلك، فإنه يزيد من حظوظه في أن يصبح، ذات يومٍ، ملكاً، وإلا سيزاح. ومن الآن وحتى ذلك الوقت، ينتظره تحد آخر.

ثورة ما بعد البترول

تعتبر المملكة العربية السعودية بلد «الذهب الأسود» بامتياز، وهي البلد المصدر الأول في العالم للبترول. وقد بُني تطور السعودية الاقتصادي والاجتماعي على أساس الثروة النفطية. إنها صناعة واحدة تولّد أكثر من تسعين بالمئة من موارد الدولة، وبفضل هذه الهبة السماوية، فإن الأغلبية الساحقة من السعوديين يعملون كموظفين. غير أن الزمن قد تغير.

حذرت الإدارة العامة للخزينة، في بيان بتاريخ كانون الثاني عام ٢٠١٦، من «أن النظام التقليدي لدولة الرفاه الاجتماعي في بلدان الخليج لم يعد قادراً على تأمين التنمية في المملكة العربية السعودية».

انتقلت المؤشرات، في أكبر اقتصاد شرق أوسطي[1]، إلى اللون الأحمر. إذ إنّ هذه المرة هي الأولى في تاريخها التي تطلب فيها السعودية قرضاً اضطرارياً من الأسواق العالمية، وذلك من أجل تمويل عجز الميزانية لعام ٢٠١٦ أي ما يعادل ١٥% من الناتج المحلي الإجمالي، وهذا رقم قياسي –لكن دون أن يؤثر في سيولة المصارف السعودية، الملتمسة أصلاً لمنح قروض داخلية.

---

(١) تصنف المملكة العربية السعودية الاقتصاد التاسع عشر في العالم بناتج محلي إجمالي يقدر بستمئة واثنين وخمسين مليار دولار، أي ٤٥% من ناتج دول مجلس التعاون الخليجي. احتلت السعودية، عام ٢٠١٤، الصف الأول بين مصدري البترول في العالم، وهي تمتلك ١٨% من الاحتياطي العالمي من الذهب الأسود (الصف الثاني في العالم).

هبطت، عام ٢٠١٥، الواردات النفطية بنسبة ٢٣%، والواردات العامة بنسبة ٤١.٨%، بينما استمرت الحكومة السعودية في المحافظة على مستوى مرتفع من الإنفاق.

لقد قام الملك سلمان، حينما تولى كرسي العرش، بفك ربطة كيس المال، عندما قدم منحة رواتب شهرين لموظفي الدولة (التي تشكل نسبتهم ما بين ٨٠% و ٩٠% من السكان العاملين) وإلى العسكريين أيضاً. لقد بلغت كلفة هذه الهدايا الكريمة ثمانية وثمانين مليار ريال سعودي – أي: ما يعادل اثنين وعشرين مليار يورو –.

شنّ ابنه الشاب، بعد شهرين من تبوئه العرش، حرباً باهظة الثمن في اليمن، تقدر كلفتها الشهرية ما بين مليار وثلاثة مليارات دولار.

بالرغم من القلة التي تمر بها السعودية، لا بد من الإشارة إلى توضيح مهم، هو أن هذه القلة لم تطل وزارة الدفاع حيث حافظت على وتيرة المصاريف العسكرية التي تبلغ ٢٥% من الميزانية العامة لبلد يسكنه هاجس التهديد من كل حدب وصوب. أصبحت الزيادة النهائية باهظة التكاليف، وذلك لهبوط سعر البرميل وتراجع سعر الدولار الذي يرتبط تبديله بتبديل الريال.

« يمثل التوزع الجديد لسوق النفط فرصة سانحة، بشكل لا لبس فيه، وقد قررت السلطات السعودية عدم تفويتها وذلك بهدف إجراء الإصلاحات البنيوية الضرورية، التي تأخرت الإجراءات بشأنها كثيراً» تابع بيان الخزينة.

يجب على الدولة شد الأحزمة، هذا ما فعله محمد بن سلمان، خاصة فيما يتعلق بالإنفاق الاجتماعي. حيث أعلن الأمير الشاب، غداة اعتماد الميزانية، في التاسع والعشرين من كانون الأول عام ٢٠١٥، خفض المساعدات الحكومية في مجالات المياه، والكهرباء ومنتجات النفط، وذلك

لمدة خمس سنوات. إن هذه الإجراءات على درجة كبيرة من الحساسية، وذلك لأن السلطة في السعودية كانت دائماً حريصة على أن تكون أسعار هذه المواد في أدنى مستوى لها وذلك حفاظاً على السلام الاجتماعي.

« سيتلقى المواطنون، منذ الآن فصاعداً، فواتير كهرباء ومياه، وسيكون ذلك مؤلماً، هذا ما بينه أحد المغتربين، مضيفاً أن هذا يعني تراجعاً، بطريقة أو بأخرى، عن الميثاق الاجتماعي. شكل الميثاق الاجتماعي الضمانة لاستقرار البلد، و لاسيما فيما يتعلق بتوزيع الهبة السماوية الكبيرة نسبياً، حتى وإن ظلّ هناك عدم مساواة ».

ارتفع، عملياً، سعر ليتر البنزين بدون رصاص بنسبة ٣٥%(١). أما الإصلاحات التي طالت المياه فكانت حصتها في الزيادة ريالاً واحداً لكل مستهلك وهذه الزيادة تطال ٥٢% من المستهلكين، وقد أقرت الحكومة نظام الشرائح وأسعاراً تتم مراجعتها باستمرار. إن هذا الحذر يهدف إلى تقليل خطر انهيار الميثاق الاجتماعي. لقد وفرت هذه الاقتطاعات حوالي سبعة عشر مليار دولار لخزينة الدولة السعودية.إن من أكبر الدلائل على أن الأزمة خطيرة، هو أن شد الأحزمة ذهب أبعد مما كان متوقعاً في البداية.

« لقد ذكر حاكم المصرف المركزي، في مقابلة حديثة معه، عدداً من الإجراءات، التي هي بالتأكيد مهمة من حيث رمزيتها، إلا أن تأثيرها على الميزانية بقي ضعيفاً، على العكس من ذلك تماماً، تضمنت ميزانية عام ٢٠١٦، إجراءات بالغة الدلالة تؤثر بشكل مباشر في الطبقة الوسطى، مثل زيادة سعر البنزين غداة إعلان الميزانية».

تم إنجاز هذه الإجراءات على حساب تجميد وترحيل نفقات الاستثمارات خلال الأربعة أشهر الأخيرة في عام ٢٠١٥، وهذا ما ألحق

(١) حذت المملكة العربية السعودية حذو الإمارات العربية المتحدة، التي كانت عام ٢٠١٥ السباقة بين المملكات النفطية في تحرير أسعار البنزين.

ضرراً كبيراً في قطاع البناء، مثيراً امتعاض الموظفين والمقاولين بشكل كبير، خاصة أولئك الذين لم يقبضوا رواتبهم منذ ستة أشهر.

أعلن محمد بن سلمان، في العشرين من نيسان عام ٢٠١٦، رؤيته الاقتصاد السعودية حتى عام ٢٠٣٠،جاء ذلك بعد ما كشف عن الخطوط العريضة لسياسته لوسائل إعلام أميركية وبريطانية. يهدف محمد بن سلمان في سياسته إلى ربط تنويع النشاطات، ولاسيما باتجاه خدمات تقدم قيمة مضافة وباتجاه السياحة، عبر تطوير القطاع الخاص، حيث يفترض أن يبلغ ٦٥% بدلاً من ٤٠% حالياً من الإنتاج المحلي الإجمالي، خاصة فيما يتعلق بالشركات الصغرى المتوسطة. سيتم تأمين تمويل هذا الانتقال بشكل رئيسي من خلال إحداث الصندوق السيادي، وهو الأول من نوعه في العالم، مجهزاً بقوة مالية ضاربة بمقدار ألفي مليار دولار. ستتكون مصادر هذا الصندوق من مدخرات الأموال المالية (خمسمئة وأربعة وتسعون مليار دولار) ومن فتح رأسمال شركة أرامكو (تحويل ٥% من ملكيتها في مرحلة أولى، وتقدر بمبلغ يتراوح بين مئة ومئة وخمسين مليار دولار) وذلك في إطار الطلب من المستثمرين الدوليين.

إنها ثورة مصغرة ستستلزم بشكل خاص قدراً كبيراً من الشفافية في إدارة العملاق النفطي الذي بلغته أرامكو.

لم يعد، بحسب رأي المختصين، أمام السعودية خيارات، فقد أصبحت التحديات التي تواجهها أكثر حدة. أهم هذه التحديات هي ازدياد عدد الشباب، إذ يصل سنوياً إلى السوق ثلاثمئة ألف شاب سعودي. أكثر من ٣٠% من الشباب السعودي عاطل عن العمل. تشكل هذه الأرقام قنبلة ديمغرافية حقيقية.

ينوي محمد بن سلمان أيضاً جعل الإدارة أكثر إنتاجية، وإدخال ضرائب مثل TVA، وإعادة النظر في المساعدات المقدمة لقطاع الطاقة، وكذلك خصخصة و«سعودة» - جعلها سعودية بحت - الوظائف.

« إن كل هذا ليس بالأمر السهل، هذا ما سلم به خبير اقتصادي في الرياض. يخاطب محمد بن سلمان جيل الشباب بأن عليهم أن يعملوا، ويقول للآخرين إنّ عليهم، منذ الآن فصاعداً، أن يدفعوا الضرائب ». أما فيما يتعلق بقطاع الأعمال، فقد بقي محمد بن سلمان في مجال التوقعات.

إنها ثورة مصغرة في العقليات وفي بلد يرنو فيه الشباب إلى أن يكونوا ذات يوم موظفين كما كان آباؤهم.

« السعوديون هم تجار ورحالة لم يتعودوا على العمل منذ أن هبطت عليهم نقمة الهبة النفطية عام ١٩٥٠ حيث تم تأسيس المملكة العربية السعودية الحديثة»، أضاف الخبير الاقتصادي. « يعترف موظف سعودي سابق بأنه كان لديه ثلاث خادمات فلبينيات، لماذا لم تقم بهذا العمل سعوديات؟ ».

هكذا تساءل، من على شرفة دارته في الرياض، هذا الدبلوماسي القديم الذي، شأنه في ذلك شأن سائر الأعيان السعوديين، يملك شقة في الدائرة السادسة عشرة في باريس.

عمد محمد بن سلمان في انطلاقته التحديثية إلى تجنيد العشرات من الخبراء الذين يعملون في كبريات المكاتب الاستشارية، و لاسيما الأميركية، مثل ماكنسي من مجموعة وسطن الاستشارية، وحتى الفرنسي جاك أتالي «يهودي جزائري في بلاد آل سعود» . قال، هكذا، ساخراً مغترب قديم.

« إن أولوية محمد بن سلمان، بحسب رجل أعمال فرنسي يتردد كثيراً على الرياض، تكمن في إغراء واشنطن بأن تأخذ مصداقيته على محمل الجد لديها. أما ما يتعلق بنا نحن الفرنسيين فإن أهميتنا ثانوية بالنسبة له. يطمح محمد بن سلمان بأن يقنع الأميركيين بأنه يمكن أن يكون خلفاً ذا مصداقية لوالده. ولا أدل على ذلك من تعدد اللقاءات مع الصحافة الأميركية ».

يتوجه محمد بن سلمان، مسلحاً بصندوقه السيادي الضخم، إلى المؤسسة المالية التي تسيطر على أمريكا، قائلاً لها إن السعودية هي الألدورادو «الحديقة الغناء الثرية» وليس إيران. يأمل محمد بن سلمان من وراء ذلك أن تشكل هذه المؤسسة جسراً يربطه بالساسة الأمريكيين، ولسان حاله يقول لهم «المملكة العربية السعودية ليست كما تظنون».

أقلعت، من جهة أخرى في مجال الإدارة، ماكينة ضخمة للتغيير، فقد وجب على سبع وعشرين وزارة ووكالة حكومية تقديم مقترحات، حاذياً بذلك حذو صديقه الشيخ محمد في أبو ظبي، حتى إنه ينوي تأسيس حكومة إلكترونية، وفرض مؤشرات على أداء الموظفين.

أما أولئك الذين كانوا يأملون بتحقيق إنجازات اجتماعية فقد خيب محمد بن سلمان آمالهم. اللهم ما عدا الوعد الذي قطعه بشأن مكانة المرأة العاملة، التي، بحسب الوعد، سترتفع نسبتها من ٢٠% إلى ٣٥%، لكن الأمير الشاب لم يعلن أي شيء بهذا الخصوص حتى الآن. لن يكون هناك افتتاح لدور سينما ولا لمسارح ولا لمتاحف، وذلك مع أن محمد بن سلمان اعترف بالخلل الذي يعتري هذا الواقع إذ أعلن في لقاء مع التلفزيون المحلي: «مع أننا نُعتبر جوهرة الإسلام، فإننا لا نملك ولا حتى متحفاً إسلامياً».

ستشكل هكذا إحداثات ثورة في بلد تُحرِّم فيه النظرية الوهابية كل أشكال التجسيد. وإذا لم يتعرض محمد بن سلمان إلى هذه الأمور، فلأنه يجب عليه التفاوض، بشأن هذا الانعطاف المجتمعي، مع المؤسسة الدينية التي تلقت صفعة بإعادة تصويب المطوعين وإلزامهم بالاستقامة.

إن مقاومة هذه التغييرات لا بد أن تظهر مع أن العلماء الإسلاميين أعطوا مباركتهم لها. ففي شهر نيسان عام ٢٠١٦ تم إقصاء الوزير المسؤول عن قطاع الكهرباء، لأن خفض المساعدات في هذا المجال واجه الكثير من الصعوبات التطبيقية. وذلك إذا ما أضفنا إلى ذلك أن هناك شكوكاً جدية

حول الجدوى من هذه الإصلاحات التي أطلقها محمد بن سلمان، حتى داخل الأسرة المالكة آل سعود التي تعيش فترة ضبابية تخيّم على الأسواق النفطية.

« لن يهدم الملك سلمان وابنه محمد كل شيء، فهما يدركان أن الشعب السعودي لا يمكنه القبول، بين ليلة وضحاها، بالقيام بأعمال مصنفة غير لائقة بهم»، هذا ما كشفه السفير الفرنسي في الرياض برتراند بوزاتسنو، الذي أضاف: «أنا متأكد ومقتنع بأن الملك سلمان سيدرك في لحظة ما أن هذه الإجراءات ستعرض العهد الاجتماعي للخطر، وسيرخي شد الأحزمة مرة أخرى». وفي هذا الصدد، فقد تم تجهيز مغلف خاص يحتوي على مئة وثلاث وثمانين مليار ريال من الميزانية، وذلك لاستخدامه في حال تدهور سعر البرميل من النفط. يعني هذا الإجراء، رسمياً، المحافظة على الاستثمارات، والتأهب لدرء أي خطر اجتماعي في حال حصوله.

يلخص بيان الخزينة ذلك بالآتي: « يحرص محمد بن سلمان، من أجل تعميق شرعيته داخل الأسرة الحاكمة، على إنجاح سياسة التحديث في الاقتصاد السعودي. يرتبط نجاح هذا الانتقال بقدرة محمد بن سلمان على إدارة هذا المنعطف الاستراتيجي دون إحداث أي انفجار اجتماعي»، إلى هذا خلص بيان الخزينة مشيراً إلى أن محمد بن سلمان يحضّر نفسه لإمبراطورية مصغرة آملاً في ذلك الوصول يوماً ما إلى عرش المملكة العربية السعودية.

واللّه يَستُر المرأة

يُنظر إلى الحياة في الخليج بالأسود والأبيض. فعندما تعبر شوارع الرياض، أو الدوحة، أو أبو ظبي لن تقع عيناك إلا على منظر بشري بلونين. يرتدي الرجال الثوب التقليدي وهو عبارة عن جلباب أبيض نظيف، كما ترتدي النساء اللون الأسود من أخمص القدم حتى قبة الرأس، وتتغطى بالعباءة، وهو عبارة عن معطف طويل يغطي كامل جسدها، أما الوجه فهو في معظم الأحيان مخبأ تحت النقاب أي الحجاب بالكامل.

تجسد قضية المرأة، بنظر الغرب، جميع الكلشيهات التي تتعلق بالمجتمعات التي تبدو لنا رجعية ومتجمدة. في الواقع، إن التقدم بطيء ورمزي أحياناً لكنه مستمر. يقاس، هنا أكثر من أي بلد في العالم، تطور البلدان المحافظة بتطور وضع المرأة في مواجهة التحديات التي تفرضها العولمة المتسارعة التطورات. يختلف وضع المرأة من مملكة إلى أخرى. لكن يمكن القول إنه في الخليج عموماً، تقضم النساء شيئاً فشيئاً حقوقاً سياسية واجتماعية، بما فيها العربية السعودية، التي، في الواقع، انطلقت فيها بوقت متأخر.

السعوديات قاصرات تحت سيطرة الولي

في الواقع، يعتبر وضع المرأة في المملكة الوهابية من أكثر الأوضاع تخلفاً في العالم. إذ يُنظر إلى المرأة السعودية، مهما يكن عمرها، على أنها قاصرة. وعلى السعوديات أن يعشن دائماً تحت سلطة المُحرم، وهو وصي وحارس ذكر، يمكن أن يكون الزوج، أو العم، أو الأخ أو الابن، لكن لن يكون أبداً ابن عم أو ابن خال لأن هناك إمكانية للزواج من المرأة في هذه الحال. المسلمات والمسلمون ، من وجهة النظر الدينية، متساوون أمام الله.

لقد خصَّ النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) النساء بوضع شرعي وقانوني لم يكن موجوداً من قبل، لكن القراءة المختزلة للقرآن الكريم خلقت عدم مساواة بين الجنسين مبررة ذلك بالتقليد الإسلامي الذي يقول بعدم كفاءة المرأة.

النساء عديمات القدرات قياساً بالرجال، الذين ينظر إليهم بأنهم أكثر مسؤولية وأكثر قدرة من النساء. تذهب بعض المقاطع من القرآن الكريم باتجاه التفوق الذكوري.

«لهنَّ مثل الّذي عليهن بالمعروف وللرّجال عليهن درجة والله عزيز حكيم»، هذا ما ورد في الآية الثامنة والعشرين بعد المئتين من سورة «البقرة»، بينما تؤكد الآية الرابعة من سورة «النساء» أن: **«الرجال قوامون على النساء، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهنَّ واهجروهنَّ في المضاجع واضربوهنَّ»**.

تأقلمت نفسياً، اليوم، معظم النساء السعوديات مع هذا الوضع «الدوني» الذي يكون فيه المحرم مسؤولاً وقع على عاتقه حمايتها ورعايتها في جميع مناحي حياتها الشخصية: فيجب على المرأة الحصول على إذن الوصي إذا ما أرادت متابعة دراستها الجامعية، أو لزواجها، أو لفتح حساب لها في المصرف، وحتى في حال خضوعها لعملية جراحية. وإلى وقت قريب جداً، وفي حال سفر المرأة السعودية إلى الخارج، وعند مرورها على جمارك المطار، يتم إرسال رسالة قصيرة، بشكل أوتوماتيكي، على الهاتف المحمول للوصي لإعلامه بأنها ستغادر المملكة. لكن، ومنذ صيف عام ٢٠١٥، أصبح بإمكان المرأة السفر دون إذن محرمها.

إن الأمر المستهجن والذي يبدو غريباً لا يصدق، هو أنه حتى العام ٢٠٠٧، لم يكن هناك وجود قانوني أو إداري خاص بالنساء السعوديات. كان يتم ذكر أسمائهن على وثائق الوصي عليهن. لكن منذ ذلك التاريخ فرضت السلطات ضرورة حصول المرأة على بطاقة هوية شخصية، يُلصق عليها صورة تظهر الوجه(١). يتوجب على النساء منذ الآن فصاعداً نزع الحجاب أثناء التفتيش من قبل الشرطة، وذلك لدواع أمنية.

تقضي التقاليد، هنا في السعودية، بأنه لا يجوز لامرأة سعودية أن تتجول بمفردها في الشارع، يجب أن تكون برفقة محرم.

لقد أفضت هذه السيطرة للمحرم في الماضي غير البعيد إلى كوارث. فقد تسبب حريق، عام ٢٠٠٢، في مدرسة بمكة المكرمة بوفاة خمس عشرة فتاة حرقاً وهن أحياء، وذلك بسبب إغلاق الطريق أمام رجال الإطفائية من قبل الشرطة الدينية التي منعت الطالبات من الخروج دون حجاب من قلب

---

(١) لا وجود إداري لزوجات المغتربين من وجهة نظر إدارية، يتم تسجيلهن على فيزا الإقامة لأزواجهن، حيث يعتبر الزوج الوصي الشرعي على زوجته طيلة الإقامة في المملكة العربية السعودية

النـار بحجـة عـدم وجـود الأوصـياء الـذكور. لقـد أثـارت هـذه المأسـاة اضـطرابات واسـعة في المملكـة. تقـع عـلى عـاتق المحـرم مراقبـة الـسلوك الأخلاقي لزوجته أو لسائر بنـات العائلـة. وإذا مـا حـصل أن واحـدة مـنهن خرجـت عـن العـادات والقواعـد المتبعـة، خاصـة في كـل مـا يتعلـق بالعفـة والطهـارة، أو إذا تـم الـشك بقيامهـا بـأي تـصرف غـير محتـشم «فـاحش»، فسيكون هذا المحرم بحكم الفاشل بتأدية دوره في الحماية، وستلحق الإهانـة بجماعته وعشيرته. لقد حصل، في حـالات قـصوى، أن تـم قتـل فتيـات بـين الفينة والأخرى تحت ذريعة غسل شرف العائلة. تظهر العدالة السعودية، في مثل هذه الجرائم، تسامحاً تجاه القاتل.

جـرت العـادة في الـسعودية، ألّا يتعـرّف أزواج المـستقبل عمليـاً عـلى بعضهم البعض قبل الزواج. وبحسب التقاليد، يتم تنظيم لقاء سريع يستمر لـبعض الوقـت مـن قبـل أفـراد الأسرتـين لإتمـام عقـد الخطوبـة. « التقيـت بزوجتي المستقبلية لمدة عشر دقائق، هذا ما رواه لنا محمد وهو مهندس شاب التقينـا بـه في الريـاض. لقـد قـدمتها لي والـدتي، لم أسـتطع رؤيـة وجههـا إلا للحظات قليلة ».

لقد حصل تغير في سلوك الشباب، ولكن مع ذلـك لا زالـت الزيجـات المرتبـة حـسب التقاليـد عديـدة جـداً. لا زال الـزواج يحـصل كثـيراً بـين أبنـاء الأعـمام والأخـوال أيـضاً، للمحافظـة عـلى رابطـة الـدم التـي توحّـد الجماعـة والعشيرة.

أصبح تعدد الزوجات أمراً نادراً، مع أن القرآن أتاحه للرجل المسلم. وأصبح الآن بالإمكان أن يتم تدوين منع تعـدد الزوجـات في عقـد الـزواج. وفي الواقع، يوجد حالات من الزواج باثنتين[1].

---

(١) سمح الإسلام للرجل المسلم بالزواج حتى أربع نساء، شرط أن يعدل بينهن.

حصلت النساء السعوديات، بفضل الإصلاحات الجديدة، على حق الاحتفاظ بنسخة من عقد الزواج، حيث كان هذا الحق حصراً للرجال. تفيد هذه الوثيقة في حال حصول خلاف أو طلاق وإن كانت بمثابة صيغة شكلية شفهية.

ليس على الرجل أن يبرر فعله إذا ما أراد أن يطلّق زوجته، فيكفي أن يردد لمرات ثلاث وبصوت عال الصيغة التقليدية: «طالق، طالق، طالق». أما إذا ما أرادت المرأة الانفصال عن زوجها، فلا يوجد أمامها سوى اللجوء إلى أسرتها. وإذا لم يوافق الزوج، فيحق له طلب تعويضات مالية تتضمن نفقات الزواج والمهر. وفي هذه الحال ينتقل الملف إلى القضاء الذي يحكم. يجدر الإشارة إلى أنه في المملكة العربية السعودية تعود حضانة الأطفال إلى الأب منذ بلوغ الطفل سبع سنوات.

ولهذه الأسباب مجتمعة «تقوم بعض السعوديات بتأخير إنجاب الأطفال ريثما تتأكد من استمرار العلاقة الزوجية»، أكدت ذلك الأستاذة الجامعية أميليه لورنارد، وهي مختصة بشؤون المرأة السعودية في المملكة العربية السعودية[1].

يمكن لقصص الحب التي تنتهي بشكل سيئ في المملكة أن تسبب خلخلة دبلوماسية حقيقية في العلاقات بين الدول، كما يمكن أن تقود إلى مآس شخصية.

وبهذا الصدد، فقد التقينا، أثناء قيامنا بالبحث، بقدر تراجيدي – كوميدي لفرنسية يهودية تزوجت أميراً سعودياً واسمها كانديس أميم.

بدأت قصة الحب العذري غير الوارد في ملهى ليلي بمدينة كان الفرنسية. سارت الأمور، في البداية، على ما يرام. تزوجت كانديس بأميرها السعودي، وأنجبا طفلة، واستقرا في بيروت. إلا أنه ذات يوم، قام والد

(١) النساء والفضاءات العامة في المملكة العربية السعودية، أميليه لورنارد، دار طباعة دالوز، ٢٠١١.

الأمير بالطلب إليه العودة إلى البلاد. وفي السعودية طلب الأب لا يُرد. ستبدأ، منذ لحظة العودة، مشاكل كانديس الجميلة، إذا لم يحصل أي انسجام بينها وبين حماتها (والدة زوجها) السورية التي تأخذ عليها أنها يهودية. وهكذا أعلنت حرب الخنادق بين الكنة والحماية التي استشاطت غضباً عندما قامت «الأميرة اليهودية» برفع الأعلام الإسرائيلية في المنزل. تطورت الشجارات لدرجة أن السفارة الفرنسية اضطرت إلى التدخل. تم إيواء كانديس في سكن السفير، كما تم تنظيم اجتماعات في وزارة الخارجية الفرنسية للبحث عن مخرج بالتراضي.

انتهى الأمر بأن وقعت كانديس الجميلة، التي تملك قلباً يشبه قلب الأرضي شوكي، في الفخ الذي نصبته لها السلطات السعودية. ومن سوء طالع برتراند بوزانسنو، أنه لعب كسفير دور المستشار العائلي. إذ قامت الاستخبارات السعودية بإرسال عدد من الشباب الوسيمين، خلال اللقاءات المسائية التي حصلت في السفارة، لمغازلة كانديس التي تلطخت سمعتها لتتهم لاحقاً بسلوك مناف للأخلاق، وهذا ما خلق أزمة دبلوماسية.

قررت أخيراً الشابة الفرنسية، بعد أن انهارت أعصابها، مغادرة السعودية، تاركة خلفها ابنتها التي تتلقى تعليمها في المدرسة الفرنسية بالرياض. لأن القانون السعودي هو الأكثر إجحافاً عندما يتعلق الأمر بزوجة أجنبية.

انتهت القصة بشكل مأساوي، بعد عودة كانديس إلى المملكة حيث انتحرت بإلقاء نفسها من النافذة. حصل، بعد ذلك، اتفاق بين الجانب السعودي وجدة كانديس الفرنسية يقضي بالسماح لها بالمجيء إلى السعودية ومشاهدة حفيدتها بين فترة وأخرى.

تحتل الأميرات، في المجتمع السعودي، مكانة متميزة لذلك نراهن محسودات نظراً لوضعهن المتمتع بالامتيازات، ولكونهن يعشن في أقفاص ذهبية.

التقينا، خلال قيامنا بهذا البحث، بفتاة لبنانية سنعطيها اسم رولا. عملت رولا، لسنوات عدة، بمرتب قدره ألفي دولار شهرياً لخدمة ثلاثة منازل تابعة لآل سعود. بدأت كمربية أطفال ثم انتقلت لمرافقة أميرة، وهذه كانت آخر وظيفة لها غادرتها عام ٢٠١٥.

أتاحت لنا شهادة رولا النادرة اكتشاف مكنونات الحياة اليومية الشاذة لأميرة شابة عمرها أربعة عشر ربيعاً اسمها مرام. تنحدر الأميرة مرام من أسرة الأمير سلطان، الذي توفي عام ٢٠١١، وتقيم في مدينة الرياض، وتسكن في مجمع يضم فيلا خاصة بالأب، وأخرى خاصة بالأم، وثالثة مخصصة للأطفال الثلاثة. يضاف إلى هذه الفيلات الثلاث دار مخصصة لاستقبال الزائرين الذين ليس بإمكانهم دخول فيلات العائلة. يوجد أيضاً بناء ملحق خاص بموظفي العائلة (خادمات، طباخين، حدائقيين، سائقين، ....إلخ)

تبلغ مساحة البناء لهذا المجمع خمسة آلاف متر مربع، دون أن ننسى قاعة الرياضة، والمسبح، وصالة السينما التي تحتوي على خمسة عشر مقعداً مخصصاً لمشاهدة ما تحب العائلة من الأفلام الأميركية.

« يوجد مربية خاصة بمرام تسهر على رعايتها حتى في الليل، تروي رولا. أما مهمتي فكانت محصورة بأن أوقظها وأرافقها في الذهاب إلى المدرسة، أو إلى المراكز التجارية، أو لزيارة صديقاتها، أوفي سهراتها الليلية ».

عندما كانت الأميرة الشابة ترغب في الخروج إلى المدينة، تستخدم الأميرة الشابة إحدى سياراتها الثلاث مع سائقيها، وهذه السيارات هي: لكزيس، أودي قدمتها لها جدتها، وسيارة رانج روفر ٤×٤ يبلغ ثمنها مليون ريال (حوالي مئتين وخمسين ألف يورو) أهداها لها أبوها بمناسبة عيد ميلادها.

إن الحياة اليومية لمرام هي عبارة عن حياة بنت يافعة مدللة بين جدران سجن ذهبي. تتذكر رولا بأنه عندما كانت مرام تخرج مساءً لنزهة قصيرة، يوضع في حقيبة اليد التي تحملها أقل شيء ممكن ألف ريال (حوالي مئتين وخمسين يورو)، أما إذا ما كانت مدعوة لعيد ميلاد، فهي تصل حاملة قالب كاتو لا يقل ثمنه عن سبعة آلاف ريال (أكثر من ألف وخمسمئة يورو) ».

يعيش كل فرد من أفراد العائلة بالطريقة التي تحلو له، داخل التجمع السكني.

« لا تتحولق الأسرة مجتمعة حول طاولة العشاء مساءً، تقول رولا مضيفة إنّ الأب يخرج لتناول طعام العشاء مع والدته، وتذهب الأم، من ناحيتها، لزيارة أهلها أو أصدقاء لها، أما مرام فقد كانت تخرج بمفردها، بينما لا يتناول الطعام بشكل مشترك سوى الأخوين الصغيرين. وفي حال اجتمعت العائلة بكاملها، فإن كل فرد يأخذ زاوية مستقلة ويفتح جواله أو لوحه الرقمي. يقوم بالحراسة المقربة للأم حارس فرنسي وهو في الوقت نفسه عشيقها، والأب أيضاً له عشيقاته الخاصة ». أما في المساء، حينما يعود الوالد للبيت، فهو لا يرغب برؤية أحد أمامه، وأوامره للقائمين على خدمته بسيطة وواضحة: «عندما أصل لا أريد أن أرى أي واحد منكم» وتذكر رولا: «لم أكن أدري بوصول الأب، ذات يوم، فصرخ في وجهي عندما لمحني، وخرجت مسرعة من الغرفة». لذلك «عندما تحصل أي سرقة، يسهل تحديد المسؤول عنها»، هذا ما بينته رولا.

تـم تخـصيص مدرسـين لمـرام لمـواد اللغـة الإنكليزيـة، واللغـة العربيـة، والرياضيات لإعطائها دروسـاً خاصـة، وذلـك مـع أن الدراسـة لا تـستهوي الأميرة اليافعة.

لم تكن مرام متدينـة، وهـي في ذلـك شـأنها شـأن والـدها الـذي لم يكـن يـذهب أبـداً إلى الجـامع يـوم الجمعـة، تنقـل لنـا رولا. لم تكـن مـرام تـؤدي الصلاة، لم يكن هذا يعني بالنسبة لها أي شيء. ويمكـن اختصار فلسفة الحياة لدى مرام بالآتي: « أعمل ما يحلو لي، ومن ثم أستغفر الله ».

لا زالت رولا تتذكر رحلة مأثورة قامت بها الأميرة اليافعة، برفقة جدتها وشقيقاتها الأربعة، لقضاء عطلة في الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا. استمرت الرحلة على متن طائرة خاصة أكثر من ثلاثين يوماً. توجهنا إلى لوس أنجلوس وبيفرلي هيلس، بعد توقف في جدة على البحر الأحمر. « أقمنا فيهما لمدة عشرة أيام، تروي رولا. شكّل التسوق أهم فقرة في برنامج الإقامة خاصة في الأسواق الراقية. كانت جدة مرام تقوم بإعطائها، كل ثلاثة أو أربعة أيام مبلغ عشرة آلاف دولار نقداً، تخطفه الأميرة الشابة لتشن غزوة على الفساتين والأحذية والمجوهرات، وقد تباهت بأنها اشترت حذاءً بسبعة آلاف دولار، وهو نفسه الموديل الذي تحتذيه كيم كارداشيان ».

حضرت كوكبة الأميرات احتفالاً، أقيم في قصر سعود الفيصل بمدينة بيفرلي هيلس، بمناسبة العيد الوطني الأميركي في الرابع من تموز. فقد أقام رئيس الدبلوماسية السعودية الأزلي سعود الفيصل، الذي توفاه الله في تموز عام ٢٠١٥، حفلاً فخماً اتسم بالمبالغة.

« ارتدت الأميرات، خصيصاً لهذا الحفل، فساتين مثيرة للغريزة الجنسية، وذلك بحسب ما ذكرته رولا. مشيرة إلى أنه لا يمكن تخيل أنَّ هكذا نساء بهكذا ثياب تكون أميرات سعوديات! كان الحفل مختلطاً نساءً

ورجالاً وذلك كما هو الحال في سائر دول الغرب، يحتسي فيه المدعوّون الكحول حتى إنّ مرام كانت تدخن خفية، وتناولت أيضاً لحم الخنزير، وذلك كما لو أنها أرادت كسر طوق المحرمات ».

كانت الأميرة مرام، البالغة من العمر أربعة عشر عاماً، تمتلك حاسة الذوق التي لا يمتلكها البالغون. فقد أرادت استئجار سيارة بورش، في لوس أنجلوس، للقيام بجولة سياحية مع صديقتها. « قلت لها: عليك استئجار سيارة بأربعة مقاعد لكي أكون معك، وإلا سأقوم بإعلام والدتك. امتعضت من كلامي هذا، و لاسيما إذا حصل أي حادث فأنا التي سأكون مسؤولة وسيقع الوبال على رأسي ».اشتهت مرام، أثناء زيارة لاس فيغاس، الدخول إلى الكازينو لتلعب داخله. إن ما هو حرام في السعودية يصبح حلالاً في الخارج، أي عندما يجتاز الرياء الحدود. ستوصد أمامها أبواب الكازينو باعتبارها لم تبلغ الثامنة عشر عاماً تماماً.

وفي مشهد آخر، قامت مرام بتعنيف جدتها لتقنعها بشراء كلب لها. لم توافق الجدة، وذلك لأن القرآن الكريم ينظر إلى هذا الحيوان على أنه حيوان نجس. إلا أن الأمر انتهى، بعد نحيب مرام، بحصولها على عشرة آلاف دولار لشراء كلب بريطاني من السلالة الشهيرة غولدن روتريفر. «أصبحنا نذهب يومياً لتسوق حاجات الكلب، تقول رولا، لم تبخل مرام بشراء جميع الإكسسوارات الخاصة بالكلاب، حتى إنها اشترت له فرشاة ومعجون أسنانٍ. لقد أنفقت عليه، خلال الرحلة، أكثر من عشرة آلاف دولار. دفعت فقط لحراسته في موناكو، المحطة الأخيرة من الرحلة، خمسمئة يورو لتأمين حراسته».

عندما حطت طائرة الأميرات الخاصة في الرياض، كانت الحقائب محملة بالأمتعة ومن بينها زجاجات الخمر، تنقل دائماً رولا. جُنئ الكلب في حقيبته، ولم يقم البوليس بأي عملية تفتيش، حيث نقلت الأمتعة مباشرة إلى سيارة الليموزين التي كانت بانتظار الأميرات على المدرج.

عندما تتحقق حرية السعوديات عبر المترو

تُعد السعودية العاصمة الوحيدة في العالم التي لا يوجد فيها وسائط نقل عامة. يستخدم السعوديون، في تنقلاتهم، إما سياراتهم الخاصة وإما التاكسي. وهنا تكمن صعوبات التنقل بالنسبة للنساء سعوديات كن أم أجنبيات، حيث إن السعودية هي البلد الأخير في الدنيا الذي لا يسمح فيه للمرأة بقيادة السيارة. علماً أنه في أفغانستان، أو حتى في الأراضي الموجودة تحت سيطرة داعش، يُسمح للمرأة بقيادة السيارة فيها دون الحديث طبعاً عن جيران السعودية الكويتيين، والقطريين، والإماراتيين حيث النساء تقود فيها السيارات منذ زمن.

يعود تحريم قيادة السيارة على المرأة في المملكة العربية السعودية، إلى مرسوم أصدره الملك سعود بن عبد العزيز عام ١٩٥٧. لقد أصدره الملك (الذي حكم ما بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٦٤) بضغط من الأوساط الدينية المتشددة. ما هو بديهي أن القرآن الكريم لم يشر إلى تحريمه لا من قريب ولا من بعيد فهو لم يُشر إلى أنّ النساء لا يحق لها قيادة السيارة.

لقد تم التأكيد على هذا القرار عام ١٩٩٠، من خلال الفتوى التي أصدرها العلماء المسلمون، بعد نقاش دار حول هذا الموضوع في غمرة القتال في حرب الخليج، حيث كان يتوافد على الأرض السعودية مئات الألوف من الجنود الأمريكيين في إطار عملية عاصفة الصحراء التي كان هدفها تحرير الكويت.

انتهزت نساء سعوديات، يقارب عددهن خمسين امرأة، في العاشر من تشرين الأول عام ١٩٩٠، فرصة وجود جنديات أمريكيات يقمن بقيادة السيارات في الرياض، فتحدين السلطات والمطوعين، وقمن بقيادة سياراتهن في شوارع الرياض. طبعاً تم اعتقالهن، وتم اقتيادهن إلى مركز الشرطة، فما كان من أوصيائهن إلا أن حضروا ووقعوا تعهداً بعدم تكرار هذه الأعمال لكي يتم إخلاء سبيلهن، وبعد ذلك تم طرد جميع الناس اللاتي يعملن في وظائف عامة دون اتخاذ أي إجراءات قضائية. ومن جهته، أصدر المفتي الأكبر، وهو أعلى سلطة دينية في المملكة، فتوى ضد «هؤلاء المسلمات السيئات».

ومنذ ذلك التاريخ، لم تتوقف المناضلات السعوديات عن وضع إعلانات، بشكل منتظم، على شبكة الإنترنيت مع فيديوهات تظهر نساءً سعوديات خلف مقود السيارة. قامت هؤلاء المناضلات، إضافة إلى ذلك، بتأسيس حركة «وومين تو درايف» أي من حق المرأة قيادة السيارة، كدليل على إصرارهن في الذهاب إلى أبعد حد ممكن من أجل تحقيق هذا الهدف. إلا أن الأمور، حتى الآن، لم تتحرك، ولا يُنتظر أن ترى في الغد القريب امرأة تقود سيارة بشكل شرعي في المملكة العربية السعودية، طالما أن المفتي الكبير، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الشيخ، يعتبر أن مسألة قيادة المرأة للسيارة هي «مسألة خطيرة تعرّضهم للشيطان».

إنهم العلماء الذين يمتلكون، في النهاية، السلطة لرفع المنع عن قيادة النساء للسيارة. ولا ترغب العائلة المالكة، في هذه الحالة، أن تفتح سجالاً أو مكاسرة مع رجال الدين حول هذا الموضوع، هذا ما أكده ولي ولي العهد محمد بن سلمان في ربيع عام ٢٠١٦ عندما قال: «إن المجتمع السعودي ليس مقتنعاً حتى الآن، لكننا نلح على أحقية المجتمع السعودي في اتخاذ القرار». ويدعم ولي ولي العهد فكرة ألا يجب فرض التغيير بالقوة. هذا شكل من أشكال تلافي المشاكل.

زد على ذلك، أنه عندما يطرح السؤال على السعوديات أنفسهن، فستكتشف أنهن لا يضعن هذا المطلب على رأس الأولويات، على عكس ما يمكن التفكير به في فرنسا.

وتؤكد بعض النساء السعوديات، أنهن يتفوّقن، في هذا المجال، على نساء الغرب: هل هناك شيء أكثر سهولة من أن تقومي بالتسوق ومعك سائق بتصرفك يتدبر تأمين موقف للسيارة دون أي عناء منك، وتتجنبين القيادة في زحمة شوارع الرياض الخانقة والمختلطة. باختصار، وبحسب رؤية تلك النساء، إنه من غير المفيد أن تتركز الجهود على حق المرأة السعودية في قيادة السيارة، الذي يُنظر إليه على أنه شكل من أشكال التماهي مع الغرب.

يمكن لهذا المنع أن يفرز نتائج محزنة لمرتكبي مخالفات السير، كهذا المغترب الذي لن ينسى طوال حياته أن شراء علبة سجائر في السعودية يمكن أن تسبب إزعاجات جدية للمرء. ففي عام ٢٠١١، كان يقود، في الرياض، سيارته برفقة زوجته التي كانت تجلس بجانبه. توقف في الصف الثاني للنزول وشراء علبة سجائر من متجر صغير، وبينما كان في داخل المتجر، انطلقت صفارة سيارة الإسعاف بصوت عال. ما كان على الزوجة، معتقدة أنها تفعل خيراً، إلا أن أخذت المقود وحركت السيارة كي لا تعيق طريق سيارة الإسعاف. فهبطت عليها المصيبة عندما تدخل المطوعون فجأة، فكانت النتيجة أن طردت السطات السعودية هذين الزوجين من المملكة.

تشكل مصاريف السائقين وسيارات الأجرة عبئاً كبيراً على كاهل العائلات المتوسطة الحال، وذلك في ظل غياب البدائل الأرخص. وتأتي المملكة العربية السعودية على رأس الدول التي تستخدم وسائط نقل شركة النقل الأمريكيةأوبير (UBER)، وتتجاوز النساء نسبة ٨٠% من زبائن الشركة. ونظراً للربح الكبير الذي تحققه هذه الشركة، فقد أعلنت السلطات السعودية ضخ مبلغ ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار كاستثمارات في هذه الشركة. إنه استثمار مربح في هذا السوق الذي هو رهينة النساء.

لم يتردد البعض في القول، إن دخول السلطات في رأسمال أوبير يمكن فهمه على أنه طريقة لتأخير منح حق القيادة للمرأة.

لكن من سيسهل عملية التنقل بالنسبة للسعوديات، هو المترو الذي يُنتظر وصوله إلى العاصمة السعودية، خلال السنوات القليلة القادمة. من المنتظر أن تشكل هذه الورشة الفرعونية بكلفة ثلاثة وعشرين مليار دولار، التي انطلقت عام ٢٠١٤، ثورة مصغرة بالنسبة للسعوديات، وذلك عند وضع الخطوط الستة في الخدمة في مطلع العام ٢٠١٨.

سيخصص للنساء في كل عربة مترو حافلة خاصة بهن وبالعائلات. وحينذاك لن تتمكن النساء السعوديات فقط من التنقل بسهولة وكلفة أقل، إنما سيسرّع المترو أيضاً في تأمين فرص عمل لهن، وذلك لأن كسر أبواب سوق العمل يشكل اليوم المطلب الرئيسي للنساء السعوديات، أي أنه قبل مطلب حق قيادة السيارة.

إن نسبة النساء التي تعمل، في المملكة العربية السعودية أقل من ١٥%، ويوجد خمسة ملايين امرأة حبيسة المنزل(١). إنه إرباك اقتصادي واجتماعي حقيقي، خاصة إذا ما علمنا أن هؤلاء النساء مؤهلات ولديهن الكفاءات العلمية مع أن التعليم ليس إجبارياً بالنسبة للفتيات السعوديات، لكن مع الزمن أصبح معظمهن جامعيات.

لقد فتح الملك عبد الله ما بين عامي (٢٠٠٥-٢٠١٥) أبواب الجامعات للطالبات السعوديات، للدخول إلى قطاعات جديدة مثل الحقوق والهندسة المعمارية والآثار، حيث كن في السابق محصورات بمهن الصحة والتربية: «أصبحت الطالبات، اليوم، تحمل شهادات جامعية في علم الآثار، هذا ما شرحته صبا فارس، عالمة آثار في بيت الشرق والبحر الأبيض

---

(١) العربية السعودية، المحتوم، جاك – جوسلين بول، دار الطباعة ريفنوف - ٢٠١٦.

المتوسط في مدينة ليون الفرنسية، وهي الامرأة الوحيدة التي سُمح لها رسمياً بالتنقيب وباسمها الشخصي في المملكة[1]. يعتبر هذا الأمر بحد ذاته تقدماً، حتى لو لم يكن هناك أية فتاة سعودية في عملية التنقيب على الأرض، إذ يقتصر عملهن على التعليم و إدارة أبحاث نظرية ».

لقد أمر الملك عبد الله ببناء أكبر جامعة للبنات في العالم. إنها جامعة نورا التي يمكنها استيعاب خمسين ألف طالبة. بالطبع، لا يستطيع الرجال الدخول إلى حرم هذه الجامعة. «يروي مستشار ثقافي فرنسي سابق في السفارة الفرنسية بالرياض، أنه إذا ما احترقت لمبة في قاعة دراسية، يتم إرسال إشارة إلى السرداب بنوع اللمبة التي يجب تغييرها، بعدها يقوم العامل التقني بوضع اللمبة على آلة رافعة وإرسالها لتستلمها عاملة وتقوم بالتغيير».

(١) قامت صبا فارس بالتنقيب في قلوة، موقع مسيحي ما قبل الإسلام يقع في الشمال الغربي للملكة العربية السعودية.

الاختلاط ممنوع في الأماكن العامة

ما زال التمييز الصادم، في المملكة العربية السعودية، بين الجنسين خطاً أحمر لا يمكن تجاوزه في الأماكن العامة. تتفرد السعودية من بين عروش الخليج جميعها في هذا التمييز. «كانت العقبة الكأداء دائماً أمام عمل المرأة السعودية وما زالت، هي أنه لا يمكنهن بأي حال من الأحوال الاحتكاك مع رجال ليسوا من أهلهن. وذلك، على ما يبدو، خشيةحدوث انفجار جنسي فوري وغير مضبوط، إذا ما كُسر هذا المقدّس، إمّا أن يقوم الرجال بالاندفاع اتجاه المرأة دون سابق إنذار، وإما أن تقوم النساء بإغراء الرجال بوقاحة»[1].

يمكن للسعوديات، بالتأكيد، أن يصبحن محاميات أو مهندسات عمارة، لكن في الواقع، اللهم ما عدا استثناءات قليلة جداً، لن يستطعن ممارسة المهنة، أي أن تقوم المرأة بالمرافعة في محكمة أو أن تدير مشروع بناء على الأرض، ليس بسبب كونهن أقل كفاءة من الرجال، لكن لأن فضاءات التمييز في المكاتب أسهل مما هو في الخارج على الأرض. لذلك نرى أن ٩٠% من الحائزات على درجة الدبلوم في الهندسة يعملن في وظائف إدارية لا علاقة لها باختصاصهن، فقط من أجل إبعادهن عن عيون الرجال[2].

---

(١) ثورة ما تحت الحجاب، كلارنسر ودريفز، دار طباعة فيرست – ٢٠١٤.

(٢) سعودي غازيت (مجلة رسمية سعودية)، ١٨ تشرين الأول ٢٠١٥.

يبدأ، أصلاً، التمييز الجنسي في المنزل، حيث يتم تخصيص أمكنة للرجال وأخرى للنساء، وأحياناً تخصص مداخل خاصة بكل جناح. إن الغريب في الأمر هو أن هذا الفصل لا يوجد إلا بين السعوديين، لأنه يكون، في معظم المنازل السعودية، رجال أجانب، وهم عموماً من الآسيويين، يقومون بأعمال خدمة من حدائقيين وسائقين. ليفهم من لديه القدرة على الفهم!

يتم، في مطاعم ومقاهي الرياض، حجز أماكن خاصة بالنساء والعائلات، وأماكن أخرى خاصة بالرجال العازبين. يتم تقسيم صالة المطعم إلى مقصورات تفصل بينها ستارات وحواجز تحجب الرؤية من الخارج. وقبل أن يقدم خادم المطعم الطعام يقوم بقرع الباب، ويترك مهلة للسيدات كي ترتب الحجاب، ثم يقوم بإدخال الطعام إلى المقصورة.

أما في المصارف، أيضاً من غير الوارد إطلاقاً، أن تجتمع نساء سعوديات بجانب الرجال، فلكل جنس هناك نوافذ مخصصة. حتى إن هناك عدداً من المؤسسات المصرفية محصورة بالنساء فقط. حتى الأليانس فرانسيز، الموجود في الحي الدبلوماسي بالرياض، خضع للأمر الواقع ويطبق نظام الفصل بين الجنسين.

« نحن الوحيدون، من بين فروع الأليانس في العالم، نفتح قسمين، قسماً للذكور، وقسماً للإناث، اعترفت بهذا الشكل مديرة الأليانس فرانسيز في الرياض، أمينة حماد، التي أضافت، بأن ذلك يعني المزيد من التكاليف التي تتضاعف مرتين!

بالنسبة لفرعنا الجديد في مدينة جدة، فقد جهزنا مكتب استقبال مشترك يوجد فيه صفان، صف للنساء وصف للرجال وتجري الأمور جيداً وعلى ما يرام دون أيّ مشاكل. أما في فرعنا بمنطقة الخُبر، فقد افتتحنا دوامين صباحياً ومسائياً، خُصص الدوام الصباحي للنساء، والدوام المسائي للرجال ».

فيما يخص العمل في الشركات، فإن أرباب العمل ملزمون بفتح أقسام خاصة بالنساء. ويُفرض على العاملات ارتداء لباس محتشم، تحت طائلة العقوبة بدفع غرامات. يمنع النظام الداخلي انعقاد اجتماعات عمل مختلطة، في فندق ريتزكارلتون بالرياض، دون الحصول على موافقة سابقة من وزارة الداخلية قبل أسبوع على الأقل من الموعد المحدد.

« لا يلوح في الأفق المنظور أيّ مرونة فيما يتعلق بالتمييز بين الجنسين، هكذا ترى الأمور الأكاديمية أميليه لورنارد، مؤكدة، أن الأمور تتحسن من خلال ازدياد عدد الفضاءات العامة المختلطة، لكن، في الواقع نفسه، تزداد الفضاءات التمييزية وتتطور! ومن جهة أخرى، هناك نساء ما زلن يفضّلن الفضاءات الأنثوية الخالصة، لأنهن لا يشعرن بالراحة في الفضاءات المختلطة ».

انطلقت، منذ عهد الملك عبد الله، ديناميكية تشهدها السعوديات وهن يقضمن شيئاً فشيئاً سوق العمل. لقد حققن نصراً، قد يبدو بنظر الفرنسيين زهيداً، لكنه يمثل بالنسبة للمجتمع السعودي خرقاً حقيقياً: أصبح مسموحاً للسعوديات منذ الآن فصاعداً العمل كبائعات في محلات الألبسة الداخلية والثياب بأنواعها. لقد كانت هذه الوظائف سابقاً خاصة بالرجال.

« ومع هذا الإنجاز، ما زال اختبار الفستان في المحل غير ممكن، هذا ما لاحظته زوجة أحد المغتربين، فلا يوجد في محلات بيع الألبسة حتى الآن غرف للتغيير والاختبار. تشتري المرأة الثياب وتعود إلى المنزل لتختبرها فإن لم يضبط القياس، عليها أن تعود إلى المحل نفسه وتبدله! إنه عمل شاق ».

هناك تقدم آخر قد حصل أيضاً، إذ أصبح بإمكان المرأة السعودية أن تدير محل سمانة صغير، كما أنه أصبح مسموحاً لهن بالعمل في محل بيع أجهزة الهواتف الجوالة (المبايلات)، حيث، بالطبع، يجب تخصيص منطقة للرجال

وأخرى للنساء. لم تفتح السلطات السعودية أبواب سوق العمل للنساء السعوديات تعبيراً عن اهتمامها بتحقيق المساواة، بل لأن نظام التمييز بين الجنسين أحدث خللاً على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن الاستغناء عن نصف المجتمع العامل، و لاسيما إذا كان هذا النصف لديه المؤهلات؟ لقد أصبحت هذه المعادلة مستحيلة في هذا الوقت، وذلك نظراً للتحديات الاقتصادية الهائلة التي يجب مواجهتها منذ هبوط أسعار النفط.

يطمح ولي ولي العهد السعودي، محمد بن سلمان، في مخططه لتطوير المملكة، الذي أعطاه اسم «رؤية ٢٠٣٠»، إلى تسريع «تأميم» الوظائف للسعوديين والسعوديات. وهذا يعني، حتى لو تذمرت المؤسسة الدينية المحافظة، فقد أصبحت المشاركة المتزايدة للمرأة في العمل ضرورة ملحة، وهي منذ الآن فصاعداً حركة ذات اتجاه واحد لم يعد بالإمكان النكوص عنها.

من الجدير بالذكر أن هناك عدداً من النساء السعوديات، وهذا أمر غير معروف لدى الكثيرين، أصبحن اليوم مالكات مال حقيقيات، وأشير هنا إلى لبنة عليان، المديرة العامة الرئيسة (PDG) لشركة مجموعة عليان المالية (OFC) التي يقدر وزنها بعدة مليارات من الدولارات. وهي، للتو، قد أنجزت واحدة من أهم العمليات العقارية التي حصلت في السنوات الأخيرة في باريس. يشير أحد خبراء الخليج إلى أن هذا الاستثمار يبلغ أكثر من ملياري يورو.

كانت السيدة عليان[1] المرأة الأولى في السعودية، التي ألقت، عام ٢٠٠٤، الكلمة الافتتاحية في منتدى جدة الاقتصادي، وذلك في إطار محاضرة كبيرة أمام جمهور مختلط.

---

(١) حدودهن السماء، حكام الخليج، تأثيرهم واستراتيجياتهم ، فرانسوا أيسا توازي، دار الطباعة دي مومان، ٢٠١٤.

السيدة لبنة عليان تجسد الشكل الأمثل لتألق النساء في عالم الأعمال بالشرق الأوسط.

كسائر نساء العالم، تسعى النساء السعوديات لربح المال بهدف الاستهلاك وانتزاع الاستقلالية المالية.

إن النساء السعوديات، شأنهن في ذلك شأن سائر نساء العالم، يسعين لكسب المال بهدف الاستهلاك والاستقلال المالي. تشكّل الجراحة التجميلية بالنسبة للسعوديات أيضاً وسيلة للتهرب من وصاية الرجال ومن امتلاك أجسادهن.

« النساء في المملكة العربية السعودية مكبوتات، هذا ما لاحظه الدكتور نادر صعب، وهو يحتل المرتبة الأولى في الجراحة التجميلية في المنطقة. تحضر النساء إليّ من دبي لاستشارتي لأنه من السهل عليهن أن يأتين إليّ بدلاً من السفر إلى أوروبا أو إلى الولايات المتحدة الأميركية وكل شيء ممكن في عيادتي. المرأة هنا حرة لتفعل ما يحلو لها من حقن بالبوتكس أو إعادة رسم الأنف أو نفخ النهدين ».

يُحرّم على السعوديات ممارسة الرياضة الأنثوية، لأنه وبحسب رأي علماء الدين، الذين لديهم بالتأكيد إجابة عن كل تساؤل، «هناك طرائق أخرى تتيح للمرأة فرص المحافظة على صحة جيدة: بإمكان المرأة أن تمارس نشاطاً رياضياً في بيتها، كأن تستغني عن خدمات طاقم العاملين في المنزل، وتتفرغ بنفسها للواجبات المنزلية، وأخيراً أن تبرهن على الاعتدال في استهلاك الطعام»[1].

---

(1) ثورة تحت الحجاب، كلارنسر ودريكز، دار طباعة فيرست، ٢٠١٤.

إذن، تُمنع دروس التربية الرياضية للبنات في المدارس، اللهم ما عدا المدارس الخاصة.

كان ركوب الدراجات، لفترة طويلة من الزمن ممنوعاً على البنات، لأن رجال الدين المتشددين يعدّون ركوب الدراجة يعرّض غشاء البكارة للتخريب(١) أو التمزق.

أما بالنسبة لعلماء الدين الأكثر تقدمية، فإنهم يردون بأن بإمكان النساء السعوديات ممارسة الرياضة ولكن ضمن شروط محددة: منها عدم التزين، وضرورة أن يكون اللباس محتشماً، وأن يتدربن بعيداً عن نظرات الرجال. تعد نوادي اللياقة البدنية في أحسن الأحوال صالات للتدليك (مساجّات) أما في الأسوأ فهي أماكن للمجون.

بقيت المملكة العربية السعودية، حتى الألعاب الأولمبية عام ٢٠١٢، البلد الوحيد في العالم الذي لم يشارك بوفد أنثوي في هذا الحدث الكوني، والسبب في ذلك عدم وجود أي مؤسسة رياضية في السعودية تقبل في عضويتها نساءً.

شارك للمرة الأولى من نوعها، رياضيتان سعوديتان في الألعاب الأولمبية التي نظمت في لندن بألعاب الجودو وألعاب رياضية أخرى. أعطى الملك عبدالله، تحت ضغط اللجنة الدولية للألعاب الأولمبية، الضوء الأخضر شريطة أن تضع المتسابقات الحجاب(٢).

---

(١) تم السماح للسعوديات بركوب الدراجات، منذ عام ٢٠١٣، ولكن فقط في الحدائق العامة.

(٢) الرياضيتان هما لاعبة الجودو وجدان شهر قاني، وسطع عطار، سباق ركض مسافة ٨٠٠ متر. أما في الألعاب الأولمبية التي نظمت في ريودي جانيرو، فقد أرسلت المملكة العربية السعودية أربع لاعبات سعوديات.

« قررت السعودية أخيراً إرسال لاعبات سعوديات، وذلك عندما لم يعد أمامها أي خيارات أخرى، هذا ما ذكره خبير في الألعاب الأولمبية. لم تشكل الرياضة النسوية أبداً إحدى السلطات الرياضية في المملكة العربية السعودية: إنها تنكر عليهن هذا الحق »، يأسف هذا الخبير بأن هذه المشاركة الأولى لم تطلق ديناميكية فعالة.

ما تزال النساء السعوديات، بعد انقضاء أربع سنوات،محرومات من حضور حدث رياضي في الملعب. لا بل الأسوأ من ذلك هو أن المملكة العربية السعودية سعت للترشح إلى تنظيم الألعاب الأولمبية على أراضيها، شريطة أن تكون محصورة بالرجال[1].

كان بإمكان السعودية تقديم الترشح بملف مشترك مع البحرين، وذلك لتلافي وجود نساء رياضيات على الأرض المقدسة للملكة. لكن، ونظراً لمعارضة اللجنة الدولية للألعاب الأولمبية، أجهض المشروع.

استطاعت النساء السعوديات، في ظل حكم الملك عبدالله، إنجاز الخطوات الأولى على المسرح السياسي. فقد قرر العاهل السعودي، في غمرة أحداث الربيع العربي بتاريخ ٢٥ أيلول ٢٠١١ أن يمنح النساء حق التصويت وحق الترشح للانتخابات البلدية. عيّن أيضاً ثلاثين امرأة سعودية بعضوية كاملة الحقوق في مجلس الشورى، وهو المجلس الاستشاري والمعادل للبرلمان[2].

«لقد واجهنا معاناة كبيرة عندما تمت تسميتنا، هكذا اعترفت هدى الهليسي، عضو لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشورى. أضافت السيدة

---

(١) كانت المملكة العربية السعودية ترغب بترشيح نفسها لتنظيم الألعاب الأولمبية على أرضها، لكن حصراً بالرجال، الفيفارو، فرنسا، ٣١ كانون الثاني ٢٠١٥.

(٢) «قرر الملك عبد الله، في حزيران ٢٠٠٦، تسمية اثنتا عشرة امرأة في عضوية مجلس الشورى، «كاستشاريات جزئياً وليس بشكل كامل»

الهليسي تعرضنا لانتقادات عنيفة، وخاصة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي»، ومنذ ذلك الحين يعقد النساء والرجال اجتماعات مختلطة.

تمكنت تسعمئة امرأة سعودية من القيام بحملة دعائية، وذلك للمرة الأولى بمناسبة الانتخابات البلدية في الثاني عشر من كانون الأول عام ٢٠١٥، ولكن على الطريقة السعودية حيث كانت المرأة المرشحة تقوم بتوكيل رجل عنها، يقوم في اللقاءات الجماهيرية، بشرح برنامج المرأة المرشحة أمام الناخبين الذكور.

لا يحق للنساء المرشحات تعليق صورهن على الإعلانات الدعائية لحملتهن الانتخابية، في حين يمنح هذا الحق للرجال حصرياً. علماً أن هذه هي المرة الأولى التي تتساوى فيها النساء مع الرجال! جرت الحملات الانتخابية للنساء، أساسياً، على صفحات الإنترنيت وشبكات التواصل الاجتماعي.

لكن ممارسة هذا الحق، لم تكن لتمر من دون تهديدات بالقتل وصلت إلى المرشحات وإلى أزواجهن على هواتفهم المحمولة. على الرغم من كل ما حصل فقد تم انتخاب أربع عشرة امرأة، من أصل ألفي مقعد في المجالس. إنه لعدد قليل جداً لكن المهم هو أنه تم كسر سقف زجاجي جديد أمام المرأة السعودية .

بانتظار الانتقال إلى مرحلة أخرى في المملكة العربية السعودية التي قد تكون تسمية امرأة على رأس وزارة. لكن سيكون هناك حديث آخر بهذا الخصوص ...

تتبوأ النساء، في جميع بلدان الخليج، الآن مناصب عالية في وظائف الدولة. كانت دولتا عمان والبحرين سباقتين في هذا المجال، حيث تم تسمية عدد من النساء سفيرات لبلديهما وخاصة لدى منظمة الأمم المتحدة.

تبوأت امرأة في قطر منصباً وزارياً لأول مرة عام ٢٠٠٣، ويترأس اليوم وزارة الصحة القطرية السيدة حنان محمد القواري.

تحتل خمس نساء مناصب وزارية في الإمارات العربية المتحدة، ويشكل هذا العدد واحداً من أعلى نسب المشاركة النسائية في الوطن العربي.

إن هذه الوزارات ليست وزارات سيادية بالتأكيد، فهذه الأخيرة بأيدي أمراء العائلة الحاكمة. لكن يكفي أن يتم تسمية امرأة كوزيرة دولة مسؤولة عن الشباب، هي شماء المازروي، وهي شابة ذات الاثنين وعشرين ربيعاً حاصلة على دبلوم من جامعة أكسفورد، لكي يكون ذلك رمزاً قوياً وخير دلالة على التغيير والتغير.

لا يجب، على الرغم من كل ما تحصل عليه النساء من سلطات، أن ننسى أن هناك معايير محدودة وإطار لا يمكن تجاوزه: « يجري انتقاء المرشحات لمناصب القرار بالتنقيب بين أوساط النخبة الإماراتية، وهذا من مستلزمات الشركة، حيث سيتم النظر بشكل سيِّئ إذا ما اخترقت مدونة النظام. نعم للاستقلالية، لكن شريطة عدم المس بدورهن في خدمة عائلاتهن، وحاشياتهن، وبلدهن:

«نعم لمنح النساء مسؤوليات لكن دون أن يعكر ذلك مكنون الوراثة والثقافة العربية الأصيلة»(١).

إذا ما كانت هذه الطليعة النسائية المتنورة تتصدى لحمل الراية، هناك العديد من النساء في بلدان الخليج ترغب في المحافظة على دورها التقليدي، بمن فيهن الحاصلات على دبلومات عليا في الدراسة حيث الخيار هو أن تصبح ربات منزل فقط.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو أين تقع الحصة النسبية للخيار الشخصي بالنسبة لثقل التقاليد؟ من الصعب الإجابة عن هذا التساؤل.

---

(١) جوهر الإمارات – من هن هؤلاء النساء المختبئات تحت الحجاب؟ كيرا دوبون، دار طباعة المومات (اللحظة) ، ٢٠١٤.

يتوجب علينا ألّا نغطي بقشرة خشبية حقائقنا وقيمنا حول مجتمعات هي من خضم تحولات مصيرية، وهي تتقدم بالتلمس رويداً رويداً.

يجدر بنا أن نترك الكلمة الأخيرة للنائبة السعودية هدى الهليسي. تختصر الهليسي الطريق التي اختارتها السعودية، والتي يجري تطبيقها بشكل كبير أو بشكل أقل في باقي دول الخليج بقولها: «لا نود أن نقوم بالتغيير عن طريق ثورة نحن نرغب بتغيير يشبهنا!». لا يتمنى القادة السعوديون أن يُفرض عليهم من الخارج إيقاع ومحتوى إصلاحات تتعلق بالمرأة، وينظر إلى هذه الإصلاحات على أنها شكل من أشكال الاستغراب. وذلك لأن المتدينين والمحافظين يدققون في أصغر التفاصيل خوفاً من ضياع سلطاتهم.

قطــر تميـــم

عندما نقل الشيخ حمد السلطة، في السادس والعشرين من حزيران ٢٠١٣، على حياة عينيه، إلى ولده تميم. تبوأ هذا الأخير ذو الأربع والثلاثين ربيعاً، على عرش بلد في ذروة قوتهاوكانت هذه هي المرة الأولى التي تحصل في الوطن العربي. فبعد أن خرجت قطر من بين الرمال، ولم يكن يعرفها أحد، استطاعت بأقل من خمسة عشر عاماً أن تصبح قوة مؤثرة على الصعيدين العربي و الدولي.

انتشرت القناة التلفزيونية (الجزيرة)، وهي الراية الإعلامية لهذا البلد الأكبر قليلاً من مساحة جزيرة كورسيكا الفرنسية، في أصقاع العالم كافة. لقد وفّر استثمار الاحتياطي من الغاز للإمارة مداخيلاً ضخمة من المال. وما زاد الطيب طيباً هو أن قطر استطاعت انتزاع تنظيم كأس العالم لكرة القدم لعام ٢٠٢٢ .. إنه تكريس لدور قطر .

لقد تحولت المعجزة إلى واقع بفضل «الثلاثي السحري»: الأمير حمد، وهو شخصية طليعية وجذابة، وابن العم، حمد بن جاسم، وهو شخصية قيادية مكارة ومناورة سمحت لحمد بالنجاح في انقلابه عام ١٩٩٥، حينما قام بعزل والده. كان هاجس الشيخ حمد هو إظهار قطر كدولة مهمة، وقد نجح في ذلك أكثر مما كان يحلم.

غادر الثلاثي السحري اليوم مسرح الحياة السياسية في قطر، إذ يعيش أمير قطر السابق حياة تقاعدية، بعد أن وقف إلى جانب ولده وسانده في

السنة الأولى من حكمه. تفرغ بعدها لإدارة ثروته والقيام بأعمال حرة. واشترى مقهى السلام في قلب باريس، من ماله الخاص. أما الشيخة موزة فاختفى دورها تماماً من على المشهد القطري. «كانت علاقة الشيخة موزة مع ابنها تميم دائماً على درجة كبيرة من التعقيد»، هكذا شرح دبلوماسي مقرب من حياة البلاط في قطر. يقول تميم «كنت دائماً أراهن على أنه سيأتي يوم يتم فيه استبعاد والدتي ولن يكون بعيداً، ».

وأما العرّاب الثالث «للثلاثي السحري» حمد بن جاسم، فهو يمضي معظم وقته في لندن حيث يدير فيها إمبراطوريته المالية.

أمير إداري وحذر

البون شاسع بين الأب الشيخ حمد، الشخصية المنتجة والجريئة، وبين الابن تميم، الشخصية الحذرة والمتحفظة. إن الأمير الشاب هو الأكثر تزمتاً وأكثر تديناً من والده. لا تظهر زوجتا الأمير إلى العلن مطلقاً، في حين إنه من المعروف عن الشيخ حمد أنه يمتلك حسن التواصل الإنساني مع مواطنيه، بينما تتميز علاقة تميم مع المواطنين بالتكلف والجمود. «كان أبوه يدفعه دفعاً لكي يقوم بإلقاء التحية على المواطنين في غمرة الاحتفالات بالعيد الوطني القطري»، هذا ما لاحظه مغترب لبناني يعمل في وكالة الاتصالات.

«لم ينجح الأمير الشاب بعد في التقرب من شعبه»، يؤكد محامي أعمال فرنسي.

كان الشيخ حمد يصغي ويستمع للعشائر التي كان على معرفة دقيقة بها. بينما لا يمتلك تميم القدرة على التواصل والحوار مع الناس.

يشكل العيد الوطني في قطر فرصة لتأكيد عهد الولاء السرمدي بين العائلة الحاكمة آل ثاني والعشائر. إنها اللحظة الرمزية التي يقوم خلالها القصر الأميري بتوزيع مغلفات نقدية على زعماء العشائر. يوضح أحد المقربين من الديوان الأميري بهذا الخصوص قائلاً: « توزيع المال في عهد الشيخ حمد كان يتم دون أي مناقشة، لكن اليوم في عهد تميم، اختلفت الأمور وتجري مناقشة جادة ودقيقة لقيمة المغلفات المادية ».

يجب ألّا ننسى أبداً أن منصب الأمير في قطر يعهد به إلى زعيم العشيرة الأقوى. وانطلاقاً من هذا الواقع، يتوجب على الأمير المحافظة على التوازن بين العشائر.

تبوأ الأمير تميم عرش الإمارة مقدماً له على طبق من الفضة، خلافاً لما جرت عليه العادة مع سلفه، الذين لم يستلموا السلطة إلا على أثر انقلابات، وهو لم يزل حديث العهد في الخبرة.

يتوجب على الأمير الشاب، وبسبب نقص النفوذ والهيبة اللتين كان يتمتع بهما أبوه الشيخ حمد واللتين خولتا فرض أرائه، أن يسعى لتسوية أموره وإعادة تنظيم توليفة متوافقة مع تطلعاته. استطاع الأمير الشاب، بفضل واقعيته ونشاطه، إعادة التوازن متوجهاً صوب المحافظين والمتشددين اتجاه كل ما يتعلق بالأخلاق، وذلك من أجل طمأنة رجال الدين. وهكذا تجري عملية الانفتاح بالعودة إلى الوراء جرياً واضحاً جداً.

فقد فرض الأمير الشاب وانطلاقاً من هذه الرؤية، منع استهلاك الكحول خلال الأيام العشرة التي تسبق بداية شهر رمضان، وكذلك خلال الأيام العشرة التي تتلو عيد الفطر. منع الأمير الشاب أيضاً تناول الكحول من بارات المسابح في الفنادق الضخمة بالدوحة، كما أنه لم يعد يسمح بالمشروبات الكحولية في النوادي الدبلوماسية الراقية.

إن ما يميز فريق العمل الذي يحيط بالأمير الشاب هو أنه ينتمي إلى جيل الشباب، وخير مثال على ذلك وزير الخارجية، وهو الشيخ محمد بن عبد الرحمن آل ثاني، ذو الستة والثلاثين عاماً.

اعتمد الأمير تميم، في إدارة شؤون الدولة، على جيل من التكنوقراطيين تخرجوا من كبرى الجامعات الغربية. يتحدث جميع هؤلاء لغات أجنبية. لكن، الجدير قوله، إن هذه الحاشية الشابة ليست بالضرورة محبوبة من قبل الشعب.

«يعوم تميم وسط جيش من الخبراء»، أفشى لنا بذلك موظف رسمي.

تجسد الشيخة هند، شقيقة الأمير تميم في مؤسسة قطر «جيل تميم» بنسخته الأنثوية.

ورثت الشيخة هند عن والدتها الشيخة موزة هذا المنصب في ربيع عام ٢٠١٦، حيث تبوأت رئاسة هذه المؤسسة التي تأسست لتعنى بتطوير قطاع التعليم الجامعي إلى أعلى مستوى، ويتعزز دور المرأة في المجالات كافة سيما الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية.

كانت تعمل هند المتألقة، سابقاً مستشارة سياسية في مكتب والدها، الشيخ حمد. كانت هند ترافق والدها في زياراته الرسمية إلى الخارج، لذلك هي متمكنة من معرفة الملفات الدبلوماسية.

يهمس بعض المراقبين في الدوحة بأنه لا يستبعد أن تتبوأ الشيخة هند ذات يوم منصب رئيسة الوزراء في قطر، وهذا ما سيشكل الحدث الأول من نوعه في الوطن العربي.

أصبحت الكفاءة في الديوان الأميري، هي الكلمة المفتاحية، فقد ولى عهد التكاليف الباهظة إبان حكم الشيخ حمد، حيث كان وبمجرد طقطقة أصابع، يؤخذ القرار بالموافقة على مشروع مكلف دون أي تفكير عميق بفائدته أو ريعيته.

يقول مغترب فرنسي يعمل في قطاع البنى التحتية: « لم أشهد أبداً، وأنا في قطر منذ عشر سنوات، إدارة ناجحة لأي مشروع. أما اليوم، يضيف هذا المغترب، يريد تميم أن يأخذ مسافة مع ما كان سائداً في عهد والده، إنه يرغب بالتميز عنه، ويسعى لوضع حد لهدر المال الذي أنتج فساداً منتشراً في عالم الأعمال في قطر».

تراقب الآن السلطات عن كثب شركات من الصف الأول، مثل أورباكن ترادينغ، وكونتركتور، وأكتور، ومجموعة بن لادن، وكذلك مجموعة الجابر الهندسية.

«لقد أطلق الأمير تميم، شخصياً، عملية (الأيدي النظيفة)، هذا ما أكده ممثل مجموعة فرنسية تعمل في قطر. لذلك نجد اليوم عدداً من كبار مديري شركات البناء يرقدون في السجون خلف الشباك وتوجب عليهم دفع ما يزيد عن مئة مليون ريال قطري (ما يعادل خمسة وعشرين مليون يورو) لكي يطلق سراحهم وليتم وضعهم تحت الإقامة الجبرية».

لم تشمل عملية الأيدي النظيفة هذه فقط الأوساط الاقتصادية، بل طالت أيضاً قوى الأمن الداخلي حيث يرقد خمسة ضباط رفيعو المستوى خلف القضبان بتهمة الفساد.

عزز الأمير تميم، في غمرة معركته من أجل الشفافية، سلطات مكتب تدقيق الحسابات في الدولة وهو شكل من أشكال مجلس الحسابات القطري، الذي يراقب حركة أموال الوزارات والمصارف والمؤسسات الممولة من المال العام، التي تعود مرجعيتها مباشرة إلى الديوان الأميري. في إطار جهوده لتثبيت وتعزيز سلطاته، أعطى الأمير تميم الأولوية لإعادة تنظيم البيت القطري الداخلي، ولتجاوز بعض أحلام جنون العظمة في المنطقة. أصيب والده، الشيخ حمد، بشيء من الانحراف النفسي، هذا ما أقر به دبلوماسي مقرب من الديوان الأميري.

ظن الشيخ حمد بأنه أصبح لاعباً دولياً، وذلك بعد نجاحه عام ٢٠٠٨، بانتزاع اتفاق حول لبنان في الدوحة. وبعد ذلك بتدخله في ليبيا.

اعتقد الشيخ حمد أنّ بدعمه حركة الإخوان المسلمين، سيصبح بفضل هذه الضربة عرّاب الوطن العربي. كان الشيخ حمد يعيش بذلك أوهاماً.

أخضع أقران تميم في الخليج الأمير الشاب إلى عملية تشويش دبلوماسية حقيقية، وذلك منذ توليه السلطة، معيبين على قطر تدخلها السافر في الشؤون الداخلية لجيرانها وهم المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، والبحرين حيث استدعت هذه الدول في ربيع عام ٢٠١٤ سفراءها المعتمدين في الدوحة، وقد أقرنت الفعل بالكلام، إذ قامت الرياض بإجراء مناورات عسكرية لجيشها وهددت بإغلاق الحدود مع جارتها قطر.

كانت قطر بهذا الشكل، تدفع ثمن دعمها اللا محدود للإخوان المسلمين إبان الثورات العربية، خصوصاً في مصر. حيث كان يُنظر في الخليج إلى هذا الدعم على أنه انشقاق سياسي عن نهج ملكيات الخليج، والتي لا يوجد للإخوان المسلمين محبة في قلوبهم. لم يعد بإمكان تميم، حديث العهد في السلطة، متابعة الخطى على سير والده، الداعم القوي للإخوان المسلمين.

على الرغم من كل ما جرى في مصر من أحداث، فما يزال الشيخ حمد مقتنعاً أن مستقبل العالم العربي هو للإخوان المسلمين، هذا ما صرح به دبلوماسي مقرب من الديوان الأميري، مضيفاً أن الإسلاميين يمثلون، بنظر الشيخ حمد، حساسية لا يمكن احتواؤها.

ولما دحضت رأيه بأن الطريق أمام الإسلاميين مسدود، أجابني متذمراً:

«أجل، هذا صحيح في الوقت الحاضر، لكنه لن يكون بالضرورة في المستقبل كذلك». لقد شكلت إيديولوجية الإخوان المسلمين، منذ ستينيات القرن الماضي، الحمض النووي لعائلة آل ثاني الحاكمة. ويعدّ الشيخ المصري يوسف القرضاوي، أيقونة الإعلام السمعي البصري للإخوان المسلمين في الجزيرة، الأب الروحي لأمير قطر السابق الشيخ حمد، وتربى تميم كذلك على تعاليمه وعلى الفتاوى التي كان يطلقها في خطبه الدينية بجامع الخليفة.

لم يعد يقدم هذا الداعية، الذي يناهز الثمانين عاماً، برنامجه على شاشة الجزيرة، (الشريعة والحياة)، الذي أعطاه شهرة، لكنه ما يزال فاعلاً ومؤثراً في الإمارة وفي العالم الإسلامي، حيث ما زال يتبوأ منصب رئيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين.

كان على الأمير تميم أن يخضع، أمام ضغط أقرانه في عرش الخليج، ويأخذ مسافته مع الإخوان المسلمين، إذ قام في أيلول ٢٠١٤ بإبعاد سبعة أعضاء مصريين من جماعة الإخوان المسلمين الذين ينتمون إلى حزب الحرية والعدالة في تركيا. ومنذ ذلك الحين أصبحت قطر أقل جعجعة اتجاه مصر (عبد الفتاح السيسي)، وهو الجنرال الذي أدخل الرئيس المصري السابق (محمد مرسي)الإخواني إلى السجن. لكن كل هذا لا يعني قطيعة نهائية مع التيار الإسلامي، فهو مجرد تكتيك متلائم مع الظروف الحالية، أي أنه يعني تغيير في الشكل أكثر مما هو تغيير في المضمون.

بقي عزمي بشارة، المقرب من الأمير السابق، والنائب العربي السابق في الكنيست الإسرائيلي محافظاً على دوره المفتاحي في القصر الأميري. يُعدّ عزمي بشارة المنظّر الرئيسي في مجال دعم الإخوان المسلمين إبان الربيع العربي، كما لا يزال هذا القومي العربي مسموعاً جداً من قبل الأمير تميم، الذي جعل منه مستشاره الدبلوماسي. وخير مثال على سطوته عند آل ثاني، أنه يمكنه - كلما رغب - أن يُدعى إلى نشرات أخبار الجزيرة، حتى لو أعلن عن ذلك قبل عشر دقائق من موعد النشرة، ودون سابق إنذار، هذا ما أفصح به أحد صحفيي القناة.

وجد الأمير الشاب لنفسه صديقاً جديداً متمثلاً بشخص الرئيس التركي رجب طيب أردوغان. عقد الأمير تميم تحالفاً استراتيجياً مع الإخوان المسلمين الذين هم على رأس السلطة في تركيا. حيث وقعت قطر وتركيا عام ٢٠١٤ اتفاق دفاع، يتضمن إقامة قاعدة عسكرية تركية في قطر،

كما يتضمن القيام بتدريبات مشتركة بين الجيشين. قام بنك قطر الوطني بضخ مبلغ مليارين وسبعمئة مليون يورو عام ٢٠١٣ في بنك فينانس بنك، وهو يحتل المرتبة الخامسة في المصارف الخاصة في تركيا، وذلك بهدف دعم الاقتصاد التركي، وكدليل آخر على شهر العسل بين البلدين، كان الأمير تميم السبّاق في تهنئة أردوغان بفشل الانقلاب الذي جرى ضده في الخامس عشر والسادس عشر من تموز عام ٢٠١٦.

إن الشيخ تميم ليس مغامراً، في حين إنّ والده كان يؤدي دور المحرض والمثير للفتن. آثر الأمير الشاب الابتعاد عن استعراض العضلات بكل الاتجاهات. وقام، قياماً حكيماً، بالانضواء تحت جناح المملكة العربية السعودية، وقام بإصدار التعليمات إلى وسائل إعلام الإمارة كافة، وخاصة قناة الجزيرة التي تقضي بإيقاف ومنع أي نقد إلى الجار الأكبر السعودي.

لقد أدرك تميم جيداً أن الانسجام الإيديولوجي مع تركيا ومع حركة حماس الفلسطينية شيء، وأن استمراره في السلطة شيء آخر هو الأكثر أهمية ويكمن هذا في علاقته مع الولايات المتحدة الأميركية. لذلك جعل الأمير تميم أولوية الأولويات العمل على تأمين رعاية واشنطن لسلطته. من أجل ذلك، قرر الأمير الشاب استثمار خمسة وثلاثين مليار دولار في الولايات المتحدة الأميركية خلال السنوات الخمسة القادمة، من خلال قسم الاستثمار القطري، وهو الصندوق السيادي في الإمارة. من المفيد بالنسبة للأمير الشاب تميم أن يسعى لتجديد عقد ضمان الحماية، وذلك في ظل التوتر الهائل الذي يخيم على منطقة الشرق الأوسط. ثم إنَّ تميم لا ينسى أن على أرض بلاده توجد أكبر قاعدة جوية أميركية، في منطقة العيديد، وهي القاعدة التي تغطي مسرح الأحداث في أفغانستان، والعراق، وسورية.

يجتاح الديوان الملكي شعور بارتفاع درجة حرارة التوتر، وذلك في سياق الأوضاع المشوشة والمرتبكة بمنطقة الشرق الأوسط. نقل لنا مقرب

من كواليس البلاط الأميري، أسراراً باحت له بها إحدى أميرات الدرجة الأولى: «هل تعلم أننا قمنا بتجهيز بيتنا في لندن، لأنه علينا اتخاذ كل الاحتياطات كوننا أفراداً من العائلة المالكة، وذلك بسبب الأزمة السورية والحرب في اليمن، أصبح علينا لزاماً أن نكون مستعدين لأيّ احتمالات تحسباً لأي طارئ. يوجد عدد من اليمنيين بين صفوف جيشنا. لا أحد يستطيع معرفة ما يمكن أن يحصل، اضطر الأمير أن يتجاوب مع طلب الشقيق السعودي الأكبر، ويرسل فرق من جيشه لمقاتلة الحوثيين المتمردين، وذلك مع أنه لم يكن متحمساً لهذا الأمر.

أهي نهايـة عصر المعجزة القطريـة؟

لا توجـد في قطـر أيّ إمكانيـة لتوجيـه نقـد علنـي، فجميـع وسـائل الإعلام هي بأمرة وتوجيه القصر الأميري. يستطيع المواطنون التعبير عن إحباطهم في الدواوين. يتساءلون عن مصير البلاد، في ظل هذا الزمن المرتبك، ويذهب بعض الأمراء إلى التذكير بأصولهم السعودية. التقينا خلال إجراء بحثنا هذا، بموظف عال المستوى، فتح لنا قلبه. طلب هذا الموظف عدم كشف هويته، وهذا أمر بدهيّ جداً. بالنسبة لهذا الموظف أن قطر ذاهبة، من دون أدنى شك، نحو حائط مسدود: « إن هذا النمط من السلوك الذي نسلكه ستكون نهايته حتماً الفشل، لكنه قطار انطلق بسرعة فائقة ولم يعد بالإمكان إيقافه، شرح لنا هذا الموظف بصراحة ما يجول في فكره، مضيفاً، وعلينا محاولة التأقلم معه ».

الجدير قوله هو أن الطريق الذي تم اختياره لتطوير الإمارة، يشكل تحدياً لكل القوانين والشرائع المعترف بها في كل أنحاء المعمورة، فهذه هي المرة الأولى في تاريخ الإنسانية، أن تقوم بلد ببناء نفسها دون أي مصدر للمياه، ومع سكان غير موجودين تقريباً، ومع ضرورة استيراد كل ما يتعلق بالغذاء.

« أردنا نسخ أنموذج من التطوير قُدّم لنا جاهزاً (المفتاح باليد) من قبل المؤسسات الكبرى الاستشارية في العالم. باعونا أوهاماً عن التقدم ونحن اشتريناها، هكذا اعترف لنا هذا الموظف الذي ينتمي إلى أقلية في الإمارة. تدرك هذه الأقلية ما آل الوضع إليه، والصعوبة في إقناع النخبة في البلاد».

يتابع هذا الموظف قوله بأن الأسوأ «هو أننا بطريقنا إلى فقدان البنى الثقافية الاجتماعية التي نشأنا عليها. إن معظم القطريين غير مرتاحين لسرعة التغييرات التي تحصل. تتعاظم الحاجة يوماً بعد يوم لاستيراد أيدٍ عاملة أجنبية. لم يكن تنظيم كأس العالم لكرة القدم حاجة ملحة بالنسبة لقطر».

يستطرد هذا الموظف ليذكر أن قطر تقع في منطقة زلزالية وتعاني من الارتدادات التي تنشأ من الهزات الأرضية التي تحصل في إيران.

« استعادت اليابان قوتها بعد كارثة فوكوياشيما. لو أن ما حصل في اليابان يحصل عندنا لكنا قد اختفينا عن وجه البسيطة، كما أنه علينا ألّا ننسى أن احتياطي كمية المياه الصالحة للشرب لا تتجاوز اثنتين وسبعين ساعة فقط، تقوم بإنتاجها معامل تحلية المياه في منطقة رأس لفان. سيؤدي هبوط أسعار البترول والغاز إلى جفاف في الفم القطري شأنه في ذلك شأن سائر دول الخليج. تشهد قطر، للمرة الأولى منذ خمسة عشر عاماً، عجزاً في ميزانيتها يقدر بـ ٧.٨% لعام ٢٠١٦، والذي يُفترض أن يتكرر هذا العجز خلال السنوات الثلاث القادمة». هناك ما يسوّغ متابعة خاصة لواقع النظام المصرفي، وذلك لأن السيولة النقدية لم تعد كسابق عهدها ولأن فضحها للقطاعات المصنفة «حساسة» وعلى رأسها القطاع العقاري، له دلالاته الخاصة، هذا ما ورد في تقرير مُرسل إلى وزارة المالية الفرنسية خاص بقطر[1].

يمكن للإمارة، بكل تأكيد، مواجهة انخفاض مداخيل الغاز والبترول وذلك بفضل الفرشة المالية التي ما تزال ممتلئة امتلاءً كبيراً[2] ومكتنزة، جاء

(١) تقرير حول الوضع الاقتصادي والمالي في قطر، قسم الشرق الأوسط الاقتصادي، السفارة الفرنسية في بيروت، ١٤ كانون الثاني ٢٠١٦.

(٢) يحتل الصندوق السيادي القطري المرتبة العاشرة في العالم حيث تتراوح المبالغة القائمة فيه ما بين مئة وسبعين ومئتين وخمسين مليار دولار.

الوقت حيث من الآن فصاعداً يجري العمل على إعادة تكييف المشاريع حسب الظروف إلى درجة وقف كامل لبعضها. «لقد انخفضت إعلانات العروض لمشاريع ضخمة بنسبة ٩٢% خلال عام واحد بين ٢٠١٥ و ٢٠١٦، لاحظ هذا محامي أعمال فرنسي معتبراً أن الكثير من هذه المشاريع غير واقعية».

حافظت السلطات القطرية على المشاريع التي تُعد منارات، وخاصة المتعلقة ببطولة كأس العالم لكرة القدم التي ستقام في قطر عام ٢٠٢٢، مثل مشاريع قطارات الأنفاق، وخطوط الترام، والميناء، وتوسيع المطار .... إلخ. حيث يُنظر إلى هذه المشاريع على أنها مقدسة من الناحية المالية.

لا يوجد أمام قطر أي خيار، فمهما يحصل، يجب إنهاء أعمال البنى التحتية هذه بدقة وبملقط الجرّاح. لكن هذا لا يمنع من التدقيق في الكلف الباهظة. فقد توقفت السلطات عند اللمسات الأخيرة للموكيت الفاخر جداً فوجدت أن كلفته عالية في محطات مترو المستقبل، لذلك طلب وزير النقل تخفيض الفاتورة.

كانت السلطات القطرية قد خططت لحفر نفق تحت الماء يصل المطار بحي الأعمال في الخليج الغربي، لكن تم وضع هذا المشروع، الذي تبلغ كلفته اثني عشر مليار دولار، في الأدراج.

لا يوجد اقتصادات صغيرة، بما في ذلك بالنسبة لشركة الطيران القطرية، وردة قطر الصغيرة. تلقى الطيارون التعليمات، من أجل توفير البنزين، بضرورة إيقاف أحد محركات الطائرة بعد الهبوط للوصول إلى المحطة النهائية للطيران، وذلك بحجة الحفاظ على البيئة.

« روى لنا أحد الطيارين، أنه ذات يوم، لم يعد لديه القوة الدافعة للوصول، لأن مدرج مطار حمد الدولي في الدوحة، قد انفتل، علماً أنه جديد، فاضطر إلى استدعاء سيارة شحن لقطر الطائرة حتى بلوغ محطة الطيران النهائية ».

طال هذا التخفيف في السيولة النقدية جميع المجالات بما في ذلك الرياضة، التي تُعد فخر العائلة المالكة. أعلنت الاتحادات الرياضية تخفيضاً في ميزانياتها تراوحت بين ٣٠% و ٦٠%. وأصبحت تتأخر في دفع التزامها في الفعاليات الرياضية الدولية التي يتم تنظيمها وإقامتها في الدوحة، حتى إنه في بعض الأحيان تطلب قطر تأجيلها. وقد بدأت أوساط في اللجنة الدولية للألعاب الأولمبية تتساءل: هل ما زالت قطر قادرة على السداد؟

أقدمت الدولة القطرية على طلب قروض من السوق الدولية بفائدة تقارب صفر بالمئة، وذلك من أجل أن تنتج مالاً جديداً وتستمر في الاستثمار. لقد أخذت فكرة ضريبة القيمة المضافة طريقها إلى التحقيق، وهي فكرة مشتركة مع باقي عروش الخليج ومن المفترض أن يتم تطبيق هذه الضريبة وتدخل حيّز التنفيذ عام ٢٠١٨. إن هذا الإنجاز يعدّ ثورة في بلاد من دون ضرائب. ومن أجل هذا الغرض، أوفد مجلس التعاون الخليجي بعثة إلى باريس لطلب الاستشارة التقنية من وزارة المالية الفرنسية في مجال الضرائب.

« كان الخليجيون يرغبون بأن يتفرّغ لهم في بلادهم عدد من الموظفين لصياغة نظام ضريبة القيمة المضافة، نقل هذا الكلام وزير المالية الفرنسي. تابع الوزير قوله إننا أوضحنا لهم بأنه يتوجب عليهم أن يأخذوا على عاتقهم تكاليف العملية ».

« في الواقع، ليست الأمور على ما يرام، اعترف بذلك أحد المتعهدين المرتبط بالعائلة الحاكمة، لكن الأمور ليست على درجة عالية من الخطر. ما زال يوجد الكثير من المال في قطر. أما بالنسبة للمغتربين الفرنسيين، فقد اختصرنا الميزات التي كانت تمنح لهم: لم نعد نقدم لهم الفيلات، فأصبحنا نقدم لهم شققاً سكنية، لم نعد ندفع لهم بطاقات طائرة لأفراد العائلة كافة، كما كنا نفعل سابقاً. لقد ولّى زمن الفخفخة ».

شهدنا دائماً في الاتجاه نفسه ، في جميع الأمكنة تسريح الآلاف من الموظفين، وبشكل أساسي أولئك أصحاب الياقات البيضاء في عدد كبير من المؤسسات من بينها: قطر للبترول، والمؤسسة القطرية، ومتحف قطر .... الخ. كما تمّت إعادة النظر بالمشاريع وتخفيضها، أو ببساطة إلغائِها. لن ترى النور مشاريع متاحف كان قد تم الإعداد لها. نجا فقط من المفرمة مشروع المتحف الوطني الذي يشرف عليه جان نوفيل، ويشبه هذا المتحف زهرة الرمال الموضوعة على الكورنيش، ويُفترض أن يتم افتتاحه في نهاية عام ٢٠١٧. تم تعليق أعمال ورشة استصلاح أراضٍ بقيمة خمسئة مليون يورو، تقوم بتنفيذها مؤسسة بويك.

تشهد الدوحة، من جهة أخرى، نزيفاً في أوساط الكوادر الأجنبية، من دون إيجاد بدلاء عنهم. « تلقيت رسالة تسريحي من العمل بعد شهر من تجديد عقدي، روى أحد المغتربين. لم يدفع لي رب العمل تعويضات السفر، علماً بأنني عملت لمدة ستة أعوام في قطر ». وقد تم الطلب إلى هذا المواطن الفرنسي، قبل سفره، أن يأخذ على عاتقه نفقات التأمين الصحي. على المغترب أن يكون جاهزاً للسفر من قطر خلال أسبوع!

نظمت شركة نقل، خلال عام ٢٠١٦، ترحيل خمسة وثلاثين ألف مغترب. بدأ هذا النزوح يثير قلق المسؤولين القطريين في عدد من القطاعات. ستقفل الأبواب في قطر من دون اليد العاملة الأجنبية، المؤهلة أو غير المؤهلة، وذلك لأن الأغلبية الساحقة من القطريين لا يعملون، وهذا ما سنراه لاحقاً».

يروي لنا محامي أعمال فرنسي يعمل في الدائرة المالية بقطر في منطقة الخليج الغربي، ما حصل في اجتماع عقد في ربيع عام ٢٠١٦ بين مسؤولين قطريين ومغتربين أوروبيين قائلاً: « جرت العادة بأن يكون القطريون متعجرفين في تعاملهم، لكن في هذه المرة، كان كلامهم مسؤولاً، وكان

الفزع ظاهراً على وجوههم ظهوراً كاملاً. أراد إيصال رسالة لنا مفادها: ماذا يمكننا فعله لكي تبقوا في قطر؟

وذلك لأن محامياً أنكلو ساكسونياً كان قد أثار مسألة على درجة عالية من الأهمية: كيف يمكنكم إقناعنا بألا نهاجر إلى دبي؟ وأشار آخر إلى آفاق الانفتاح على السوق الإيراني. باختصار، أثارت هذه النقاط حفيظة وانزعاج القطريين. فليس لديهم من الكوادر المحلية المؤهلة لمتابعة عمل المغتربين، كما ليس لديهم كثير من الأفكار لطرحها على بساط البحث. كانت هذه المرة الأولى التي رأيت بأم عيني ، منذ عشر سنوات، هذا الارتفاع بمنسوب الحرارة لدى القطريين ».

لقد كبرت قطر بسرعة، لا بل بسرعة فائقة دون أدنى شك. وجاءت النتائج على شكل ورشات أنجزت أعمالها كيفما اتفق نتيجة التسرع وعدم العناية، وخير مثال على ذلك هو مطار حمد الدولي الجديد. يقع الاختيار على الشركات الأرخص، ثم تقوم هذه الشركات بزيادة عدد المقاولين الفرعيين. وتكون النتيجة أن التهبت الكلفة، وزادت عمولات الوسطاء، وهكذا تكون النتيجة النهائية مخيبة للآمال.

« بالنسبة لمطار حمد، يشرح أحد المحامين، هناك مخاصمة ضخمة مع الاتحاد الإيطالي المكلف بالإنشاء. تطول قائمة الأعمال الرديئة المنفذة، إضافة إلى النوعية السيئة للتجهيزات والتأخير في الإنجاز ». إنها جزء من سقف المطار، عند هطول أول زخة قوية من المطر، خلال شتاء ٢٠١٦ ...

لقد طال تقليص النفقات حتى قناة الجزيرة، التي تعرّف العالم على قطر بواسطتها، حيث تم تخفيض عدد الموظفين بتسريح خمسمئة موظف دفعة واحدة عام ٢٠١٦.

« طال الوقف عن العمل، وبشكل أساسي، الإداريين والتقنيين، نقل أحد كوادر القناة. بررت الإدارة هذه الإجراءات، بأن هناك نقصاً في

المداخيل، لذلك وجب وضع حد لفوضى الهدر». وباءت كل مشاريع التوسع في الخارج بالفشل.

تم إقفال فرع الجزيرة بأمريكا، على الرغم من وضع ملياري دولار في الاستثمار. لن ترى النور أبداً مشاريع القناة باللغات التركية، والسواحلية، والفرنسية، والصينية. نجا فقط من العاصفة برنامج القناة في البلقان، والذي يتوجه إلى المشاهدين المسلمين في البوسنة وكوسوفو، وذلك من دون أدنى شك، لأن تكاليفه متواضعة.

«لم تعد الجزيرة قامة قياساً للأثر الذي كانت تحدثه في زمن التألق، هذا هو تحليل لأحد صحفيي القناة، والذي أضاف بأنه في الأمس كنا الوحيدين الذين يشاهدنا سكان الشرق الأوسط، وأما اليوم فلم يعد الوضع كذلك. أدت قناة الجزيرة، بالنسبة للأمير تميم، دورها التاريخي، لذلك قام بتخفيض النفقات عليها، حتى لو أن مسألة إغلاقها غير واردة».

مجتمع في حيرة من أمره

لا زال هبوط الأسعار وانقراض زراعة اللؤلؤ في السنوات ما بين عامي ١٩٣٠-١٩٤٠ يشكل صدمة راسخة في الذاكرة الجمعية لقطر. كان قطاع اللؤلؤ يؤمن حياة قسم كبير من السكان المحليين، حيث كانت زراعة اللؤلؤ النشاط التقليدي في سائر بلدان الخليج. وكان لؤلؤ الخليج ذائع الصيت في كل أنحاء العالم من حيث جودته. لقد زينت أجمل قطعة تيجان جميع العروش في العالم.

لقد ألحقت المنافسة مع زراعة اللؤلؤ في اليابان في ذلك العصر، ضرراً كبيراً بدولة قطر، وعانت مجاعة استمرت لسنوات طوال. وهو ما لا يقارن به اليوم انخفاض أسعار النفط والغاز، ولكن على تميم تثبيت وضع دولة الرفاهية الكريمة من أجل تأمين استمرار الولاء من قبل العشائر وكبريات العائلات. وإلا قد نشهد ولادة تحركات لإقالته.

يبقى المجتمع القطري مجتمعاً محافظاً، على الرغم من إجراءات التحديث التي فرضتها الأسرة الحاكمة.

ترزح الإمارة، شأنها في ذلك شأن المملكة العربية السعودية، تحت حكم الوهابية لكن بطبعة مشذبة. فالنساء في قطر تستطعن قيادة السيارة، ولا يوجد فيها تمييز حاد بين الجنسين، ويُسمح في قطر تناول الكحول[1].

---

(١) لدى الأجانب في قطر الحق بصرف ١٠% من رواتبهم لشراء الكحول، التي يتم شراؤها في محل مخصص لهم.

لكن في ظل حكم تميم، أصبح الجو ثقيلاً. يعيش هذا المغترب اللبناني في مجمع مباني تم اتخاذ جميع الإجراءات الأمنية منه، يوجد فيه أيضاً جامع، كان على هذا المغترب اللبناني أن يتحمل كل صباح جمعة خطب دينية ملتهبة. «كانت أذناي تصاب بالصرع في نهاية الصلاة، عندما يبدأ أمام الجامع بالابتهال متضرعاً لله بأن يقتل جميع الكفار».

لقد تم سحب كتب بياض الثلج والأقزام السبعة من مكتبة إحدى المدارس الخاصة بحجة أن هذه الكتب تحتوي على صور غير محتشمة و غير مناسبة. تم تنظيم تحقيق، بهذا الموضوع، من قبل المجلس الأعلى للتربية بناءً على شكوى تقدّم بها أحد آباء التلاميذ. لقد قامت السلطات بإرسال تعليمات لدور الحضانة في الإمارة، تقضي بمنع تعليق أي زخرفة على جدران الحضانة تشير إلى عيد ميلاد السيد المسيح، لأنه حسب رأيهم، هذا يوحي باحتفال لتقليد غير إسلامي. علماً أن الأمير تميم أعطى، في الوقت نفسه، موافقته على منح قطعة من الأرض لبناء كنيسة القديس شربل للجالية اللبنانية في الدوحة، نصادف هذا الشكل من الانفصام عند سلطات دول الخليج كافة.

يتوجب على تميم إدارة جيل جديد صعب جداً. وهذا تحدٍ أساسي على تميم مواجهته ويكمن في الأخذ بيد شباب يتخبط في حيرة كاملة، وخاصة الشريحة العمرية ما بين الخمسة عشر عاماً والعشرين عاماً، حيث لم يعرف هذا الجيل صعوبات الحياة في الصحراء. يحاول الأمير، في خطاباته، هزّ الشباب وحضهم على العمل: «توقفوا عن قضاء أوقاتكم في المراكز التجارية، انكبوا على دراستكم، وانطلقوا إلى العمل!» لكن المال أفسد جيلاً بكامله. إذ عندما يقارب الناتج المحلي القائم لكل فرد حوالي مئة ألف دولار في السنة، فلِمَ عليه أن يبحث عن عمل أو أن يبذل جهوداً وهو في الثامنة عشرة من عمره ولديه كل هذا المال؟

يتقاضى القطريون رواتباً لا تمت بصلة إلى ضريبة شراء السلع الاقتصادية، هذا ما لاحظه محامي أعمال فرنسي. حيث يقارب الراتب الوسطي لموظف محلي مبلغ مئة ألف ريال شهرياً، أي ما يعادل خمسة وعشرين ألف يورو! يعمل أولئك الذين يتبوؤون مناصباً مفتاحية بشكل جنوني من أجل أن تتقدم بلادهم، بينما يفضّل الآخرون قضاء عطلة نهاية الأسبوع في لندن أو في باريس، كما يوجد شريحة الطبقة الوسطى المحافظة التي لا تنظر بعين الرضا إلى وجود الأجانب كلياً. تشجع السلطات القطرية على «أقطرة» الوظائف أي جعلها قطرية بحت، لكن المشكلة تكمن في عدم وجود قطريين مؤهلين بما يكفي. ففي الكثير من الأحيان يتم وضع موظفين قطريين في مواقع مفتاحية أكبر بكثير من إمكانيات من يتبوؤها، وتكون النتيجة بأنهم يغرقون في بحر الملفات التي عليهم إدارتها.

إن المشكلة الحقيقية تكمن في أن القطريين ينظرون إلى العمل على أنه مُحقّر، وإلى الكسل على إنه ليس مخجلاً، بل على العكس: يتيح لك الكسل أن تظهر في المجتمع على أنك قوي والآخرين يعملون من أجلك! تضاعف السلطات على الرغم من ذلك، جهودها ومبادراتها تجاه الشباب بتشجيعهم على إنشاء شركاتهم الخاصة والتوقف عن الاعتماد على كرم الدولة.

يروي موظف لبناني كبير في وكالة اتصالات: «يقدّم بنك قطر للتطوير قروضاً للشباب كرأسمال مالٍ للانطلاق بتأسيس شركاتهم، وتحقيق مشروع تجاري، ويذهبون حتى إلى توظيف عدد من الأشخاص لمساعدتهم! أين يمكن أن نجد في أي بلد في العالم مثل هذه الظروف المشجعة للانطلاق في بناء المستقبل؟ لكن هنا في قطر، الشباب لا يأبهون أبداً بها، يطمحون جميعاً في أن يكونوا مدراء في الإدارات لا أكثر».

لم يستطع تدفق المال الذي تشهده قطر، منذ خمسة عشر عاماً تليين السكان المحليين بما يتعلق بأخلاقيات المجتمع فقط. حيث بلغت نسبة

المصابين بالسمنة المرضية ٣٠٪، أي النسبة ذاتها في الولايات المتحدة الأميركية. يقضي القطريون سهراتهم في الأكل أكثر من المعقول.

« لا يمكن لقطري أن يرفض دعوة، لأنه يعتبر ذلك واجباً اجتماعياً لا يجب التفريط فيه، يشرح لنا ذلك طبيب تونسي. اشتكى لي أحد المرضى، والذي كان لديه معدل مرتفع جداً من الكوليسترول، بأنه مضطر للمشاركة في ولائم، إذ إنّه يحضر ثلاث أو أربع ولائم في الدواوين أسبوعياً ».

لا يمكن للقطري، في مثل هذه الدواوين والولائم الضخمة، أن يأكل برأس أصبعه فقط، لأن ذلك يعرضه لامتعاض صاحب الديوان الداعي.

أصبح استهلاك الطعام عند القطريين إدمان ومعاقرة لا يمكن الاستغناء عنها. يعيش الناس في قطر معتمدين على القروض، على الرغم من المداخيل المربحة. إنهم يسجلون على قروض لشراء سيارة يقومون ببيعها لاحقاً، من دون أن يسددوا القرض إلى المصرف.

تقوم الدولة، بمناسبة العيد الوطني أو عيد الفطر، بإصدار عفو يمحو القروض. يحصل الشيء ذاته بشأن قروض البناء إذ يتقدمون بطلب قرض لتشييد منزل، وبعد بضع سنوات يتوقفون عن دفع الأقساط، ويقوم مرة أخرى الديوان الملكي بإنهاء الأمر على حسابه.

لم يخفف التباطؤ الاقتصادي الذي تشهده قطر، التعطش للفشخرة وحب التظاهر عند القطريين. لم يعد شراء سيارة فخمة آخر صرعة في الموضة بل أيضاً شراء لوحة للنمرة المميزة التي تظهر تميز صاحبها. فمثلاً نمرة تحمل الأرقام «٣٣٣» أو «٠٠٠» يصل ثمنها إلى ما بين مليونين و ثلاثة ملايين دولار. انتشرت الظاهرة نفسها فيما يتعلق بأرقام الهواتف المحمولة وأثمانها الباهظة التي تصل أحياناً إلى ثلاثين ألف يورو.

تفجّر في قطر أيضاً، على غرار ما حصل في عروش الخليج الأخرى، استهلاك الكحول وهذا شمل النساء أيضاً. حيث انتشرت ظاهرة جديدة في

الدوحة تسمى «مقهى الشيخة». تستخدم القطريات هذا التعبير، في الواقع، لتتمكن من طلب مشروبات كحولية في الفنادق الراقية. تقوم النساء بإخفاء المشروبات الكحولية في ركوات القهوة أو في أباريق الشاي. وهكذا، بين الحرمان والمبالغة، يصبح كل شيء متاحاً شريطة عدم إظهاره للعيان.

إن التحدي الأكبر للحكم، بالنسبة للأمير تميم، هو إنجاح تنظيم كأس العالم لكرة القدم، يأمل تميم باستنفار كل مواطنيه لهذا المشروع. وليس من قبيل المصادفة أنه تم تحديد المباراة النهائية لهذه البطولة يوم الثامن عشر من كانون الأول ٢٠٢٢، حيث يصادف يوم العيد الوطني لدولة قطر. وتم اتخاذ الإجراءات كافة لكي يتم تتويج إلهي لحكم تميم.

ومن أجل إنجاح هذا المشروع حضر الأمير تميم المباراة النهائية لبطولة أوروبا في ستاد باريس، وكان قد أوفد مجموعة مؤلفة من خمسة عشر ضابطاً في الشرطة القطرية ليتدربوا على طرق حماية هذا الحدث الكبير. لكن من يعلم؟ .. فمنذ اليوم حتى عام ٢٠٢٢، ما زال الدرب طويلاً مزروعاً بالكمائن.

يمكننا الكشف من جهة أخرى، على أنه تم حشد عدد كبير من القانونيين والمحلفين الدوليين لصياغة الخطة (ب)، وذلك في إطار الاستعداد للأوضاع كافة فيما إذا حصل من قبيل المغامرة، وقامت الفيفا بسحب تنظيم بطولة كأس العالم من قطر بسبب فضيحة الفساد التي أحاطت بتسمية قطر. فقد تم الطلب من مكاتب قانونية تحضير عدة سيناريوهات افتراضية لإلغاء البطولة.

تتضمن هذه السيناريوهات كيفية تشغيل آلية التأمينات، وماهي الأضرار والمكاسب، وما هو حجم الخسائر، هذا ما شرحه لنا أحد المقربين من الملف.

إذا ما تم توجيه أصابع الاتهام للجنة التنظيمية القطرية بالقيام بأعمال مواربة، فستقوم الدوحة بإلقاء اللوم على بعض الأفراد وتحملهم مسؤولية ذلك، مؤكدة أن هؤلاء الأفراد لم تُسند لهم وظائف رسمية، الأمر الذي يعفي سلطات الإمارة من أيّ مسؤولية مباشرة. هذا يعني باختصار، تقديم بعض الأفراد كبش فداء تتم التضحية بهم مقابل الحفاظ على تنظيم بطولة كأس العالم لكرة القدم.

لقد تم تحضير مناطق خاصة بالمشجعين الذين يستهلكون الكحول، لكن حاول البعض من صفوف السلطة إعادة النظر في الحملة الدعائية المستقبلية لشركة صناعة البيرة التي تحمل اسم (كارلسبرغ)، وهي شريكة رسمية للفيفا (FIFA).

تساءل هؤلاء المنظمون: «هل هنالك حاجة فعلية لراعٍ يصنع المشروبات الكحولية؟ حتى إنَّ البعض اقترح دفع التعويضات لصاحب الشركة الدانماركي كي لا يتقدم بإعلاناته خلال بطولة العالم. لكن هذه الاقتراحات ذهبت هباءً منثوراً بسبب القوة الخارقة للفيفا وللمعلنين في هذا النوع من الأحداث.

تشكل مئات الألوف من العمال الآسيويين، نقطة الضعف الكبرى بالنسبة للمنظمة وهم الذين يبنون ملاعب البطولة الثمان، وكذلك جميع البنى التحتية في الدوحة (مئتا مليار دولار وضعا بالاستثمار). لم تتوقف الانتقادات التي تمطر على قطر المتعلقة بمصير اليد العاملة الأجنبية. لقد قرر الاتحاد العالمي للنقابات العمالية عدد العمال الأجانب الذين قد يلقوا حتفهم من الآن إلى ما قبل بداية أولى مباريات البطولة عام ٢٠٢٢.

لقد دحض المنظمون القطريون هذا الرقم، الذي يعتبرونه وهمياً دون أن تؤخذ بعين الاعتبار الإصلاحات التي يجري تنفيذها. بالفعل، بدأت الإمارة التي تكره الدعاية السيئة عنها، بعد أن وُضعت أمام مسؤولياتها

بـإجراء إصـلاحات تطـال أوضـاع اليـد العاملـة الأجنبيـة والظـروف التـي تعمل بها.

لقد أدركت السلطات القطرية اليـوم المفارقـة التاريخيـة وغـير المناسـبة لروح العصر لظاهرة «الكفالة»[1]. فقد تـم تبنّي قانون جديد في كـانون الأول عام ٢٠١٥، لكنه لم يطبق إلا في مطلع عام ٢٠١٧[2].

تتعلق إحدى النقـاط الأكثـر انتقـاداً واحتجاجـاً والموجـودة في النظـام السابق، بمنح الموافقات على الخروج من الأراضي القطرية، المتروكة بـشكل كامل لتقدير أرباب العمل الذين يمكنهم منع أي موظف أجنبي لديهم رغماً عنه المغادرة من قطر.

يتضمن القانون الجديد بأنه من الآن فصاعداً، تـصبح وزارة الداخليـة هي من يمنح إذن الخروج خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة أيام.

« لم يغير الوضع الجديد شيئاً كثيراً، هذا مـا اسـتنتجه محـامي أعـمال، لا بل قد زاد هذا القانون الجديد من تعقيد الأمور. حيث أصبح الآن مـنح إذن الخروج يصدر عـن لجنـة داخليـة في وزارة الداخليـة، التـي عليهـا أن تطلـب رأي رب العمـل ». أي وبمعنـى آخـر، إذا مـا أراد رب العمـل منـع موظـف لديه من مغادرة قطر، فإنه يفعل ذلك ولو بطريقة غير مباشرة.

تـم إنجـاز تقـدم حقيقـي، عـلى الـرغم مـن كـل شيء، في مجـال تحـسين أوضاع العمال الأجانب.

---

(١) يُعتبر نظام الكفالة، بحسب المنظمات غير الحكومية الدولية لحقوق الإنسان، شكلاً من أشكال العمل الإجباري، ويضع العامل تحت رحمة رب العمل بـشكل كامـل، والذي يقوم في بعض الأحيان بمصادرة جواز سفره.

(٢) ينص القانون رقم ٢١ لعـام ٢٠١٥ عـلى قواعـد ضـبط دخـول وخـروج وظـروف الإقامة للمغتربين (قانون الكفالة الجديد).

أصبح لزاماً على أرباب العمل، منذ الآن فصاعداً، أن يقوموا بدفع رواتب الموظفين عن طريق تحويل مصرفي وليس نقداً.

أصبح الآن، وضمن شروط محددة، بإمكان العمال الأجانب تغيير عملهم عند انتهاء عقودهم، وهذا ما لم تكن عليه الحال حتى اليوم. كما أصبح لزاماً على أرباب العمل، بدءاً من الأول من كانون الثاني عام ٢٠١٧، أن يقوموا بنقل عمالهم على متن حافلات مجهزة بالمكيفات وذلك بين أماكن إقامتهم والورشات التي يعملون بها.

من جهة أخرى، بدأت قطر، التي يشار لها بالبنان من قبل منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان، بإزالة مخيمات السكن الرديئة المخصصة للعمال بشكل تدريجي.

تعتمد الشركات التي تساهم في ورشات كأس العالم معياراً لسكن العمال على الشكل التالي: أربعة عمال يسكنون بمساحة ٢٥ متر مربع، في حين كان المعيار السابق السائد هو ثمانية عمال بمساحة عشرين متراً مربعاً.

قامت السلطات القطرية، لضمان التحقق من شروط معيشة العمال الآسيويين بتوظيف ثلاثمئة وخمسة وسبعين مفتش عمل.

إن الإنجازات التي تحققت بهدف إزالة المظاهر الأكثر مبالغة في نظام الكفالة تؤكد، بحسب تقرير عن السفارة الفرنسية بقطر، «وجود إرادة سياسية قوية لإقامة إطار تشريعي جديد، وذلك على الرغم من المعارضات التي سترتفع أصواتها من قبل أرباب العمل القطريين»(١).

تسعى قطر بفضل كأس العالم إلى إعطاء دفعة قوية إلى السياحة بكل أشكالها (طبية، ثقافية، أو أعمال). الهدف الذي حددته السلطات القطرية هو استقطاب ١١% من السائحين الإضافيين سنوياً، وذلك للوصول إلى

---

(١) تقرير من المحلفية الاقتصادية في السفارة الفرنسية بالدوحة، ١٧ آذار ٢٠١٥.

رقم سبعة ملايين زائر سنوياً في عام ٢٠٣٠، بدلاً من مليونين وثمانمئة زائر عام ٢٠١٤، ومن المقرر أن يتم خلال السنوات الخمسة القادمة، افتتاح ثمانين فندقاً جديداً، حيث ستكون بنسبة ٨٠% منهم مصنفة أربعة أو خمسة نجوم.

هناك العديد من الأسئلة التي تطرح نفسها: كيف ستستخدم كل هذه البنى، بعد انتهاء بطولة كأس العالم؟ ما هو مصير المليوني عامل أجنبي الذين سيشيدون المعجزة القطرية؟

سيتوجب على الأمير تميم أن يثبت عند انطفاء شعلة الحدث الكوني، أن قطر ستستمر بالتألق وبجذب أنظار العالم إليها، وذلك طبقاً للحلم الذي كان يراود والده، الشيخ حمد.

الخاتمة

يتوجب على فرنسا الحفاظ على شراكة مميزة مع المملكة العربية السعودية، وقطر، ودولة الإمارات العربية المتحدة، والكويت.لكن بعيداً عن شراء بلدنا فإنّ استثماراتهم في بلادنا، أو الاستثمارات التي نقوم بها عندهم، تعود بالنفع المشترك علينا وعليهم. لا يوجد لفرنسا، بعد ذلك، أي مصلحة في أن ترى بلداً كبيراً مثل المملكة العربية السعودية يسقط في أحضان المتطرفين.

تكمن المعضلة الأولى في العلاقة مع الرياض فيما تقوم به من تبشير ديني.

إذا كان من العبث انتظار قيام السلطات السعودية بالتخلي عن العهد المؤسس مع المؤسسة الدينية الوهابية، فعلى الأقل لفرنسا الحق أن تطلب توضيحات لإزالة الغموض الذي يلف العلاقات الضبابية التي تقيمها السعودية مع الجاليات الإسلامية عبر العالم وخاصة في فرنسا. إذا كان تمويل جامع نيس من المال الخاص لوزير الشؤون الإسلامية في المملكة مطابقاً للقوانين، فإنه غير مقبول.

تقتضي هذه الأمور إجراء مفاوضات حازمة وقاسية طلباً لمزيد من الشفافية. تعتبر المملكة العربية السعودية نفسها «إمبراطورية الوسط» في منطقة الشرق الأوسط، وهي البلد الوحيد في الخليج، الذي لم تطأه أقدام محتلين وذلك بعكس جيرانها في الخليج، وكان هاجس السعودية دائماً هو أن تعيش بعيدة عن أنظار الخارج.

«لا نرغب بأن يتدخل في شؤوننا أي شخص أو جهة، هذه هي الفكرة المتكررة التي لا يتوقف المسؤولون السعوديون عن طرحها أمام السفير برتراند بوزاتسنو. نريد أن نحيا بسلام داخلي، طالما لا نتدخل نحن في شؤون الآخرين». لم يعد لهذا الموقف اليوم مصداقية، وذلك نظراً للسياسة التي تنتهجها القيادة السعودية الجديدة في اليمن، على سبيل المثال لا الحصر.

أصبح الآن من الضرورة بمكان إجراء حوار نقدي لتصويب علاقتنا السياسية مع المملكة العربية السعودية كما أصبح من واجب المسؤولين السعوديين تعديل مواقفهم - وهنا يجدر الإشارة إلى كلٍّ من برينو لومير، وفرانسو فيون اللذين أدانا التردد الأزلي لفرنسا بين الصفقات و بين الحزم اتجاه الطرفين.

لن يحصل التعديل المنتظر طالما لم تمارس فرنسا مزيداً من الضغط على الرياض، حيث علمتنا التجربة في مواقف عديدة أن المملكة العربية السعودية لا تفهم إلا لغة الإجبار الآتية من الخارج.

يجب على فرنسا، بما يتعلق بهذه النقطة، أن تستلهم ليس فقط من مواقف الولايات المتحدة، بل أيضاً من دول أكثر تواضعاً، مثل السويد وسويسرا، اللتين لم تخشيا لومة لائم واتخذتا إجراءات جريئة، حيث لم تجدد استكهولم عقد التعاون العسكري الذي وقعته مع المملكة العربية السعودية عام ٢٠٠٥، بالتأكيد، أن مبلغ العقد ليس ضخماً (سبعة وثلاثون مليون يورو)، لكن لم تساوم السويد، وباسم حقوق الإنسان، على مبادئها الدبلوماسية.

رفضت سويسرا، هي أيضاً، تسليم السعودية شحنة من العتاد والذخيرة، وذلك احتراماً للحظر الذي فُرض على بيع السلاح بعد سقوط الكثير من الضحايا المدنيين بسبب قصف طيران التحالف العربي الذي تقوده السعودية في اليمن.

اتخذت ألمانيا أيضاً مواقف حازمة جداً، فقد ورد على لسان نائب المستشارة الألمانية سيغمار غابرييل، إن ألمانيا تطلب من السعودية إيقاف «تمويل الجوامع الوهابية في أنحاء العالم كافة».

انسحبت الحكومة البريطانية، مع أنها الحليف المقرب من المملكة، من إعلان طلب عروض حول تحديث واقع السجون السعودية، وذلك على خلفية الانتقادات الموجهة للسعودية والمتعلقة بحقوق الإنسان.

يجب أن يتم وضع حد للصمت المفروض من قبل لوران فابيوس على وزارة الخارجية الفرنسية والمستمر حتى بداية ٢٠١٦ في كل ما يتعلق بالمساس بالحريات الشخصية في المملكة العربية السعودية. فكررها مرة أخرى «بأن هذه الدول لا تفهم إلا لغة القوة ولغة الناس الأقوياء، وليس لغة المتزلفين» باح بها دبلوماسي.

ارتكبت دبلوماسيتنا خطأً آخرَ بأنها باعت انسحاباً أمريكياً من الخليج بثمن باهض على أمل أن تحل فرنسا محل الولايات المتحدة الأمريكية. لكن لا شيء يحصل من هذا القبيل، لا في الأرقام – ثلاثة وثلاثون مليار دولار لشراء أسلحة من الولايات المتحدة عام ٢٠١٥ – ولا حتى في النوايا المعلنة – أمضى الأمير محمد بن سلمان زيارة إلى أمريكا في حزيران ٢٠١٦ استغرقت ثلاثة أسابيع في أنه أمضى في باريس زيارة لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط – إذن لا شيء يدل على نقض أمريكا لتعهداتها اتجاه حلفائها السنة، ولا على أن الثقة التي كانت موجودة بينهما قد اهتزت.

وهكذا يبقى دور فرنسا، في أفضل حالاته، «شريك التعويض (احتياطي)» للمملكة العربية السعودية.

أما فيما يتعلق بتمويل الإرهاب الإسلاموي، فمن العبث اتهام السلطات السعودية تمويل داعش، وذلك في الوقت الذي تشكل فيه السعودية أهم أهداف الخليفة الذي نصّب نفسه أبو بكر البغدادي، الذي

يطالب بشرعيته في حكم الأماكن المقدسة بناء على صلة القرابة التي تربطه بقريش، وهي القبيلة المرتبطة تاريخياً بمكة والنبي محمد.

ضاعفت السعودية، في السنوات الأخيرة، من جهودها في مكافحة الإرهاب وللوصول إلى ذلك، كان لا بد من ممارسة ضغوط قوية عليها. جاءت هذه الضغوط في معظم الأحيان بفعل أمريكي، والتي كان على فرنسا أن تدعمها بتحفظات أقل في مجال مفاده أن كل شيء هو صنيعة إرادة سياسية.

فيما يخص العلاقة مع قطر، فهي تتجلى بالأحرى، باللعب على الحبلين الذي تقوم به إمارة قطر، خاصة في علاقاتها الغامضة مع بعض الحركات الإسلاموية المتطرفة. ما حصل من دفع فدية إلى فرع القاعدة في سورية (جبهة النصرة)، وتساهلها مع ممولي الجهاد الذين تأويهم الدوحة، يُشكل مصدر قلق حقيقي. ولا يمكن، في الخفة من قبل العديد من المسؤولين السياسيين الفرنسيين. لم يعد هناك مكان لا للكياسة، ولا حتى لمجرد زيغان النظر.

يُظهر الأمير الجديد تميم، بالتأكيد، حذراً أكبر من السابق. لكن، على غرار المملكة العربية السعودية، تطور قطر سياسة تبشيرية دينية مقلقة، مستخدمة في ذلك منظمات غير حكومية خيرية مثل جمعية قطر الخيرية.

تستخدم الدوحة الهبة الخيرية الإسلامية (الصدقة) كسلاح لقوتها الناعمة، والأمثلة على ذلك غير قليلة (خمسة مشاريع بناء جوامع في مالي، وثمانية في النيجر، وأربعة في الكوسوفو، وثلاثة في ألبانيا ... إلخ) يجدر هنا أيضاً أن نكون يقظين وأكثر حزماً.

يوجد أيضاً ضرورة لممارسة ضغوط على الكويت، وإن كانت متكتمة أكثر حول نشاطاتها وذلك كي تتوقف المنظمات غير الحكومية التي تعمل فيها، وعمليات التمويل التي يقوم بها ممولون من جيوبهم الخاصة، عن إمداد المجموعات الإرهابية. تعود الولايات المتحدة هنا إلى الهجوم، أما فرنسا فلا.

لم يقم السفير الفرنسي الجديد في الكويت، كريستيان نخلة، منذ عام ٢٠١٤، بإدراج موضوع تمويل الإرهاب في خطة عمله ولا في أي لحظة من اللحظات على الرغم من الدمار الذي حصل في سورية. إنّ الوثيقة المرسلة بالسفارة الفرنسية، والتي اطلعنا عليها، مؤلفة من خمس صفحات مكرسة بشكل أساسي للدبلوماسية الاقتصادية. هنا أيضاً، يصعب فهم لماذا هذا التجاهل في سياق موسوم بالإرهاب، علماً أن الإدارة العامة للأمن الخارجي قد أقفلت مكتبها الرسمي في مدينة الكويت.

إذا ما كان هناك بلد خليجي يمكن لفرنسا العمل معه، في مجال الحرب على الجهاديين، فستكون دولة الإمارات العربية المتحدة. وذلك لأن برنامجها يشكل شريكاً من دون أدنى غموض في هذا المجال، حتى إن دفع هاجس الإماراتيين المعادي للإسلاميين لاتخاذ مواقف متطرفة وغير مجدية أحياناً، كما حصل مثلاً في البحث عن حل للأزمة الليبية. إذ ترى دولة الإمارات أن الحل الوحيد الممكن هو اجتثاث أصحاب الذقون الطويلة.

لا يمكننا تجاهل أن موقف فرنسا اتجاه هذه الدول، التي أغرتنا بأسواق، كان منصاعاً جداً، في نهاية الأمر. «لم يُستقبل باحترام بحثنا في الحصول عن العقود بأي ثمن: وهذا أمر أصبح معروفاً في المنطقة، وهو النظر إلى فرنسا على أنها دولة ضعيفة، هذا ما أكدته في الجمعية الوطنية في شهر كانون الثاني ٢٠١٦، وأمام لجنة الشؤون الخارجية، الباحثة فتيحة دازي–هاني، المتخصصة بشؤون الخليج. لا تتصوروا إلى أي درجة تلعب فيها دول الخليج بهذه الورقة بشكل مهين جداً! فهم عندما يرون فرنسيين يحطون رحالهم في بلادهم متأنقين في لباسهم، باحثين عن عقود، يهمسون بين بعضهم البعض بأنهم سيستمتعون في اللعب مع الفرنسيين! إن هذه الدول لا تحترم إلا القوة». أضافت هذه الباحثة، حيث أكد أقوالها العديد من الصناعيين المترددين بشكل دائم على هذه البلدان الملكية.

يجدر الإشارة إلى أنه ليس فقط أن أمراءهم يعرفوننا أكثر مما نعرفهم، لكن الأدهى من ذلك أنهم على سعة اطلاع بنقاط الضعف وبالفساد الأخلاقي لقسم من طبقتنا السياسية.

إن الممارسات غير اللائقة والمافيوية تماماً التي يقوم بها بعض الساسة الفرنسيين مع القطريين تكون أحياناً مدهشة. لذلك من المفترض على ساستنا أن يغيروا من سلوكهم بمعنى أن يُطهروا ذواتهم في علاقاتهم مع دول الخليج. ومن جهة أخرى، وفي معظم الأحيان تتعامل النخب الفرنسية مع الأمراء بشكل متعجرف. ويقومون بإرسال وسطاء سماسرة من أصل مغاربي – الذي لا يروق للخليجيين رؤيتهم – لإجراء مفاوضات بشأن بعض النقود لا فائدة مرجوة منها، هذا ما نقله لنا عدد كبير من رجال الأعمال.

نصل أخيراً إلى مسألة المال الذي لوّث علاقتنا مع هذه الدول طيلة عقود من الزمن. هل يمولون أحزابنا السياسية؟ لنصغي إلى ما قاله جاك جوسلين بول، وهو صناعي فرنسي مقيم في الرياض منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ومؤلف لمجموعة من الكتب حول المملكة العربية السعودية.

«إن المال الذي هو عصب الحرب، يشكل بالنسبة للسعودية أيضاً أفضل الطرق للتعامل مع الزبائن، إن كان اتجاه العشائر، أو اتجاه الغربيين بتقديم المساعدة لهم في تمويل أحزابهم السياسية، أو اتجاه تنظيم أسعار النفط، أو بمنحهم عقود تسليح عجيبة، أو اتجاه المؤمنين المسلمين في كل أصقاع الدنيا لنشر الأطروحات الحنبلية[1]، أو اتجاه الدول النامية بهدف ربطها وتبعيتها للسعودية»[2].

ألم يحن الوقت، بعد إدراكنا لكل هذه الأنماط من السلوك، لإعادة النظر في علاقتنا مع دول الخليج؟ بالطبع، لا يعني هذا أن نقوم بقطعها، لكن بإعادة التوازن لعلاقاتنا مع هذه الدول، خاصة بعد «الضربة المدوية»

---

(١) المذهب الحنبلي: أحد أربع مدراس فقهية سنية – وهي المذهب الحنفي، المذهب الشافعي، المذهب المالكي. المذهب الحنبلي هو المذهب الأكثر تشدداً بين هذه المذاهب الأربع، وتندرج الوهابية بالمملكة في إطار هذا المذهب.

(٢) المملكة العربية السعودية، غير قابلة للاحتواء، جاك جوسلين بول، ريفنوف ٢٠١٦.

التي حصلت في الشرق الأوسط في الرابع عشر من تموز ٢٠١٥، بتوقيع الاتفاق النووي، الذي سمح بعودة إيران من جديد إلى المجتمع الدولي. هلّا نرغب بذلك؟ إن ما نسمعه على لسان عدد كبير من دبلوماسيينا، فنحن حتى الآن لسنا مستعدين بما يكفي لإعادة النظر بعشرات السنين من العلاقات المميزة والمتميزة مع أمرائنا الأعزاء جداً.

غير أن هذه المسألة قام بطرحها بعض المرشحين للانتخابات الرئاسية في فرنسا، لا يمكن الاعتداد بها لصناعة الاقتصاد.

لا يمكن الفصل بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية، يلح رينو لومير على هذا الموضوع مضيفاً أنه لا يمكن النظر إلى تعميق العلاقات بشكل مستمر مع دول الخليج، لاسيما المملكة العربية السعودية، على أنه أمر لا يترك بصمته في الوضع داخل فرنسا. هذا غير صحيح.

لا يفهم الفرنسيون المصدومون بفعل التفجيرات هذا الإصرار على ترسيخ الواقع الدبلوماسي الراهن. هذا هو التحدي الذي لن يستطيع الرئيس القادم التخلص منه.

المحتوى

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م